

صراع الحب

صراع الحب (رواية)
فيدور دستويفسكي
ترجمة: د. محمد أبو طائلة
تقديم ومراجعة: د. نبيل صابر
الطبعة: ٢٠٢٣



العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر - الهرم – الجيزة - مصر
هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com
E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

فيدور دستويفسكي. - ترجمة: د. محمد أبو طائلة – تقديم ومراجعة: د. نبيل صابر - صراع الحب
- الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢
٢٥٣ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٤ – ٦ – ٨٦٣٨٢ – ٩٧٧ - ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٥١٠٤ / ٢٠٢٢

فيدور دستويفسكي

صراع الحب

رواية

ترجمة

د. محمد أبو طائلة

تقديم ومراجعة

د. نبيل صابر

تقديم

لو بحث القارىء في قائمة الأعمال الكاملة التي كتبها الروائي الروسي الكبير فيودور دوستويفسكي، فلن يجد رواية باسم "صراع الحب"، لكن إن تخطيت صفحة الغلاف وطالعت الرواية التي نضعها اليوم بين يديك، واكتشفت حبكتها وطالعت أسماء الشخصيات التي تتحرك على صفحاتها، فستدرك أن الكتاب الذي تطالعه هو نفسه رواية "الإخوة كارامازوف" وهي آخر أعمال دوستويفسكي؛ وهي من أهمّ أعماله الأكثر تأثيرًا.

صدرت الرواية في عام ١٨٨٠م، وفيها يتناول كاتبها القضايا الجوهرية المرتبطة بالإنسان في هذا العصر، مثل قضايا الخير والشر والعدالة والحق والخلود والحرية، القصة بمجملها تتناول أزمة الأخلاق والقيم الاجتماعية بين العائلة ورجال الدين والقانون، كما تسهب في وصف انعكاسات الخضوع للأنانية وسيطرة الغريزة.

ومنذ صدورها لقيَتْ إعجاب أهمّ الفلاسفة والمفكّرين فالروائيّ والفيزيائيّ تشارلز بيرسي سنو كتب عنها قائلا: "الإخوة كارامازوف في رأي آينشتاين سنة ١٩١٩م كانت القمّة العليا لجميع الأعمال الأدبية، وظلّتْ كذلك حتى عندما تحدَّثتُ معه سنة ١٩٣٧م، وربَّما حتّى نهاية حياته".

أما فرانز كافكا فقد تأثَّر بها كثيرًا، فقال أنه هو ودوستويفسكي من أقارب الدمّ، أي أن صلة دم بينهما، بسبب التأثير والإعجاب بأعماله وشخصيَّته.

تُعدُّ "الإخوة كارامازوف" روايةً فلسفية عاطفية عن روسيا في القرن التاسع عشر؛ والتي تعالج بعمْق، وتخْلِق مناقشات أخلاقية فيما يخصّ الله، والإرادة الحرّة، والأخلاق، والدين، تُعدّ الرواية دراما روحية للنضال الأخلاقي أيضًا؛ فيما يتعلّق بالإيمان، والشكّ، والقرار، والعقل، وقد ركَّزتْ على أهمّ المواضيع التي تشغل بال دوستويفسكي أيضًا؛ من مواضيع لاهوتيّة وفلسفية فيما يتعلّق بأصل الشر، وطبيعة الحرية، وشغف الإيمان.

وقال النقاد عن هذه الرواية أن كل أدب فيودور دوستويفسكي منذ البدايات وحتى صدورها موجود فيها، بقلقه وحنانه وقسوته، ودقة تصويره للصراعات لدى الإنسان، فضلًا عن عمق تصويره للعلاقات البشرية، ليس كما كانت تتجلى في زمنه، بل كما تتجلى منذ فجر البشرية، وكانت آخر أعماله فقد توفي بعد نشره لفصلها الأخير في إحدى المجلات، وكانت أشبه بوصية أدبية وإنسانية للمبدع الكبير، وأكثر من هذا تكثيفاً لكل أدبه وملخصًا لكل الأفكار التي دارت في رأسه حول الإنسان والدين والإيمان، والخير والشر.

وصف سيجموند فرويد الرواية بأنّها: "أروع رواية كُتِبتْ على الإطلاق"، وعندما عمل على تحليله النفسي لعلاقة الحب بين الرجل والمرأة، استند في جزء كبير من أبحاثه على الأعمال الروائية لفيودور دوستويفسكي، وقد عارض عددًا كبيرًا من النقاد والمحللين النفسيين في عصره، ممن اعتبروا أن روايات العبقري الروسي ذكورية الطابع، بما يختلف عن آنا كارنينا لتولستوي ومدام بوفاري لفلوبير مثلًا، وأن المرأة في أدب دوستويفسكي مجرد نقطة تحول في مسار الرجل، واعتبر فرويد أن الروائي الروسي نجح في شرح

وتحليل تلك العلاقة المعقدة بشكل أعمق بكثير حتى من علماء النفس وليس فقط أكثر من الأدباء الآخرين،، فنشر مقالة عن نمط الاختيار عند الرجل، أو الشروط التي على أساسها يختار أي شخص حبيبة أو زوجة لإقامة علاقة حب، يمكن تلخيصها في أربعة محاور:

-المحور الأول عن إصرار الرجل على اختيار امرأة صعبة المنال، أي المرتبطة أصلا بزوج أو حبيب أو صديق، وقد أسماه فرويد محور ما يسمى بالثالث المغبون، وهو ما ظهر في حياة دوستويفسكي نفسه من خلال قصة حبه الأول، وانتظاره وفاة الزوج السكير قبل التمكن من الزواج بماريا إيسايفا، وتجلى إبداعيًّا فيما بعد في الأبله والزوج الأبدي.

-والمحور الثاني هو محور العاهرة، حيث يرى فيه فرويد أن المرأة العفيفة لا تنجح في إثارة مشاعر الرجل كتلك التي تحظى بها من تحيط بحياتها الجنسية الشكوك، وقد ظهر ذلك في تكرار دوستويفسكي في أدبه للأزمة الصراع بين الأب والابن على العاهرة.

-وفي المحور الثالث وهو الوفاء المرضي، ويتناول الوفاء الأشبه بالشعور القهري لدى المتصف بالصفتين السابقتين أو إحداهما على الأقل، ويتجدد هذا الوفاء المرضي مع كل تجربة جديدة وإن تغيرت الظروف والحيثيات المرافقة، ويتجلى ذلك في تجربة دوستويفسكي مع أبوليناريا التي لحق بها متنقلًا بين أقطار أوروبية متعددة لمجرد تعبيرها عن الإعجاب بكتاباته، قبل أن تصدمه برفضها الزواج منه في نهاية المطاف.

-أما المحور الرابع وهو المنقذ أو المخلص، وفيه يتعلق برغبة الرجل في

إنقاذ محبوبته، وذلك مع اعتقاده الراسخ بأنها دومًا بحاجة إليه.

ويخلص فرويد إلى أن رؤية دوستويفسكي تتمثل في أن كل حب لا يشتمل على امرأة سيئة السمعة، أو طرف ثالث مغبون، أو رغبة هائلة بالتضحية في سبيل من قد لا يستحق ذلك، هو حب مستحيل، لا وجود له، فإن توافرت تلك الشروط أو المحاور يوجد الحب الذي يستحق الصراع من أجله.

ديستويفسكي والحب

لاشك أن أحداث حياة الكاتب تؤثر على مجريات الأمور في رواياته، ولعل مفهوم ديستويفسكي عن الحب، وما قاله فرويد عن المحاور الأربعة للحب عند الروائي الأشهر، قد تأثر كثيرا بالحياة الشخصية التي عاشها الكاتب، قول سيرة حياة فيودور دوستويفسكي إنه خاض تجربة الحب في حياته ثلاث مرات، مما أسفر عن زيجتين سعيدتين، وزوجته الأولى هي ماريا إيسايفا، التي تزوج منها بعد وفاة زوجها، وقد توفيت بعد سبع سنوات من زواجها الثاني بديستويفسكي، الذي قال عنها بعد رحيلها : "لقد عشت معها عصرًا كاملا"، كما أنه خلدها بأن منح إحدى شخصيات روايته الأشهر "الجريمة والعقاب" بعضًا من الملامح الجسدية والنفسية لماريا إيسايفا.

أما العلاقة الثانية فكانت من فتاة متقلبة الأهواء، اسمها أبوليناريا سوسلوفا، أرسلت له رسالة عبرت فيها عن إعجابها بإبداعه الأدبي، ثم تعددت الرسائل، وتطورت العلاقة بحيث التقيا وتحابا، وعرض عليها دوستويفسكي الزواج، لكنها فاجأته بل صدمته بالرفض، مفضلة الارتباط

بطالب إسباني شاب، وقد قام الروائي بتوظيف شخصيتها غير المستقرة في روايته "الأبله" من خلال شخصية أناستاسيا فيليبوفنا.

وكانت علاقة الحب الثالثة مع السيدة التي أصبحت فيما بعد زوجته الثانية وأم أولاده، وهي آنا جريجوريفنا سنيتكينا، وكانت في العشرين من عمرها عندما التقته، وكان هو في السادسة والأربعين، كانت شابة في مقتبل العمر، توفي والدها الذي كان خادمًا في بلاط القيصر، لا تتمتع بقدر كبير من الجمال لكنها كانت شديدة الذكاء، فكانت قصة الحب الخالدة التي صمدت أمام مرض فيودور وفقره الشديد وإدمانه للقمار ووفاة ابنه الصغير، واستمرت حتى وفاته هو.

ومن المعروف أن الإهداء الوحيد الذي كتبه ديستويفسكي في صدر أي كتاب له إلى أحد الأشخاص، كان عن روايته الأخيرة، وكان الإهداء إلى "جريجوريفنا ديستويفسكي"، وقد مات بعد أن راجع بروفات الرواية لكن لم يمهله القدر حتى يرى نسختها المطبوعة.

صراع الحب

لعل مترجم الرواية د. محمد أبو طائلة قد اطلع على الدراسة التي قام بها فرويد،وتأثر بها في ترجمته للرواية الفريدة، فقد فطن مبكرا إلى أهمية الرواية وإلى مكانتها في الأدب العالمي بعامة، فأخذ على عاتقه مهمة تقديمها إلى القارىء العربي، وذلك في أربعينيات القرن العشرين، فترجم الرواية التي صدرت نسختها الروسية في نحو ١٧٠٠ صفحة، عن ترجمة فرنسية مختصرة، وقدمها في طبعة عربية ميسرة تقل كثيرًا عن ربع عدد صفحات الرواية

الأصلية، وذلك كان عرفًا متبعًا في العالم كله، ليس فقط عند ترجمة عملٍ ما، بل حتى عند رواج العمل في لغته الأصلية، فإنه في حالة إن كان عملا ضخمًا مثل "الإخوة كارامازوف" يتم تيسيره وتقديمه للقارىء غير المتخصص، أو غير الصبور الذي لن يعكف على قراءة عمل كبير بمثل هذه الضخامة، لذلك حينما قدم الدكتور محمد أبوطائلة هذا العمل لأول مرة إلى القارىء العربي، اعتمد على ترجمة فرنسية ميسرة للرواية، كما عمد إلى تغيير العنوان، ليصبح "صراع الحب"، فهو عنوان يناسب طبيعة وميول القارىء قبل ثمانين عاما، فتعمد التركيز على موضوع الحب وفقا لهذه المحاور الفرويدية، ويقول عنها "ليست هذه الرواية صراعا في الحب فقط، أو صراعا بين الضمائر والشهوات فحسب، بل هي صراع بين الآراء، وصراع بين الفضيلة والرذيلة، وصراع بين الحرية والاستبداد، وبين الحق والباطل، وهي تصور أحوال روسيا القيصرية في القرن التاسع عشر، وما كان عليه النظام الاجتماعي من خلل واضطراب وفساد" .

وتتحدث الرواية عن أب ميسور الحال، لكنه مدمن للخمر، وهو شرّير ومهمل لأسرته، ونسي أولاده بسبب انشغاله بملذاته، هذا وتبدأ الرواية به وقد أنجب من زوجته الأولى، ابنه ديمتري الذي يمثل الشيزوفرينيا الإنسانية في أبلغ تجلياتها، من شموخ الضباط، وتصابي العشاق، وجموح الرجل، وعناد الطفل.

ثم ينجب الأب طفلين من زوجته الثانية المصابة بالهيستيريا، وهما ايفان المثقف الوجودي المتشكك وشقيقه اليكسي أو ايليوشا؛ الذي يمثل البراءة والطيبة والجمال، أو يمثل الحب، ثم أخيرا سمردياكوف الابن غير الشرعي

للأب من متشردة مجنونة، وهو مصاب بالصرع، استخدمه دوستويفسكي كمرآة تكشف ذوات باقي الشخصيات وتعريهم أمام أنفسهم.

ووسط هذه الشخصيات للرجال يأتي ديستويفسكي بجروسشنكا العاهرة في نظر البعض والملاك في نظر الآخرين، والكل يتصارع لنيل رضاها وينتهي هذا الصراع بجريمة قتل يذهب الأب ضحيتها، ويتهم بالجريمة ديمتري الابن الأكبر.

وهو يبرر جريمته بحرمانه من الإرث ومحاولة أبيه أن يخطف حبيبته، ويفهم من سياق الرواية أن القاتل قد يكون أيضًا سمردياكوف، لكن المحاكمة تنتهي بنهايتها الواقعية ويترك الحكم الفعلي للقدر وللقارئ.

د.نبيل صابر

أسرة كارامازوف

كان فيدرو بافلوفتش كارامازوف مزارعًا معروفًا في إقليمنا، ولا يزال الناس يذكرون فاجعة موته منذ ثلاثة عشر عامًا، وكان يعد واحدا من المزارعين، مع أنه لم يكن يمضى يومًا في مزرعته طول حياته، لكنه مع ذلك كان بارعًا في العناية بشؤون المال والكسب، ولا يهمه بعد ذلك سوى إشباع غرائزه.

وقد تزوج مرتين، وصار له ثلاثة أبناء، أكبرهم ديمتري من زوجته الأولى، والإخوان إيفان، وألكسي من زوجته الثانية، وكانت زوجته الأولى، أدليدا إيفانوفنا، ابنه أسرة نبيلة موسرة هي أسرة "ميوزوف" المشهورة في الإقليم، ولا يدرى أحد كيف رضيت هذه النبيلة الحسناء بالزواج من ذلك الرجل الضعيف التافه، ولعلها أرادت أن تبرهن على استقلالها وعنادها، فرضيت ذلك الذي رفضه أهلها، وفرت معه قبل أن يقروا زواجها به، أما هو فقد أغراه بزواجها رغبته في مصاهرة أسرتها النبيلة وأمله في الحصول على صداق كبير، على أنها لم تلبث إلا قليلا حتى عرفته على حقيقته، فصارت لا تكن له إلا الازدراء.

وقد استولى على صداقها الذي لا يقل عن خمسة وعشرين ألف روبل، ثم دفعها إلى أن تنزل له أيضًا عن ضيعة لها بالريف وبيت فاخر كانت تملكه بالمدينة، وكثرت الخلافات بينهما، وشاع أمرها بين الناس، ويقال إنه لم يكن يضربها ولكنها هي التي كانت تضربه، إذ كانت حادة المزاج ضيقة الصدر،

وأخيرًا فرت مع طالب فقير، تاركة لزوجها طفلها ديمتري في الثالثة من عمره، فعمد الرجل إلى الشراب، وملأ بيته بالنساء الساقطات، ولم يكن مثله بالأب الذي يسهر على تنشئة طفله، وسرعان ما أهمله، فرعاه جريجورى خادم الأسرة الأمين، ولولا ذلك لما عنى به أحد، لأن أهل أمه كانوا قد نسوه كذلك.

وبقى طفل كذلك حتى جاء من باريس "بيوتور ألكسندروفتش ميوزوف" ابن عم أمه، فرثى لحاله، وعنى بتربيته، وصار بمثابة ولى لأمره، ولما كان أعزب فقد أخذه إلى موسكو حيث عهد في رعايته إلى سيدة من أقربائه تعيش هناك، ثم ماتت هذه السيدة، فانتقل الغلام إلى بيت ابنه لها متزوجة، ويقال إن الغلاء انتقل بعد ذلك إلى بيت رابع.

وأيا كان الأمر فقد كانت طفولته مضطربة، ثم لم يتم دراسته الثانوية، فدخل مدرسة حربية، ثم سافر مع الجيش إلى القوقاز، وارتقى في سلك الضباط، غير أنه اشترك في مبارزة فأنزلت رتبته، ثم رقى من جديد، وعايش عيشة طيش أسرف فيها على نفسه.

وكانت أمه قد تركت له ثروة، غير أنه لم يحصل من أبيه على شيء من إيراده إلا بعد أن بلغ سن الرشد، وكان قبل ذلك كثير الديون، وأول مرة رأى فيها أباه، فيدروبافلوفتش، حين زار بلدتنا ليسوي معها إيراده، ويبدو أنه لم يرتح إلى أبيه فلم يمكث معه طويلا، وسرعان ما رحل بعد أن تسلم منه مبلغًا من المال واتفق معه على أن يتلقى منه في المستقبل دفعات أخرى من إيراد مزرعته، دون أن يعرف من أبيه قيمة التركة التي خلفتها له أمه.

وقد أدرك فيدرو بافلوفتش أن ابنه هذا يغالي في تقدير تلك التركة، وأنه طائش كثير الاندفاع، وبعد ذلك صار يرسل إليه مبالغ قليلة، حتى إذا مضت أربع سنوات كان الشاب قد نفد صبره فجاء إلى أبيه مرة أخرى ليسوى حساب تركته، فما كان أشد دهشته إذ صرح له أبوه بأنه لم يعد يملك شيئا، وأن المبالغ التي أرسلها إليه تباعا قد استنفدت ميراثه من أمه بل أربت عليه، وقد ارتاب ديمتري في الأمر، وخيل إليه أن أباه قد خدعه، فاشتد بغضه له، ولعل ذلك كان أصل الفاجعة التي وقعت بعد سنوات.

وقبل أن أنتقل إلى تلك القصة أذكر نبذة عن الولدين الآخرين لفيدرو بافلوفتش بعد أن تخلص فيدرو بافلوفتش من طفله متيا (ديمتري) الذي كان في الرابعة من عمره تزوج مرة ثانية، واستمر زواجه هذا ثماني سنوات، وكانت زوجته الثانية فتاة حسناء تدعى صوفيا إيفانوفنا، وقد اختارها من بلدة أخرى كان قد سافر إليها لبعض أعماله بصحبة يهودي، والواقع أنه برغم انغماسه في الخمر والفجور كان لا يغفل استثمار أمواله، وكانت صوفيا ابنة شماس خامل، وقد نشأت يتيمة منذ صغرها، وربتها أرملة جنرال موسرة غضوب ذات أهواء، فرضيته الفتاة زوجًا لها لتخلص منها، ولم يحصل فيدرو بافلوفتش من هذا الزواج على مال كثير أو قليل، وإنما شيعته المحسنة مع عروسه باللعنات ولم تعطهما صداقًا.

ولعله سعى إلى هذا الزواج لإعجابه بجمال تلك الفتاة، غير أنه سرعان ما أساء معاملتها، وشجعه على ذلك ما بها من ضعف ورقة، وقد أثر في تلك الشابة المسكينة ما نشأت فيه من رعب، ثم ما لقيته من زوجها من إساءات، فتملكها مرض عصبي جعل النساء يعتقدن أن بها مسًّا من الجن،

وكانت تنتابها نوبات هستيرية شديدة، ثم انتهى أخيرًا إلى الجنون، على أنها كانت قد ولد لزوجها ولدين هما: إيفان، وألكسي، أولهما في السنة الأولى من زواجها، والثاني بعد ثلاث سنوات من ذلك، ولما ماتت كان ألكسي الصغير في الرابعة من عمره، ومع ذلك ظل يتذكر أمه طول حياته وكأنها حلم رآه، وعند موتها حدث لولديها مثل ما حدث لديمتري، فقد أهملهما أبوهما ولم يكد يشعر بوجودهما، فعني بهما جريجورى كما سبق أنه عنى بأخيهما ديمتري، وعاشا معه في كوخه حتى جاءت إليهما أرملة الجنرال، تلك السيدة القاسية التي ربت أمهما، ويقال إنها ذهبت توًا إلى فيدرو بافلوفتش فلطعته على وجهه، وجذبته من شعره، وهزته هزًا، ثم أخذ الطفلين وسافرت بهما إلى بلدتهما.

وتوفيت تلك السيدة قبل قليل، تاركة في وصيتها ألف روبل لكل من الغلامين، على أن تنفق في تربيتهما وتعليمهما على أقساط محددة بحيث تكفى عشرين عاما، وكان "يفيم بتروفتش بولينوف" عميد نبلاء الإقليم هو منفذ تلك الوصية، وكان رجلا شريفا، وسرعان ما اتصل بفيدرو بافلوفتش بشأن ولديه، ولكن هذا أبى أن يعينهما بشيء.

وقد اهتم يفيم بتروفتش بولينوف اهتمامًا خاصًا بأصغرهما ألكسي، إذا حس ميلًا شديدًا إليه، وأنزله منزلة الولد، وإلى هذا الرجل النبيل الكريم يرجع الفضل في تربية الولدين وتعليمهما، وقد ترك مبلغ الألفي روبل الذي أوصت لهما به أرملة الجنرال المحسنة دون أن يمسه، حتى إذا بلغ سن الرشد كان المبلغ قد تضاعف بالفائدة المتراكمة.

ولست أفيض هنا في نشأتهما وإنما أذكر عن أكبرهما، إيفان، أنه نشأ مكتئبًا، صادفًا عن الناس، فإنه منذ بلغ العاشرة من عمره أدرك أنه وأخاه لا يعيشان في بيت أبيهما بل في بيت رجل محسن، وفهم كذلك أن أباهما رجل لا يذكره الناس بخير، ومع ذلك أبدى الغلام منذ صغره ميلا إلى الدراسة، حتى إذا بلغ الثالثة عشرة من عمره ترك بيت يفيم بتروفتش ودخل مدرسة ثانوية في موسكو وأقام لدى أستاذ معروف، ولما أتم دراسته بها ودخل الجامعة كان يفيم بتروفتش قد أدركته منيته من غير أن يبين طريقة لدفع المال المستحق لإيفان من ميراث تلك السيدة المحسنة، وكان قد أصبح ألفي روبل بدل ألف، ومن ثم أبطأ صرف المال إليه، فمكث يعاني الضيق في السنتين الأوليين من سني الدراسة بالجامعة، ومع ذلك لم يفكر قط في اللجوء إلى أبيه، إما عن كبرياء في نفسه وإما عن ازدراء لأبيه، أو لعله أدرك منذ البداية أنه لا خير يرجى من ذلك الأب الأناني، على أنه استطاع أن ينفق على نفسه من دخل دروس خاصة يعطيها لبعض التلاميذ، ثم صار يحرر فصولًا صغيرة في الصحف، وبعد حين تولى نقد الكتب، وسرعان ما ذاع اسمه في دوائر الأدباء.

ولما تخرج في الجامعة جاء بغتة إلى بلدتنا، وعاد إلى بيت أبيه الذي غادره طفلا صغيرًا، وقد مكث في هذا البيت البغيض مع أبيه الأناني شهرين كاملين، ولا يدرى أحد ماذا جاء به ولا كيف استطاع البقاء هناك، ولكن يقال إنه ما قدم إلا تلبية لرجاء أخيه الأكبر ديمتري، إذ طلب هذا إليه الوساطة بينه وبين أبيه بشأن ميراثه من أمه، وهكذا تقابل الإخوان أول مرة، وإن يكونا قد تراسلا قبل ذلك مرات، وانعقد كذلك لأول مرة شمل أسرة

كارامزوف، وكان ألكسي الابن الثالث أول من جاء إلى البلدة من الأبناء الثلاثة وظل بها حوالى عام قبل مجيء أخويه.

ومن الشائق حقًّا أن أتحدث عن هذا الابن الثالث، ولا سيما أنه كان يرتدى رداء تلميذ من تلاميذ اللاهوت، ويقيم بالدير الواقع في أقصى البلدة، إذ كان قد اعتزم أن يصبح راهبًا.

كان ألكسي في العشرين من عمره، على حين كان أخوه إيفان في الرابعة والعشرين، وأخوهما الأكبر ديمتري في السابعة والعشرين، ولم يكن ألكسي ذا هوسة دينية كما قد يتبادر إلى الذهن، ولكنه كان محبًّا للإنسانية، تواقًا إلى الخير، وما تعلق بحياة الدير إلا فرارًا بروحه من الشرور الدنيوية، وقد أثر فيه اتصاله براهب شهير يدعى زوسما يذهب إليه الناس "الكرامات" والخوارق، فلزمه وصار تلميذًا له، وإنه ليذكر أمه الوديعة التقية، ويذكر يوم رآها وهو طفل صغير راكعة أمام سورة العذراء تبكي وتنتهب، فلما أبصرته بجانبها ضمته إلى صدرها بقوة حتى آلمته، ثم جاءته المربية مسرعة فأطلقته منها وذهبت به، ويذكر كيف كان بان الرعب على محيا أمه وكان جميلًا، عن رقة بالغة.

وقد تلقاه أبوه في البداية بشيء من الضيق والريبة، ولكنه أحبه بعدئذ وصار يعانقه ويقبله في خلال سكره.

والواقع أن أليوشا (ألكسي) كسب لنفسه محبة الناس منذ كان طفلًا صغيرًا، فقد كان محبوبًا في بيت يفين بتروفش بولنيوف، ثم كان محبوبًا من أقرانه بالمدرسة، وإن يكن ميالًا إلى العزلة، يؤثر الاطلاع على اللعب، وكان

إذا أساء إليه أحد يبادر إلى الصفح عنه وأهان إساءته، وكان يأذنيه وقر عن سماع كلام السوء وفحش القول.

ولم يتم دراسته الثانوية إذ مال إلى دراسة اللاهوت، وكان أبوه ينظر إليه مليًّا ثم يقول له: "أنى أرى بك شبهًا كثيرًا بالمرأة المجنونة"، يقصد بذلك زوجته الثانية أم أليوشا (ألكسي)، وقد دله جريجورى الخادم الأمين على قبرها المهجور فصار يزوره ويضع عليه الأزهار وهو صامت يتأمل!.

ولم يكن أليوشا قد عرف أخويه قبل ذلك، فلما جاءا إلى بيت أبيه أثر فيه لقائهما كثيرًا، وقد مال إلى أخيه من أبيه، ديمتري، أكثر من ميله إلى شقيقه إيفان، وكان أليوشا (ألكسي) بطبعه عزوفا عن الكلام، فصار إيفان يدرسه عن كثب، ثم ترك الاهتمام بأمره، وقد خيل إلى أليوشا أن أخاه هذا مشغول بأمر ما، كمن ينشد غرضًا معينًا يجرى وراءه، وكان إيفان ملحدًا يجهر بإلحاده، وإن يكن قد وضع رسالة في التاريخ الدينى أثارت اهتمام رجال الدين وقتًا ما، وكان ديمتري لا يذكر إيفان إلا بالاحترام، ولا عجب فإن الأول لم يكسب إلا أقل نصيب من العلم على حين كان إيفان محبًّا للعلم كثير الاطلاع، وقد كان بينهما من التناقض مالا يوجد مثله بين أخوين!.

وقد خطب ديمتري فتاة حسناء، وارثة تدعى (كاترينا ايفانوفنا) وأحبها حينًا وأحبته، غير أنه لم يلبث قليلًا حتى شغف حبًا بفتاة لعوب ليست ناصعة السمعة، تدعى (جروشنكا) وكان لها الأثر الأكبر في مجرى حياته.

كان بالدير الذي نزل به أليوشا (ألكسي) خارج البلدة راهب شيخ يدعى (الأب زوسيما) وكان الناس يحجون إليه من أرجاء روسيا يلتمسون

بركاته، ومعهم مرضاهم، وينسب إليه أنه يشفى الأمراض بما يتلوه من دعاء، ومن هنا كانت غرفته تزدحم بالقاصدين من الأغنياء والفقراء على السواء.

ولعل أليوشا كان أحب تلاميذه إليه وأقربهم منه، ومن أجله دعا إليه فيدرو بافلوفتش وولديه ديمتري وإيفان، عساه أن يصلح بين الأب وابنه الأكبر غير أن فيدرو بافلوفتش أبرز في ذلك الاجتماع كل ما بنفسه من هذر وتهريج وقلة إيمان بالدين، على حين جهر إيفان بكفره وإلحاده، ومكث أليوشا صامتًا وقد تملكه الخجل والألم، ومن عجب أن الأب زوسيما لم يغضب مما جرى أمامه، بل لم يغضب من ديمتري حين واجهه بما يسوء وإنما قام من مكانه وسجد أمام هذا الشاب العاق!.

حتى إذا خرج الجميع وآوى الأب زوسيما إلى غرفة نومه قال لتلميذه أليوشا: "اذهب يا بنى، إن أهلك في حاجة إليك"، ولما خرج من لدنه وجد زميله الشاب راكتين ينتظره، وكان هذا شابا خبيثًا ينشد صالحه حيث كان، فقال لأليوشا:

– أرأيت كيف سجد الأب زوسيما لأخيك ديمتري؟.

– إني لم أفقه لسجوده معنى!.

– إنه لم يفسره لك!، ولكن جميع أتقياء الإقليم سوف يتحدثون عن ذلك، أما أنا فأحسب أن لذلك الشيخ آنفًا قوي الشم وأنه قد شم من أخيك رائحة جريمة!

– جريمة؟.. أية جريمة؟!

فاستطرد راكتين قائلا: "جريمة تقع وسط أسرتكم، بين أخويك وأبيكم الشيخ الغني وسوف يقول الناس إن الأب زوسيما قد تنبأ بذلك، وأنه قد سجد للقائل!"، فقال أليوشا لزميله راكتين مرتاعا: "إني لا أفهم ما تقول!"، ولكن هذا لم يعبأ بارتياع أليوشا ومضى يقول: "إني أراهن على أنك أنت نفسك تتوقع حدوث تلك الجريمة، إنك يا أليوشا قد عرفت بالصدق، فهل خطر هذا ببالك أم لا؟".

وهنا أجاب اليوشا في صوت واهن: "أجل!.. ولكن ماذا يعنيك أنت من هذا الأمر!".

فقال راكتين: "لقد درست أخاك ديمتري اليوم عن كثب، وكأنى أقرأ ما على صفحة ضميره، أنه من أولئك الرجال العاطفيين الشرفاء الذين يلزمون حدًّا معينًا ولا يطيقون أن يتخطاه الاثنان فتنشأ من ذلك نكبة!".

فقال له أليوشا: "كلا ياميشا راكتين.. إن الأمر لن يصل بهما إلى مثل هذا الحد!"، فنظر إليه راكتين متفرسًا وهو يقول: "مالك ترتعد هكذا؟.. إن أخاك ديمتري شاب شريف جاهل ولكنه عبد لشهواته، ذلك كنهه وحقيقته، وقد ورث غرائزه الدنيا من أبيه، والحق أني أعجب منك كيف نشأت طاهرًا نقيًا وأنت ابن ذلك الرجل؟!، إن أسرة كارامازوف مصابة بالنزق وكأنه مرض تتوارثه، والآن يرقب أبوك وأخواك بعضهم بعضًا، وقد خبأ كل منهم سكينًا في حزامه، ومن يدرى لعلك رابعهم!".

فقال له أليوشا: أرى أنك أخطأت الظن بشأن تلك المرأة.. إن ديمتري يزدريها!" .

فقال راكتين: "تقصد جروشنكا؟ كلا يا عزيزي، إنه لا يزدريها، وهناك شيء لا يمكنك أن تدركه، فإن الرجل قد يشغف حبًّا بنوع من الجمال أو مجسم امرأة أو بجزء من جسمها، وإنه ليهجر من أجلها أولاده، ويبيع أمه وأباه ووطنه، وقد يسرق بعد أن كان شريفًا، وقد يقتل بعد أن كان رحيمًا، كما أنه يعمد إلى الغش والخداع بعد أن كان صادقًا أمينًا!، إن (بوشكين) الشاعر قد تغنى في قصائده بأقدام النساء، وغيره من الناس قد لا يتغنون بأقدامهن ولكنهم لا ينظرون إليها إلا تولتهم رعدة... وليس الأمر مقصورًا على أقدامهن وحدها، فالازدراء الذي أشرت إليه لا يجدى هنا نفعًا، حتى وإن يكن ديمتري يزدرى جروشنكا كما تزعم، إنه لا يستطيع فكاكًا من سحرها!".

وأومأ أليوشا برأسه موافقًا وهو يقول: "إني أدرك ذلك!".

فحدجه زميله بنظرة فاحصة وواصل كلامه فقال: "هذا ما خيل إلي يا عزيري، وها أنت ذا قد اعترفت به من غير قصد، وإذن أنت أيضًا لا تجهل هذه النزعة الشهوانية!، إن لك روح قديس، وإنك لطاهر نقيٌّ تقيّ فيما أعلم، ولكنى أعلم أيضا أنك من أسرة كارامازوف، وللوراثة أثرها الذي لا ينكر، فلا شك في أنك قد ورثت الشهوانية عن أبيك كما ورثت الطهارة عن أمك!، لماذا ترتعد؟، أصحيح إذن ما أقوله لك؟، أتدري أن جروشنكا توسلت إلي مرارًا أن أجيئها بك، وأنها صرحت لي بأنها تود كثيرًا لو تخلع عنك ثوب الكاهن؟، إني لا أدرى لماذا تهتم بك كل هذا الاهتمام؟".

وسكت أليوشا قليلا قبل أن يجيب قائلًا:

– بلغها شكري، وإني لن أذهب إليها!، والآن أرجو أن تتم ما كنت بصدده من حديث لكي أدلي لك برأيي بعد ذلك!.

فقال له راكتين: "ليس هناك ما أتمه، إن الأمر واضح!، وإذا كنت أنت شهوانيًّا في قرارة نفسك فماذا عن أخيك إيفان؟، إنه من آل كارامازوف أيضًا، ثم هو يكتب بحوثًا دينية لغرض في نفسه مع أنه ملحد، وهو نفسه يقرّ بأنه في ذلك مخادع ساخر!، فأي عجب في أن يبذل قصارى جهده لكي يستميل إليه خطيبة أخيه ديمتري؟!!، ويخيل إلي أنه بالغ غرضه، بموافقة متيا (ديمتري) نفسه، الذي يسره أن ينزل له عن خطيبته ليخلص منها ويفر إلى جروشنكا، وإنه ليرضى ذلك لنفسه برغم ما به من نبل وشرف!، حقا إنكم لقومٌ ذوو خطر!، إنه يدرك دناءته ولكنه يستمر فيها، على أني أصارحك القول بأن أباك الشيخ يقف الآن في طريق (ديمتري) لأنه هو نفسه قد جن جنونا بجروشنكا، ومن أجلها أبدى كل ما به من حمق في اجتماع الدير، لقد كان في البداية يستخدم جروشنكا في أعماله التجارية، وفي الحانات التي يملكها، ولكنه أدرك بغتة ما هي عليه من فتنة، وهو يلح عليها بعروضه غير الشريفة، وعلى هذا سوف يصطدم الأب والابن بشأنها، وهي نفسها لا تؤثر هذا ولا ذاك، ولكنها تلعب بهما وتتمنع عليهما محاولة أن تجنى منهما أكثر ما تستطيع، وإنها لتعلم أنها وإن استطاعت أن تسلب الأب قدرًا من ماله فإنه لن يتزوجها وقد يغلبه الشح في النهاية، أما (ديمتري) فإنه وإن يكن لا يملك مالا فإنه يتمنى زواجها، وهجر خطيبته الحسناء (كاترينا إيفانوفنا) من أجلها، أجل إن أخاك يؤثر جروشنكا التي كانت إلى عهد قريب خليلة التاجر الشيخ سمسونوف، على تلك الخطيبة الموسرة التي هي ابنه كولونيل، وقد

ينشأ من هذا كله خلاف ويكسب صداقها ما يترقبه أخوك إيفان ليصل إلى غرضه، فإنه عندئذ يتزوج كاترينا إيفانوفنا ويكسب صداقها الذي لا يقل عن ستين ألف روبل، وهو بذلك لن يسيء إلى (متيا) بل يؤدى له خدمة جليلة، ولعل كاترينا لا ترفض في النهاية أن تتزوج شابا فاتنًا مثل أخيك إيفان، بل الحق أنها الآن مترددة بين الأخوين، إني لا أدرى كيف استطاع إيفان هذا أن يسحركم؟، يخيل إلى أنه يسخر منكم جميعا!".

وكان راكتين يدلي بهذه المعلومات في تدفق وسرعة، فلما سكت عند هذا الحد سأله أليوشا: "من أين لك كل هذه المعلومات، وما يدريك لعلها غير صحيحة".

فأجاب راكتين: "إنك تعلم أنى أقول الحقيقة؟".

فقال أليوشا: "إنك لا تعرف ايفان، فليس هو بالرجل الذي يجرى وراء المال!"، فابتسم راكتين وقال: "فليكن!، ولكن ألا يجرى وراء الجمال؟، إن كاترينا ايفانوفنا بارعة الحسن، على أن صداقًا قدره ستون ألف روبل هو نفسه حافز قوي!"، فابتسم أليوشا ولم يتكلم، وعندئذ قال له راكتين: "ماذا يضحكك؟ أتظنني أحمق لا أعرف الحقائق؟!".

– كلا ما حسبتك كذلك قط.. ولكني أدرك سبب حماستك في هذا الأمر فإني أحسبك تجرى وراء كاترينا ايفانوفنا أنت نفسك... ولهذا لا تحب أخي إيفان.. أي أنك تغار منه عليها!.

– ولماذا لا تقول أيضًا، إني أغار منه على مالها؟.

– لست أذكر شيئا عن مالها... فإني لا أحب أن أسيء إليك!.

– إني أصدقك ما دمت تقول ذلك، لعنة الله عليك وعلى إيفان معا!، على أن أخاك هذا جير بالبغض بصرف النظر عن كاترينا ايفانوفنا، ولقد علمت أنه يذمني عندها، فأيّنا إذن يغار من الآخر؟، ولقد زعم أني إذا لم أصبح قسيسًا فسوف أذهب إلى بطرسبورج وأشتغل ناقدًا لجريدة فلا تمضى بضع سنوات حتى أصبح مالكًا لها، ثم أستغل أموالى بإرشاد أحد اليهود!.

– حقًّا يا ميشا إن ذلك قد يحدث منك ولك!.

– إنك تسخر مني يا ألكسي فيدورفتش!.

– كلا إني لا أسخر!، ولكنى أقول ما أعتقد، ولكن خبرني من الذي أنبأك بما قاله أخي؟، ما أحسبك كنت عد كاترينا إيفانوفنا حين قال لها ذلك!.

– لم أكن عندها أنا بل أخوك ديمتري، وقد سمعته هذا الحديث إلى جروشنكا حين كنت جالسا في غرفة نومها لا أستطيع الخروج لأن ديمتري في غرفة مجاورة!.

فقال له أليوشا: "عفوًا!، كنت قد نسيت أن جروشنكا تمت إليك بصلة القرابة!".

فصا راكتين منكرًا: "جروشنكا قريبتي؟.. معاذ الله! هل جننت حتى تقول ذلك؟".

فقال أليوشا في هدوء: "لقد سمعت أنها قريبتك".

فقال له في حدة: "من الذي قال لك ذلك؟، إنكم يا آل كارامازوف

تفخرون بأنكم سلالة أسرة نبيلة عريقة، وإن يكن أبوكم يتطفل على موائد الناس، وقد أكون أنا ابن قسيس فقير، ولكن حذار أن يهينني أحدكم فإن لي كرامة كذلك، وليست هناك أية صلة من صلات القرابة تربطني بتلك العاهرة المسماة جروشنكا!".

فقال أليوشا: "معذرة يا أخ.. إني لم أقصد الإساءة إليك.. ولكن كيف تصفها بأنها عاهرة؟

هل هي... حقيقةً.. كذلك؟".

ولم يجب راكتين بشيء، بينما اشتدت حمرة وجه أليوشا واستطرد فقال: "لقد سمعت من بعض الناس أنها من أقربائك، ثم إنك تزورها كثيرًا، وقد قلت لي أنت نفسك أنك لست عشيقها، ولم أكن أدري أنك تزدريها إلى هذا الحد!".

فقال له راكتين وهو يهم بالانصراف: "قد تكون هناك أسباب تدفعني إلى زيارتها وليس هذا من شأنك!، وخير لنا أن نفترق الآن!".

كان بيت آل كارمازوف في أطراف البلدة، وكان بيتًا ريفيًا فسيحًا مكونا من طبقتين وبه كثير من الخزانات والمخازن التي تعيش فيها الجرذان، وكان فيدرو بافلوفتش يقول عنها: "إنها تشعر الإنسان ليلا بأنه ليس وحيدا"، وقد اعتاد أن ينام وحده بالبيت بعد أن يوصد أبوابه، وكان الخدم يأوون إلى كوخ لهم في طرف الحديقة حيث يطهى الطعام أيضًا لأن رب البيت يكره رائحة الطهي، فكانت ألوان الطعام تنقل من الكوخ إلى الدار صيفًا وشتاء، وفي هذا الكوخ أو البيت الصغير كان يسكن ثلاثة من الخدم هم: جريجورى

الشيخ، وزوجته العجوز مارفا، والشاب سمرديا كوف، وكان لجريجورى نفوذ كبير على سيده، ومن عجب أن فيدرو بافلوفتش كان برغم عناده يخضع لهذا الخادم الشيخ في أمور كثيرة، وكثيرًا ما أنقذه هذا الخادم الأمين من مواقف حرجة، وحال دون ضرب بعض الناس إياه، وعندئذ كان جريجورى يلقى عليه درسًا قاسيا، ولم يكن فيدور بافلوفتش يخشى الضرب وحده بل كثيرًا ما كان في سكره يتملكه خوف مبهم ولا يطمئن إلا إذا وجد خادمه هذا بجانبه، وأحيانا كان يقصد إليه في الكوخ وسط الليل ليدعوه إليه ويظل يتحدث معه عن أمور تافهة حتى يذهب ما بنفسه من خوف خفى ثم يصرفه وينام!.

ولما جاء أليوشا (ألكسي) وأقام بالبيت، شعر أبوه بالطمأنينة، إذ تبين فيه إخلاصًا تامًّا له، وبعدًا عن ازدرائه كما يزدريه ابنه الأكبر ديمتري.

أما مارفا فكانت لجريجوري نعمت الزوجة المطيعة التي لا تخالف له رأيا، وقديمًا رأت زوجها الوقور ميالا إلى الصمت، فصارت لا تضايقه بالكلام، وصار الصمت هو الغالب بينهما وقد رزقهما الله ولدًا مشوه الخلقة، ثم اختاره الموت وشيكا، فلما ماتت أدليدا إيفانوفنا وأهمل فيدور بافلوفتش ولده منها، رعاه جريجورى في مكان ولده الذي مات وصار يغسل جسده ويمشط شعره، واستمر ذلك زهاء العام، ثم صار يعنى بإيفان وأليوشا من بعده وحدث ذات ليلة أن استيقظت مارفا على صوت عويل طفل حديث الولادة، فارتاعت وأيقظت زوجها، فأصغى للصوت مليًا وخيل إليه أنه صوت امرأة تتأوه، فأسرع وأشعل مصباحا وخرج إلى الحديثة متتبعًا صوت الأنين حتى وصل إلى الحمام القرب من باب الحديقة وهناك وجد فتاة متشردة

بلهاء، كانت تسير في طرق البلدة على غير هدى وتعرف باسم (ليزافيتا)، وقد رقدت على أرض الحمام وهي تجود بروحها وإلى جانبها طفل ولدته توًّا.

ولم تنطق ببنت شفة!.

وقد زاد من اشمئزاز جريجوري أن ليزافيتا هذه كانت قزمة لا يزيد طولها على خمس أقدام، وكان وجهها العريض ينم عن بلاهة تامة، وكانت تمشي في الطرقات صيفًا وشتاءً حافية القدمين ترتدى ثوبا خشنا، ولها شعر أسود يشبه صوف الخراف يمتزج به الطين والقش، وكان أبوها متشردًا يدعى (إيليا) وقد ماتت أمها من زمن، فصار الرجل يضرب ابنته البلهاء كلما عادت إليه، على أنها ندر أن تلجأ إليه، فقد كان أهالي البلدة يعطفون عليها ويطعمونها ويكسونها كلما لجأت إليهم، غير أنها كانت سرعان ما تترك ثياب المحسنين هذه وترتدى ثوبا خشنا وتمشى حافية القديم!، ولما مات أبوها زاد الناس عطفًا عليها فكانت تقصد إلى أي بيت تشاء فلا يطردها أحد، وإذا أعطاها أحدٌ صدقة ذهبت بها توًّا فوضعتها في صندوق الصدقات بالكنيسة!.

وحدث قبل سنين في إحدى ليالي سبتمبر، أي جماعة من السكارى كانوا عائدين من حانة في ساعة متأخرة، وقد ساروا في طريق خلف البيوت، يؤدى إلى قنطرة فوق بركة اعتاد الناس أن يسمونها نهرًا، فوجدوا هناك ليزافيتا نائمة تحت القنطرة، وحفزهم ما بهم من سكر إلى إيقاظها ومداعبتها، وخطر لأحدهم أن يسائل رفاقه: هل يستطيع أحد أن ينظر إلى هذه المخلوقة نظرته إلى امرأة؟، فأجابوا جميعًا بالنفي مشمئزين، ما عدا فيدرو بافلوفتش، وكان بينهم، فقد أجاب بأن ذلك ممكن برغم ما يثيره منظرها من نفور واشمئزاز.

ولا شك أنه وقتئذ كان يغالى في تمثيل دور المهرج الذي يحلو له أن يمثله بين الناس، فضحك رفاقه السكارى وراهنه أحدهم على أن يفعل، ومضى الآخرون في سبيلهم، وقد زعم فيدور بافلوفتش بعد ذلك أنه ذهب معهم وأقسم على ذلك، ولكن لا يدري الحقيقة أحد، ولكن بعد خمسة أو ستة أشهر كانت البلدة كلها تتحدث في سخط عن حال ليزافيتا وتتساءل عمن فعل بها ذلك!، وقد انتهت الشائعات إلى فيدرو بافلوفتش، فلم يعبأ كثيرًا بتبرئة نفسه لأنه كان في ذلك الحين متكبرا، لا يتكلم إلا في دائرة خلطائه من النبلاء والموظفين، غير أن جريجوري كان يدافع عن سيده في حماسة، وقد اشتبك في شجار مع الكثيرين من أجل ذلك!.

على أن ما حدث قد حفز الناس إلى زيادة العطف على البلهاء المسكينة، وأخذتها سيدة محسنة إلى بيتها كي تضع فيه حين يحين وقت الوضع، غير أنها استطاعت الهرب في آخر يوم، ومضت في طريقها حتى وصلت إلى حديقة دار فيدور بافلوفتش، فتسلقت سورها العالي، ثم جاءها المخاض، وماتت عقب الولادة!.

وقد أخذ جريجورى الطفل الوليد إلى زوجته مارفا، وأطلقا عليه اسم (سمرد ياكوف) واتخذا منه وليدا يربيانه، ولما كبر أرسله فيدور بافلوفتش إلى موسكو، وهناك تعلم طهى الطعام وأتقنه، حتى إذا عاد صار طاهي الدار!.

شجرة الاعتراف

خرج فيدور بافلوفتش من الدير غاضبًا، ثم ركب عربته وصاح بابنه أليوشا آمرًا إياه أن يعود إلى البيت ومعه فراشه وثيابه ليهجر الدير نهائيًا.

وبعد أن خص هذا من زميله راكتين ذهب قاصدًا إلى بيت أبيه وفي نفسه ريبة مما سمعه، وكان موقنًا أن غضب أبيه وقتي أو مصطنع وأنه سرعان ما يتركه يرجع إلى الدير.

على أنه ما لبث أن تذكر رقعة من الورق كانت قد دستها في يده سيدة من زائرات الأب زوسيما، تدعى مدام هولا كوف، وكانت هذه الرقعة من كاترينا ايفانوفنا خطيبة أخيه ديمتري، وفيها ترجو منه أن يزورها لأمر مهم، وكان قد قابلها مرتين أو ثلاثًا ولم يبادلها خلالها إلا بضع كلمات، لكنه مع هذا يذكر أنها بارعة الحسن متكبرة، فأحس خوفا مبهمًا لا يدرى كنهه من لقائها، وأخذ يحدث نفسه بأنها حسنة المقصد لا غاية لها سوى إنقاذ أخيه ديمتري وإن يكن قد أساء إليها!.

وحينما اقترب أليوشا من بيتها، شعر برعدة تسري في جسده وتوقع ألا يجد لديها أخاه ايفان الذي توطدت صداقته لها، لأن ايفان لابد أن يكون مع أبيه في ذلك الوقت، وكذلك توقع ألا يجد لديها ديمتري الذي هجرها واختار لنفسه مسكنًا بعيدًا عن بيتها وعن بيت أبيه!، ووقف أليوشا لحظة ريثما رسم علامة الصليب على صدره ثم مضى بعزم صوب بيت تلك السيدة الرهيبة، ولما كان يعلم أن أباه ينتظره، فقد أوجس خيفة من اضطراره في

طريقه لمقابلة كاترينا إيفانوفنا إلى أن يمر بالحديثة الملاصقة لحديقة بيت أبيه، وكانت حديقة بيت صغير متصدع لامرأة عجوز تعيش مع ابنة لها وديعة حسنة الهندام برغم فقرها، وكانت من قبل خادمة في بيت جنرال في بطرسبورج ثم جاءت منذ عام لتعنى بأمها المريضة.

ووصل إلى تلك الحديقة وهو مستغرق في الفكر، ثم رفع رأسه فجأة فرأى أخاه ديمتري جالسًا على شجرة عند الحاجز، وكان هذا يشير إليه لكى يقترب منه، فلم يسعه إلا أن يمضى إليه فلما صار بحيث يسمع همسه، قال له ديمتري مسرورًا: "هيا.. اصعد واجلس بجانبي!".

فتساءل أليوشا متعجبًا: "لماذا تختبئ هكذا؟".

فقال ديمتري: "إنني أرقب الطريق... ولكن هيا بنا نجلس هناك!".

وكانت الحديقة فسيحة تتخللها أشجار قليلة عند جوانبها الأربعة، وتتوسطها بقعة شاسعة من العشب الأخضر الذي يجفف في الصيف، ويجعل علفًا للماشية.

وقاد ديمتري أخاه إلى ركن منعزل تستره أشجار كثيفة، وكان هناك كوخ تداعى بناؤه واسود لونه من القدم، وقد قامت في وسط ساحته منضدة خشبية خضراء، وحولها بعض مقاعد، فقال أليوشا ضاحكًا وهو يشير إلى زجاجة خمر مفتوحة وبجانبها كأس على المنضدة: "ما هذا؟" فضحك ديمتري بدوره وقال له: "أتحسبنى سكران؟ كلا، ولكنى في نشوة، اجلس، يخيل إلي أن أضمك إلى صدري حتى أسحقك، إني في الحق لا أحب أحدًا في العالم سواك!".

وسكت لحظة ثم استطرد قائلا: "نعم.. لست أحب إلا إياك وامرأة شريرة، وقعت في حبها لكي تقضي علي، ولكن غرام الإنسان بامرأة لا يعنى أنه يحبها، فقد يكون مغرما بها ويكرهها في الوقت نفسه!، تذكر ذلك! إني ما زلت أستطيع أن أتحدث عن هذا الأمر، اجلس هنا إلى المنضدة ودعني أحدثك ولا تقاطعني، وسأوضح لك الأمر، لا أدرى لماذا كنت أفكر فيك وأتمنى لقاءك منذ أويت إلى هذا المكان، إني محتاج إليك لأنى سأحلق في السحب غدًا حينما تنتهي الحياة لتبدأ من جديد!، ألم تحلم قط أنك تقع من شاهق؟، إن ذلك هو ما أشعر به في هذه الأيام، في اليقظة لا في المنام!، غير أني لست خائفًا ولا يجدر بك أن تخاف علي، ربما أكون خائفًا ولكني أنعم بالخوف، نحمد الطبيعة الخيّرة، ألا ترى كيف تسطع الشمس؟، وكيف راقت صفحة السماء؟، واخضر ورق الشجر؟، إن الوقت ما زال صيفًا، والساعة الآن الرابعة بعد الظهر، ولكن إلى أين كنت ذاهبًا؟".

فقال له أليوشا: "كنت ذاهبًا إلى أبي، ولكنى كنت أقصد إلى كاترينا إيفانوفنا أولا!".

فتساءل ديمتري مبهوتًا: "إليها وإلى أبى؟!، إني ما تقت إلى لقائك إلا لكى أبعثك إليها وإلى أبي، أجل أردت أن أرسل إليها ملاكًا لينهى ما بيني وبينها، لقد كان يمكنني أن أبعث إليها أي شخص، ولكنى آثرت أن أبعث ملاكا!، لا شك أنك كنت تعرف ما أريد، ولعلها كتبت إليك تدعوك إلى مقابلتها؟".

فناوله أليوشا خطابها إليه، وقرأ ديمتري الأسطر القليلة في الورقة ثم قال:

"إذن كنت ذاهبا إليها من هذا الطريق الخلفي؟، حمدًا لله الذي أرسلك إلى كالسمكة الحمراء التي وقعت في يد الصياد العجوز كما في الخرافة!، إني أريد الآن أن أذكر لك كل شيء، لأني لابد أن أنفس عن كربي لأحد، وأنت من الملائكة، وستستمع إلى وتحكم، وتغفر، وهذا ما أحتاج إليه قبل كل شيء، أجل أني أحب أن أسمع أحدً فوق مستواي يغفر لي مسلكي!".

وبدأ أليوشا متململا كأنما يريد إنهاء الحديث عاجلا، فواصل ديمتري كلامه قائلا له: "لا فائدة من العجلة الآن!، إن الدنيا بدأت تتخذ لنفسها طريقا جديدة!".

ورأى أليوشا أن يصبر قليلا لعله يستطيع أن يؤدي خدمة لأخيه المكروب، بينما سكت ديمتري هنيهة وقد بدا عليه الحزن ثم قال: "إنك يا أليوشا الشخص الوحيد الذي لن يسخر منى إذا سمع قصتي، لقد كنت في القوقاز أعيش عيشة هوجاء، ولكن لا تصدق ما زعمه أبي في الدير من أني أنفقت آلاف الروبلات في إغواء الفتيان، إن هذا محض اختلاق!، ولم أكن في حاجة للمال من أجل ذلك وحده، فلعلي كنت يوما مع سيدة، ولعلي في غيره كنت مع امرأة من عرض الطريق، وقد كنت أبعثر المال على الموسيقى وعلى المشاجرات وعلى نساء الفجر، وأحيانا كنت أمنحه السيدات المحترمات أيضا، فكن يأخذنه في طمع مسرورات به، وكانت لي حظوة عند السيدات، أو عند بعضهن على الأقل، وكنت ميالًا للخطيئة، محبًّا للقسوة، وذات يوم خرجت مع جماعة في رياضة بالزحافات، وكان الوقت شتاء وقد عم الظلام، فوجدت بجانبي فتاة حسناء هي ابنة أحد كبار الموظفين، وتركني أقبلها بل أباحت لي كثيرًا في الضلمة، وحسبت الحمقاء أني سأطلب يدها

غداة ذلك، ولعل الزواج بها كان يعد صفقة طيبة، ولكنى مكثت خمسة أشهر لا أقول لها شيئًا، وكنت أراها من بعيد في حفلات الرقص وهي ترقبني، وقد غاظها إهمالي إياها، وربما زادها تعلقًا بي، حتى إذا يئست منى، تزوجت أحد الموظفين وانتقلت معه إلى بلدة أخرى، ومن يدرى لعلها لا تزال تحبني، على أنى لم أفاخر بذلك فإني وإن كنت عبدًا لشهواتي أقدر الشرف حق قدره، إني أراك وقد احمر وجهك خجلًا، ولكن اطمئن فلن أذكر لك مثلا آخر من قذراتي، إن لي جعبة واسعة من الذكريات، بارك الله أولئك الحبيبات العزيزات، إني لم أنته مع أي منهن إلى خصام وعداء، ولم أفضحهن قط، ولكنى لم أدعك إلى هنا لكى أحدثك عن صلاتي الغرامية، كلا!. بل سأذكر لك الآن ما هو أغرب، ولا يدهشنك ارتياحي إلى الاعتراف لك دون خجل!".

فقال له أليوشا: "إذا كان وجهي قد علته حمرة الخجل، فليس هذا في الواقع بسبب ما سمعته منك عما كنت تفعله، وإنما خجلي لأني مثلك يا أخي!، مع فارق بسيط هو أنك وصلت إلى أعلى السلم في حين أني ما زلت عند أول درجة منه!".

فنظر إليه ديمتري مشفقًا وقال له: "كلا يا أليوشا!، ما أحسب أنك كذلك!، على أن تلك المرأة الشريرة– أعنى جروشنكا– تعرف الرجال وقد صارحتني يومًا بأنها تود لو تلتهمك التهامًا، ولكن دعنا من ذلك الآن، إن أبانا الشيخ قد اتهمنى بأنى كنت أغوى العذارى، ولكنه لا يعرف مأساة تدل على عكس ذلك، أنني لم أذكر هذه المأساة لأحد من قبل، ما عدا إيفان فقد ذكرتها له، ولكنه كتوم كالقبر!".

وبدا الاهتمام في وجه أليوشا، وأرهف سمعه مصغيًا إلى حديث ديمتري، فمضى هذا يقول: "كنت ضابطًا برتبة ملازم، ولكنى كنت مع هذا تحت الرقابة وكأنى مجرم!، على أنى كنت محترمًا جدًا من أسر البلدة التي نرابط بها، فقد كنت أبعثر المال باليمين واليسار، فيحسبني الناس من الأغنياء، بل كنت أنا أحسب نفسى كذلك، ولكن لعلى كنت أجذب النساء بغير المال أيضًا، وكان لي أصدقاء من ذوى النفوذ، ولكن الكولونيل رئيس فرقتي كان يكرهني!، ولعل هذا لأنى كنت متكبرًا لا أبدى له الاحترام الواجب!، وكانت له ابنة في الرابعة والعشرين من عمرها تدعى (أجافيا) أنجبتها له زوجته الأولى التي تنتمى إلى أسرة فقيرة، فتعرفت إليها، وكانت صلتي بها صلة صداقة بريئة، فكثيرًا ما كنت أصادق نساء على هذا الأساس، وطالما حدثتها بصراحة وجرأة فكانت تضحك وتبدو منشرحة الصدر، مع أنها رفضت خطيبين قبل ذلك، والواقع أنها برغم حياتها مع أبيها وخالتها بمعزل عن المجتمعات كانت محبوبة من الجميع إذ كانت بارعة في الحياكة ولا تتأخر عن خدمة أية سيدة تقصدها، فإذا دفعت لها أجرًا قبلته وإلا لم تطلب لنفسها أجرًا، أما أبوها الكولونيل فقد كان من الشخصيات البارزة في البلدة، وكان يقيم المآدب والحفلات الراقصة وسكت ديمتري قليلا ريثما أفرغ كأسًا أخرى من الخمر في جوفه، ثم استأنف حديثه فقال:

– عند وصولي إلى تلك البلدة كان الأهالي جميعًا يتحدثون عن الابنة الثانية للكولونيل بمناسبة قرب عودتها من العاصمة حيث كانت تتعلم في مدرسة لبنات الطبقة الراقية، وكانت ابنته هذه هي (كاترينا ايفانوفنا)، وأمها هي زوجته الثانية، ومع أن هذه الزوجة ابنه جنرال في الجيش، فقد علمت

أنها هي أيضًا لم تأت للكولونيل بصداق يذكر، والمهم أن البلدة كلها سرعان ما انتعشت وعمها الابتهاج حين جاءت إليها كاترينا في أجازه من مدرستها الداخلية، فأخذت سيدات المجتمع يقمن لها حفلات استقبال شائقة، وحضرت كثيرًا من هذه الحفلات، ولكني لم أظهر كبير اهتمام بالفتاة الصغيرة الحسناء، ثم حدث أن كلمتها في إحدى الحفلات، فغاظني منها أنها عاملتني بكبرياء، ولم يسعني إلا مقابلتها بالمثل، ثم مضيت في طريقي أكثر من الشراب وأثير المشاجرات حتى أمر الكولونيل بحبسي ثلاثة أيام، وفي ذلك الوقت أرسل إلى أبي سنة آلاف روبل في مقابل وثيقة تنازلت فيها عن كل حق لي عنده في ميراثي من أمي، ولست أعرف حتى الآن كيف سوى حساب هذا الميراث، ولكن دعنا من ذلك الآن، فالمهم أني لم أكد أتسلم ذلك المبلغ حتى جاءني خطاب من صديق لي أسر لي فيه أن السلطات المختصة ليست راضية عن الكولونيل، وأنها تتهمه ببعض المخالفات المالية في إدارة الفرقة، والحق أن أعداءه كانوا يدبرون له مكيدة، ثم جاء قائد وافتعل خلافًا معه، ولم تمض أيام حتى جاء الأمر بإحالته إلى المعاش، وسرعان ما تغافلت سيدات المجتمع عنه وعن أسرته، وأدار جميع أصدقائه ظهورهم له، وعندئذ خطوت أول خطوة فقابلت ابنته الكبرى (أجافيا) وكنت لا أزال على مودتي لها وذكرت لها أني علمت أن في حساب والدها عجزًا قدره أربعة آلاف وخمسمائة روبل من أموال الحكومة، فارتاعت وسألتني عمن أنبأني بهذا، فأخذت أهدئ من روعها، وفي الوقت نفسه أؤكد لها أن السلطات إذا طلبت من أبيها هذا المبلغ وعجز عن دفعه فإنه يحاكم ويحكم بإنزاله إلى درجة (نفر)، ثم صرحت لها باستعدادي لإنقاذه من هذا المصير الرهيب إذا

هي أرسلت أختها لتتسلم مني بنفسها ذلك المبلغ المطلوب من غير أن يدرى أحد، وكان رد (أجافيا) أن غضبت وثارت في وجهي متهمة إياي بالدناءة والخسة، ثم افترقنا بعد أن وعدتها بكتمان النبأ، وبقيت هي وخالتها تخدمان (كاترينا) كأنها ملكة، ولكنها أخبرتها بالأمر كما علمت فيما بعد، وهذا ما كنت أريده، ولم يمض إلا قليل حتى مرض الكولونيل الشيخ متأثرًا بوصول قائد الفرقة الجديد، ومكث يومين لا يغادر فراشه، ولم يسلم المال الذي في عهدته، وكنت أعرف أنه أقرض ذلك المال كعادته تاجرًا بالبلدة يدعى تريفونوف، وهو أرمل شيخ له لحية توحى بالثقة، وطالما أعاره الكولونيل مال الفرقة ليذهب به إلى السوق ويعقد الصفقات ثم يعيده كاملا وفوقه (فائدة) جزيلة، ولكنه عاد يومًا من السوق من غير أن يعيد المال إلى الكولونيل! ولما طالبه هذا به، أنكر أنه أخذ منه أي شيء من المال!.

وفيما كان الكولونيل راقدًا في سريره، وقد شغلت ابنتاه وأخته بوضع الثلج على فوطة حول رأسه، جاء إلى منزله رسول من القائد الجديد ومعه أمر بوجوب تسليم مال الفرقة في مدى ساعتين، فوقع الكولونيل على إيصال بتسلم هذا الأمر!

وسكت ديمتري مرة أخرى وهو يتفرس في وجه أليوشا الذي اشتد تأثره، ثم قال: "غادر الكولونيل فراشه على أثر ذلك، وارتدى بدلته العسكرية، ثم أخذ بندقيته ومضى بها إلى غرفة خالية حيث شرع في التدرب على إطلاقها على صدره بواسطة قدمه اليمنى بعد أن نزع عنها الحذاء!، وفي أثناء ذلك كانت ابنته (أجافيا) قد ارتابت في الأمر، إذ تذكرت ما قلته لها من قبل، فهرعت إلى أبيها في تلك الغرفة حيث أدركته في اللحظة الأخيرة فأحاطته

بذراعيها من خلفه، في الوقت الذي انطلقت فيه الرصاصة من بندقيته، فلم تصب صدره كما أراد، بل أصابت سقف الغرفة. وأسرعت أخته وابنته الأخرى فأخذتا البندقية منه، وقد علمت ذلك كله فيما بعد، وكنت وقتئذ في مسكني وقد مالت الشمس إلى الغروب، فتأهبت للخروج، وما كدت أرتدى ثيابي وأفرغ من تمشيط شعري وصب بعض العطر على منديلي، حتى فوجئت بالباب يفتح وبكاترينا ايفانوفنا تقف أمامي!

ومرة أخرى سكت ديمتري وأخذ يحدق في وجه أليوشا متفحصًا، ولكن هذا بقى صامتًا فعاد الأول إلى حديثه يقول: "كنت أسكن مع سيدتين عجوزين شديدتي الإخلاص لي، وقد طلبت إليهما فيم بعد أن يكتما النبأ، وبديهي أني حين رأيتها أدركت الموقف توًّا، أما هي فاقتربت مني وهي تحدجني بنظرة صارمة تنبئ عن تحد ظاهر ثم قالت لي: (لقد أخبرتني أختي.. بأنك.. ستعطيني ٤,٥٠٠ روبل إذا جئت إليك!)، على أنها لم تستطع أن تحتفظ بثباتها المصطنع، وسرعان ما خار صوتها وارتعشت شفتاها... أسامع أنت ما أقول أم أنت نائم يا أليوشا؟!".

فقال أليوشا باهتمام: "إني مصغ إليك يا متيا، وموقن أنك تصدقني القول".

ثم استطرد ديمتري فقال: "نعم أنا أصدقك القول وأذكر لك ما حدث تمامًا، لقد شعرت أول الأمر بألم في قلبي كأن حشرة لذعته... أفاهم أنت؟. ثم صعدت فيها بصري كأني أقيسها، هي رأيتها؟ إنها في الحق فاتنة، ولكنها في تلك اللحظة كانت في عيني قد زادت جمالا لنبلها وتضحيتها في سبيل

أبيها، ولكني وغد كما أعرف نفسي، وعلى هذا همت بأن أتصرف تصرف الأوغاد، ولكني جعلت أقاوم الرغبة الجامحة في نفسي، وتوزعت نفسي شعاعًا بين الرغبة والمقاومة حتى وجدتني لا أقوى على التنفس، وفكرت في أن أطلب يدها في الغد فلا يدرى أحد ما حدث، ولكن صوتًا خفيًا من أعماق نفسي طرد هذا الخاطر من ذهني، مخافة أن ترفض طلب أو تأمر خادمها بطردي قائلة لي: (أذع النبأ في البلدة كلها إذا شئت فإني لا أخافك)، ثم نظرت إليها مليًا فأدركت من كبريائها البادية أنها جديرة حقًا بأن تطردني من بيتها، وعندئذ ثار العناد في نفسي وأردت أن أسخر منها لأنتقم من ترفعها علي، وهممت بأن أقول لها: أن أربعة آلاف روبل شيء كثير، ولا شك أنك غاليت في تقديره.. وإذن.. لا بأس بمائتي روبل!.. ولكني أدركت أنها ستخرج توًا فأندم بقية حياتي على ما حدث.

ثم ذهبت إلى النافذة ولصقت جبهتي الملتهبة بزجاجها البارد، على أني لم أبقها عندي طويلا، اطمئن، فقد استدرت وذهبت توًا إلى حيث تناولت رزمة من أوراق النقد تبلغ خمسة آلاف روبل (وكانت محفوظة في قاموس فرنسي)، وأريتها لها في صمت ثم سلمتها إياها وفتحت لها الباب وانحنيت لها باحترام.

"صدقني أنها حيال ذلك تولتها رعدة عمت كل جسدها، وشحب وجهها، ثم باغتتني بأن انحنت برقة حتى سجدت أمام قدمي وجبينها يلمس الأرض! ثم قامت وخرجت لا تلوي على شيء!

"وكنت متمنطقًا بسيفي فجردته وشعرت برغبة جامحة في أن أطعن نفسي

به، ولست أدرى لماذا؟، ولعل سروري ورضائي عن مسلكي هما اللذان بعثا في نفسي هذه الخاطرة الحمقاء، ولكني لم أطعن نفسي بل قبلت سيفي وأعدته إلى غمده، ألا تدري أن الإنسان قد يقتل نفسه من فرط السرور؟، لقد تحسب أني أمجد نفسي أمامك إذ أذكر لك كيف قاومت غريزتي، ولكني أقول لك الحق من غير قصد، والآن دعنا من ذكر كاترينا إيفانوفنا، إن هذا الأمر لا يعرفه الآن سواك وسوى ايفان!".

وعندئذ وقف ديمتري وأخرج من جيبه منديلا مسح به جبينه، ثم جلس ثانية في مواجهة أليوشا، فقال له هذا:

– الآن أعرف شطرًا من قصتك مع كاترينا إيفانوفنا.

فقال ديمتري: "لقد كانت دراما مثلت هناك، أما الشطر الآخر فهو مأساة لا تزال تمثل هاهنا!".

– ولكني يا متيا لا أدرك شيئًا من هذا الشطر الثاني!

– وهل تحسبني أدرك منه شيئ؟

– ألم تزل خطيب كاترينا حتى الآن؟

فقال ديمتري: "إني لم أخطبها عقب ذلك الحادث ولكن بعد مضى ثلاثة أشهر، ففي غداته حسبت أن الأمر انتهى إلى ذلك الحد، ورأيت أن من السخف أن أطلب يدها، وهي من جانبها مكثت ستة أسابيع لا تشعر أحدًا بوجودها وإن تكن قد بقيت بالبلدة، وفي اليوم التالي لزيارتها لي جاءتني الخادمة بخطاب منها عليه اسمى وعنواني، فلما فضضت غلافه وجدت به

خمسمائة روبل هي بقية الخمسة آلاف، لقد كان أبوها في حاجة إلى ٤,٥٠٠ روبل فقط، ولم يكن مع النقود أي خطاب ولا أية كلمة، فأنفقت تلك الخمسمائة روبل في العربدة حتى أنبني المأجور الجديد!، وقد دهش الجميع حين علموا بأن الكولونيل دفع مال الفرقة، إذ كانوا يتوقعون ألا يستطيع ذلك، أما هو فما كاد ينتهي من ذلك الأمر حتى عاوده المرض، ولم يمهله أكثر من ثلاثة أسابيع مات بعدها ودفن بالمراسم العسكرية الواجبة لمثله.

وبعد عشرة أيام، سافرت كاترينا إيفانوفنا مع عمتها وأختها إلى موسكو، ولم أودعهن عند السفر ولكنى لم ألبث حتى تسلمت منها رقعة تقول فيها: (سأكتب إليك فانتظر)، وأذكر لك الآن يا أليوشا بقية ما حدث في إيجاز:

"لقد تبدلت حالتهن في موسكو بسرعة البرق، فإن أرملة الجنرال الصارمة المحسنة، أصيبت ابنتا أخيها اللتان كانتا وريثتيها بمرض الجدري، ثم ماتتا في أسبوع واحد، فاتخذت تلك السيدة من كاترينا ابنة لها وأوصت لها بمالها بعد وفاتها، وفي الوقت نفسه أهدت إليها ثمانين ألف روبل لتكون صداقها عند الزواج، وقد دهشت حين فوجئت بأن حمل البريد إلى من موسكو أربعة آلاف وخمسمائة روبل!، وبعد ثلاثة أيام جاءني الخطاب المنتظر.

وما زال هذا الخطاب معي، وسأحتفظ به حتى أموت، أتريد أن تراه؟، ينبغي لك أن تقرأه، لقد عرضت علي أن أتزوجها!، أجل عرضت نفسها علي! وقالت في خطابها: (إني أحبك حبًا ملك علي عقلي، ولست أبالى ألا تحبني، فهيا تزوجني ولا تخف، ولن أقف في طريقك من أية وجهة، إني أريد

أن أحبك إلى الأبد، أريد أن أنقذك من نفسك)، إن هذا الخطاب يا أليوشا هو الآن بمثابة خنجر يطعن ضميري، وقد أجبت عليه توًّا وقلت في خطابي إني لا أقدر أن أسافر إلى موسكو، ومن دواعي خجلي إلى الأبد أني أشرت في خطابي إلى غناها وفقري، لقد ذكرت المال وكان ينبغي لي أن لا أذكره!، ثم كتبت في اليوم نفسه إلى إيفان وذكرت له كل ما حدث بالتفصيل، وبعثت إيفان إليها، لماذا تنظر إلى هكذا يا أليوشا؟، أجل لقد وقع إيفان وقتئذ في غرامها ولا يزال متيما بها حتى الآن، إني أعرف ذلك، لقد كنت أحمق إذ بعثته، ولكن حماقتي تلك هي التي ستنقذنا كلنا في الوقت الحاضر، ألا تدرى أنها تقدر إيفان وتحترمه؟ أتحسبها إذا قارنتني به تظل تحبني حتى بعد كل ما حدث هنا؟".

فقال له أليوشا: "إني موقن أنها تؤثر شابًا مثلك على ايفان".

فضحك ديمتري وقال: "إنها تحب كرم خلقها أكثر مما تحبني!، أقسم لك يا أليوشا بكل ما هو مقدس إني وإن كنت أسخر الآن من سمو شعورها فإني أعلم علم اليقين أنها أرقى مني ألف مرة، وأما إيفان فإنه لا شك يعجب منها كيف تؤثرني عليه مع ما بي من فساد لا أخفيه عليها وهي خطيبتي!، إن كل ما في الأمر أنها تريد أن تضحي نفسها بدافع عرفان الجميل!، أليس ذلك مما يبعث على الضحك؟ أني لم أقل ذلك لإيفان، وهو كذلك لم يشر إليه مطلقًا أمامي، ولكن القدر سوف ينصر خيرنا ويخذل شرنا، أجل سوف أوغل في طريقي حتى أغرق في الوحل، أما هي فسوف تتزوج إيفان!".

– دعك من ذلك يامتيا، على أن هناك شيئًا لم تفسره لي، أنها لا تزال

خطيبتك؟، فكيف تستطيع أنت أن تفسخ الخطبة إذا لم ترض هي بذلك؟.

– أجل نحن ما زلنا مخطوبين رسميًّا، لقد تمت الخطبة بعد أن سافرت إلى موسكو، وكانت وسط احتفال فخم، وباركتنا أرملة الجنرال، ألا ترى يا أليوشا أنها هنأت كاتيا (كاترينا) قائلة لها: (لقد أحسنت الاختيار، إن لي فراسة أعرف بها كنه الرجال)، ثم إنها لم تمل إلى إيفان حتى إنها استقبلته بفتور!، ولقد تحدثت في موسكو مع كاتيا مليًا، ولم أخف عليها شيئًا من سيرتى، فأصغت إلى، ثم أخذت على عهدًا وميثاقًا بأن أصلح نفسى ما استطعت، وقد وعدتها بذلك وأقسمت وها أنتذا ترى النتيجة، إذ دعوتك إلى هنا لكى تذهب إليها، وتقول لها: إني لن أراها، نعم يا أليوشا، ما عليك إلا أن تبلغها إني أرس إليها أطيب تمنياتي.

فقال أليوشا: "لكن هذا محال!".

فرد عليه قائلا: "إنه محال بالنسبة لي، ولذا أبعثك بدلا منى!".

فسأله أليوشا: "إلى أين تذهب الآن؟"، فأجاب: "إلى جروشنكا!".

فقال أليوشا وكأنه يحدث نفسه: "إذن.. كان راكتين صادقًا.. وقد كنت أحسب أن زيارتك لها عادية؟".

فقال له ديمترى: "كلا!.. لم تكن زيارة عادية!.. إنني فيما بيني وبين نفسي أحسب أن خطبتي لكاتيا قد انتهت منذ بدأت أرى جروشنكا، لماذا تنظر إلى هكذا؟، لقد ذهبت إلى جروشنكا أول مرة لكي أضربها، فقد علمت أن ذلك الكابتن الذي بالمعاش والذي هو في خدمة أبي قد أعطاها صكًّا موقعًا عليه مني يدين ميسر، وذلك كي تطالبني به أمام القضاء، قد أرادوا إخافتي بذلك، ولذلك

عزمت على أن أذهب إليها لألقنها درسًا قاسيًا، وكنت قد لمحتها قبل ذلك فلم تثر اهتمامي، كذلك كنت أعلم أنها كانت خليلة ذلك التاجر الشيخ الذي هو الآن مشلول يلازم بيته، وسيترك لها مبلغًا كبيرًا من المال، وعلمت أيضًا أنها تحب المال وتدخره وتقرضه بالربا الفاحش، وإنها مخادعة مخاتلة عاطلة من الرحمة، وعلى ذلك ذهبت إليها لكى أضربها، ولكنى مكثت عندها، فقد هبت العاصفة ودهمتني كالوباء المباغت، وما زلت حتى الآن صريع ذلك الوباء، وأنا موقن أنه قد قضى على ولن أكون بعد اليوم شيئًا مذكورًا، وإذا كنت لا أملك شيئًا الآن فقد كان بحوزتي يوما ثلاثة آلاف روبل فسافرت مع جروشنكا في عربة إلى (موكرو) على بعد خمسة وعشرين فرسخا من هنا، وقد وزعت الشمبانيا على الفلاحين هناك، ودعوت الفجر والنساء والفتيات ليرقصن، وبعثرت المال باليمين واليسار فلم تنقض أيام ثلاثة حتى أفلست، ولكنى كنت ابطل المرموق من الجميع، ولكن، هل تظن أني نلت مأربي من جروشنكا برغم ذلك كله؟. كلا!. إني مفتون بها، ولكن كل ما نلته منها هو أني قبلت الأصبع الصغرى من قدمها!، وقالت لي إذ ذاك: (إني أتزوجك إذا شئت.. ولكن أقسم لي أولا أنك لن تضربني، وإنك ستدعنى أفعل ما يحلو لي، وعندئذ ربما أتزوجك)، وضحكت وهي تقول ذلك ولا تزال تضحك حتى الآن!.

ثم قفز ديمتري من مكانه كالمذعور، فقال له أليوشا: "هل أنت تفكر تفكيرًا جديًا في زواجها؟".

فأجاب قائلا: "أتزوجها توًا إذا قبلت!، وإذا لم تقبل فإني لا أبالي أن أكون حاجبًا ببابها!".

ثم سكت ديمتري لحظة وقال: "أتدرى يا أليوشا، أيها اللطيف الساذج الطاهر، أن ها هنا مأساة؟، إني قد أكون شخصًا دنيئًا ذا غرائز منحطة، ولكنى لن أكون قط لصًا أو نشالا!، وفي صباح ذلك اليوم، حين ذهبت إلى جروشنكا معتزمًا ضربها، بعثت كاترينا إيفانوفيا في طلبي خفية، وما أدراني ما الذي دعاها إلى أن تطلب منى أن أذهب إلى عاصمة الإقليم وأرسل بالبريد هناك ثلاثة آلاف روبل إلى أختها أجافيا في موسكو، كما طلبت منى أن أكتم نبأ ذلك، وهكذا حين ذهبت إلى جروشنكا كان بجيبي تلك الآلاف الثلاثة، وذلك هو المبلغ الذي أنفقته عليها في موكور!، وبعد ذلك كذبت على كاترينا إيفانوفنا وقلت لها إني أرسلت المبلغ إلى أختها، ولعلها حين تقابلها وتبلغها أطيب تمنياتي، تسألك عن ذلك المبلغ، فإذا فعلت فما عليك إلا أن تقول لها: (إنه شخص منحط لا ضابط لنزواته، إنه لم يرسل ذلك المبلغ بالبريد ولكن بدده على ملاذه).

ولكن يجب أن تقول لها أيضًا: (على أنه ليس بلص، وإليك الآلاف الثلاثة فقد أعادها إليك معى، ويمكنك أن ترسليها بنفسك إلى أختك أجافيا)، نعم يجب أن أرسل إليها المبلغ معك، ولكن أين هو أولا؟!".

فقال له أليوشا: "إني أراك يا متيا في يأس شديد، ولكن لا تصرف على نفسك!".

فقال له: "أتحسبني سأقتل نفسي لأني لا أقدر أن أعيد إليها ذلك المبلغ؟، إني لن أقتل نفسي لأنى لا أملك القوة اللازمة لذلك في الوقت الحاضر، وربما تكون لي هذه القوة فيما بعد، أما الآن فإني ذاهب إلى جروشنكا، ولا أبالي ما يحدث!".

وبقى أليوشا صامتًا يتطلع إلى ديمتري في تساؤل، فقال له هذا: "سأتزوجها إذا تفضلت وقبلتني زوجًا لها، وإذا جاء عشاقها فسآوي إلى غرفة مجاورة، وسأمسح أحذية أصدقائها وأقضى لهم ما يريدون من مهام!".

ففكر أليوشا هنيهة ثم قال له: "إن كاترينا ستدرك كل ذلك وستصفح، إنها واسعة الصدر، وستفهم مدى الشقاء الذى أنت فيه!".

فقال ديمتري: "إنها لن تغفر كل شيء!، فهناك شيء لا تستطيع أية امرأة أن تغفره، أتدرى ما هو خير ما يعمل؟، هو أن أعيد إليها الثلاثة آلاف روبل!".

فقال أليوا: "هذا حق، ولكن من أين لنا أن نأتي به؟، حسنًا يا متيا!، إن عندي ألفين، ويستطيع ايفان أن يمدنا بألف من عنده، فتكون لدينا ثلاثة آلاف تدفعها لها!".

فنظر إليه ديمتري متسائلا: "كيف تصل أنت إلى ذلك المبلغ ولم تبلغ سن الرشد بعد؟ ثم إنك لابد أن تذهب إليها اليوم لتودعها باسمي، سواء أكان معك ذلك المبلغ أم لا، إني لا أقدر أن أصبر بعد اليوم، ولو أبطأنا حتى الغد لفات الوقت، وعلى أيضًا أن أبعثك إلى أبي!، نعم يا أليوشا، يجب أن تذهب إليه أولا وتطلب إليه ثلاثة آلاف روبل!".

– ولكنك نعلم يا متيا أنه لن يعطينا هذا المبلغ!

– إني أعلم ذلك، ولكن، أتدرى ما معنى اليأس يا ألكسى؟، إن آبي من الوجهة القانونية ليس مدينًا لي بشيء، أليس كذلك!، إنك تعلم أنه بدأ حياته العملية بثمانية وعشرين ألف روبل من مال أمي، وقد استثمرها حتى

بلغت مائة ألف، فليعد إلى ولو ثلاثة آلاف فقط من تلك الثمانية والعشرين ألفًا، إنه بذلك ينقذني من هاوية الجحيم ويكفر عن كل سيئاته، وأقسم لك لو أعطاني تلك الآلاف الثلاثة لانتهى كل خلاف بيني وبينه، ولن يسمع شيئًا عني بقية حياته، إنه الآن قد أتيحت له آخر فرصة، فلتقل له ذلك!.

– ثق يا متيا أنه لن يعطيك الآلاف الثلاثة على أي وجه من الوجوه!.

– إني أعلم ذلك حق العلم!، كما أني أعلم شيئًا آخر، لقد أدرك منذ بضعة أيام وربما أمس فقط، إن جروشنكا لا تمزح بل قد تفكر جديًا في الزواج بي، وهو يعرف طبيعة هذه الهرة، أفتحسب أنه يعطيني ذلك القدر من المال لكى يساعدني على إتمام الزواج بها؟ كلا!، إنه هو نفسه متيم بها!، وليس هذا هو كل ما في الأمر، فإني أعلم أنه منذ خمسة أيام سحب من البنك ثلاثة آلاف روبل، ثلاثين ورقة بنكنوت من فئة المائة روبل، ثم وضعها في ظرف كبيرة ختمه بالشمع وكتب عليه: (لملاكي جروشنكا حين تأتى إلى)، وقد فعل ذلك كله خفية ولا يعلم بسره أحد سوى الخادم سمردياكوف الذي يثق به كما يثق بنفسه، وهو الآن ينتظر مجيء جروشنكا منذ ثلاثة أو أربعة أيام وأمله أن يجذبها ذلك المال إليه، وقد بعث ينبئها به عساها أن تذهب إليه، والآن تدرك يا أليوشا لماذا أختبئ هنا حيث أستطيع أن أرقب الطريق!.

فتساءل أليوشا: "أترقب الطريق من أجلها؟".

فقال ديمتري: "نعم من أجلها.. يا أليوشا!.. إن (فوما) يسكن غرفة في هذه الدور، وكان جنديًا في فرقتي، وقد عهدت إليه في أن يراقب الطريق ليلا لأنه يشتغل بالصيد نهارًا، أما أنا فاتخذت من غرفته مثوى له، وليس

يدرى هو ولا ربة الدار أني أتولى المراقبة بالنهار!".

فسأله أليوشا: "إذن لا يعلم بسرك سوى سمرديا كوف؟".

فأجاب أليوشا: "إذن هو الذي أنبأك بتلك الآلاف الثلاثة من الروبلات التي سحبها أبوك من البنك؟".

فقال: "نعم، وهذا سر لا يعلمه أحد، حتى إيفان لا يعلم شيئًا عن ذلك المال ولا عن أي شيء، وسيبعثه أبي إلى (تشر ماشنيا) في مهمة تستغرق يومين أو ثلاثة، فقد عرض أحد من الناس شراء خشب الغابة الذي له هناك بمبلغ ثمانية آلاف روبل، ولذا يلح الشيخ على إيفان أن يتم هذه الصفقة بالنيابة عنه، وذلك يتطلب يومين أو ثلاثة وقد تأتي جروشنكا في خلالها!".

فسأله أليوشا: "أتحسبه يتوقع مجيء جروشنكا إليه اليوم؟".

فأجاب: "إنها لن توافيه اليوم، فهناك ما يدل على عدم قدومها، وهذا ما يظنه سمرد ياكوف أيضًا وقد عمد أبي إلى الشراب الآن وهو جالس مع ايفان إلى المائدة، فاذهب إليه توًا واطلب إليه ثلاثة آلاف روبل!".

فنظر إليه أليوشا بدهشة وقال: "ماذا بك يا عزيزي متيا؟".

فقال له ديمتري: "أتحسبني جننت؟ كلا!.. ولكني أبعثك إلى أبي فمن يدرى؟ قد تحدث معجزة تحول دون وقوع حادث رهيب!، إني ما زلت أؤمن بالمعجزات!" وهنا تهيأ أليوشا للانصراف قائلا لأخيه الأكبر: "سأذهب إليه، فانتظرني هنا!"، ولكن ديمتري قال له: "كلا!، لا تذهب إليه توًا فقد يكون سكران في هذه الساعة، وسأنتظرك هنا ثلاث ساعات أو أربعًا أو

سبعًا، ولكن لابد أن تذهب إلى كاترينا اليوم ولو في منتصف الليل، سواء أكان معك المبلغ أم لا!".

فتساءل أليوشا: "وماذا لو جاءت جروشنكا إلى أبيك اليوم أو بعد اليوم؟" فأجاب ديمتري: "إذا جاءت فإني أراها من هنا، وعندئذ أحول بينها وبين الذهاب إلى أبي!".

وهم أليوشا بأن يسأل مرة أخرى، ولكن ديمتري واصل كلامه قائلا: "نعم سأحول بكل وسيلة دون ذلك، حتى إذا أدى الأمر إلى القتل!"

فقال أليوشا في فزع: "قتل؟.. من تقتل يا متيا؟!".

فقال ديمتري في هدوء يخفى وراءه عاصفة عاتية: "في هذه الحالة يكون أبونا الشيخ هو القتيل!".

فقال أليوشا مستنكرًا: "كيف تقول هذا؟".

فقال له: "لست أدرى!.. ربما أقتله في هذه الحالة.. وربما لا أقتله!، إني أشعر بالاشمئزاز منه!".

فقال أليوشا (ألكسى) بعد أن فكر هنيهة في الأمر: "انتظرني هنا يا متيا، ها أنذا ذاهب إليه، وأنا أعتقد أن الله سيصلح الأمور!".

فقال له ديمتري وهو يشبعه بنظراته: "حسنًا!، سأمكث هنا راجيًا أن تحدث المعجزة!".

شروع في قتل

ذهب أليوشا إلى دار أبيه مستغرقًا في التفكير، فوجده هناك في غرفة الجلوس، يتناول الحلوى مع الخمر كعادته بعد الغداء، ومعه ولده إيفان!.. وكان أثاث الغرفة أبيض اللون وقد غطى بحرير أحمر بادى القدم كالأثاث نفسه، وعلى الحائط مرايا كبيرة وصورتان كبيرتان أحداهما لحاكم الإقليم منذ ثلاثين سنة والأخرى لأحد الأساقفة، وكانت هناك أيقونات يضاء أمامها مصباح في الليل، ولم يكن ذلك عن تعلق بالدين في نفس فيدور بافلوفتش، ولكن لرغبته في وجود ضوء بالغرفة إذ اعتاد ألا يأوي إلى فراشه إلا قبيل الفجر، وأن ينام وحده بالدار بعد أن يأوي الخدم إلى بيتهم ما عدا سمرد يا كوف فينام على دكة بالردهة وقد سمع أليوشا قهقهة أبيه من بعيد قبل أن يصل إلى غرفة الجلوس، فأدرك أنه وصل إلى طور النشوة ولم يسكر بعد، وما رآه أبوه حتى صاح به قائلا: "تعال اجلس واشرب القهوة معنا!، إني لا أعرض عليك خمرًا فإنك صائم، ولكن لدينا خمر معتقة، اذهب يا سمرد يا كوف إلى الخزانة وائتنا بمشروبنا المفضل، إذا كنت لا تشرب منه فإنا نشرب... ولكن هل تناولت غداءك؟".

ولم يكن أليوشا قد أكل سوى قضمة من خبز في الدير، لكنه قال: "لا بأس بتناول فنجان قهوة، فقد تغديت منذ قليل!".

فقال أبوه: "حسنًا!.. هنا قهوة متقنة من صنع سمرد يا كوف، أن سمرد يا كوف فنان في صنع القهوة بل في صنع كل ألوان الطعام، خصوصًا السمك

وحساء السمك، يجب أن تأتي إلينا يومًا وتتناول معنا حساء السمك، ولكن مهلا، ألم أقل لك صباح اليوم أن تحضر معك فراشك من الدير؟".

فابتسم أليوشا وقال: "لم أحضره بعد!"، فواصل أبوه كلامه قائلا له: "لماذا كان يبدو عليك الانزعاج صباح اليوم في الدير؟، إني لم أقصد أن أكدرك!".

ثم التفت إلى إيفان وقال له: "إني لا أطيق طريقة أخيك هذا إذ ينظر إلى الإنسان مليًا ويبتسم!. إنه يجعلني أضحك.. حقًا إني شغوف به!" ثم دعا أليوشا إليه قائلا: "تعال لأباركك مباركة أب لولده"، فقام أليوشا من مكانه، ولكن أباه كان قد غير رأيه فلم يباركه وإنما قنع بأن أشار بيده إشارة الصليب فوق رأسه... ثم قال له: "إن لدى ما يضحك، فإن (حمار بلعام) قد تلك اليوم.. وما أعجب ما يقوله".

وكأن يقصد بحمار بلعام الخادم سمرد ياكوف، وهو شاب في نحو الرابعة والعشرين من عمره قليل الكلام صادف عن الناس، لا لخجل طبيعي فيه، بل لأنه شديد الغرور بنفسه، يحتقر كل إنسان عداه، وقد رباه جريجورى وزوجته مارفا، ولكنه كما يقو جريجورى نشأ غير عارف بالجميل، ينظر إلى الناس نظرة الارتياب، وكان في صغره شغوفًا بشنق القطط ثم دفنها باحتفال يقلد فيه القساوسة ويتلو الأدعية، حتى ضبطه جريجورى يومًا فضربه ضربًا مبرحًا كي يقلع عن هذه اللعبة، فقبع أسبوعًا في ركن بالبيت لا يكلم أحدًا، وكان جريجورى يقول لزوجته: "إنه لا يهتم بك ولا بي، إنه ليس له شعور البشر"، وقد علمه جريجورى القراءة والكتابة، ولما بلغ الثانية عشرة من عمره

بدأ يعلمه الكتاب المقدس ولكن ذلك لم يجد نفعًا، فإن الغلام لما وصل إلى الدرس الثاني أو الثالث تجهم وجهه، وقال: "إن الله قد خلق الضوء في اليوم الأول وخلق الشمس والقمر والنجوم في اليوم الرابع، ولكن من أين أتى الضوء في اليوم الأول؟".

وكان ينظر إلى معلمه نظرة ملؤها السخرية، فاغتاظ هذا وقال له: "سأريك من أين أتى الضوء"، ولطمه على وجهه لطمة شديدة فتلقاها من غير أن ينطق بكلمة ولكنه عاد فقبع في ركنه بضعة أيام، وبعد أسبوع أصابته أول نوبة من الصرع الذي لازمه بقية حياته، ولما سمع بذلك فيدرو بافلوفتش تبدل مسلكه نحو الغلام فجأة، فإنه كان قبل ذلك لا يعيره التفاتًا ولا يؤنبه على خطأ يأتيه، ولكنه كان يعطيه درهمًا كلما صادفه، وأحيانًا كان يعطيه قطعة حلوى من فوق المائدة، غير أن لما علم بمرضه اهتم به اهتمامًا ظاهرًا وبعث في طلب طبيب له وجرب علاجًا بعد آخر، ولكن اتضح أنه مرض لا يشفى، فقد كثرت نوبات الصرع التي تصيب الفتى وصارت بمعدل نوبة كل شهر، وكانت متفاوتة الشدة، بعضها خفيف وبعضها عنيف، ومنذ ذلك حرم فيدور بافلوفتش على جريجورى أن يضربه وأراحه أيضًا من التعليم مدة من الزمن، ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره رآه فيدور بافلوفتش يومًا يتسكع في المكتبة وهو يقرأ أسماء الكتب، وكان لديه نحو مائة مجلد ولكن لم يره أحد يقرؤها قط، وعندئذ أعطاه مفتاح خزانة الكتب وقال له: "ستكون أمين هذه الخزانة"، ثم أعطاه كتابًا ليقرأه وكان عنوانه "أمسيات في كوخ بالقرب من ديكانكا"، فقرأ الفتى بضع صفحات فيه ثم أعاده إلى سيده متجهم الوجه فسأله هذا: "ألم يسرك هذا الكتاب؟"، فأجاب قائلا: "إنه

غير طبيعي!"، فغضب فيدور وقال له: "إن لك روح خادم!، اذهب إلى الجحيم، ولكن انتظر هذا كتاب "التاريخ العالمي"، وكل ما فيه صدق فهيا اقرأه!".

ولكن سرديا كوف لم يرتح أيضًا إلى هذا الكتاب، وعلى ذلك أغلقت خزانة الكتب وبعد حين جاءت مارفا وزوجها جريجورى إلى فيدور بافلوفتش يشكوان من أن سمرديا كوف بدأ يعمد إلى البطر، فإنه قد يجلس إلى المائدة أمام طبق الحساء فينظر إلى معلقته مملوءة به مليًا ويفحصها في الضوء حتى ليظن من يراه أن بالحساء ذبابة أو صرصارًا، وأخيرًا يحتسيها بعد أن يطمئن، ولما سمع فيدور بافلوفتش بذلك قرر لتوه أن يجعل منه طاهيًا له، وبعثه إلى موسكو ليتعلم الطهى فقضى هناك بضع سنوات، ثم عاد وقد تبدل مظهره فقد بدا أكبر سنًا من حقيقته، وبانت تجاعيد في وجهه النحيل، غير أن طباعه لم تتحول، فمكث كما كان راغبًا عن الاختلاط بالناس، واتضح أنه كان كذلك أيضًا في موسكو، وأنه لم يكن كثير الاهتمام بمعالم تلك المدينة، وإنما ذهب مرة إلى المسرح فلم يرتح إليه، غير أنه عاد من موسكو حسن الهندام نظيف الثياب أنيق المظهر، وقد تعلم طهى الطعام حتى برع فيه.

وقرر فيدور بافلوفتش مرتبًا له، فكان ينفقه كله تقريبًا على ثيابه ومظهره، غير أنه ظل يحتقر النساء كما يكره الرجال، ومكث كتومًا قليل الكلام، وكانت نوبات الصرع قد بدأت تزداد، وكلما دهمته نوبة منها تولت مارفا طهى الطعام بدلا منه.

وقال له فيدور بافلوفتش يوما: "لماذا تكاثرت عليك نوبات الصرع

أخيرًا؟.. أتريد أن تتزوج؟"، لكنه سكت ولم يجب، فتركه فيدور بافلوفتش يائسًا منه، على أنه كان شديد الثقة بأمانته، فقد حدث يوما أن كان الأول مخمورًا فسقطت منه في فناء الدار ثلاث ورقات بنكنوت قيمة كل منها مائة روبل، ولم يدر بضياعها إلا صباح غد فأخذ يبحث عنها في جيوبه، ثم إذا به يراها فوق المائدة وقد وضعها سمردياكوف هناك بعد أن عثر عليها!، ولم يكن أحد يدري ما يفكر فيه سمردياكوف، فهو قد يقف بغتة في الطريق ويستمر كذلك بضع دقائق مستغرقا في التفكير، ولعل الذي يدرس ملامح وجهه يقول إنه لا يفكر في شيء مطلقًا.

على أن "الحمار" هذا قد تكلم فجأة بعد طول صمت وتأمل، فقد علم جريجورى من البقال لوكيانوف قصة جندي نشرتها الصحف وزعمت أنه أسر وأرغم على تغيير دينه فلما رفض عذب وقتل، وقص جريجورى هذه القصة على سيده بعد أن تناول الطعام، وكان يحلو لفيدور بافلوفتش أن يستمع إلى القصص والحكايات وهو يحتسى الخمر بعد الغداء فقال تعليقًا على تلك القصة: "ينبغي أن يجعلوا من ذلك الجندي شهيدًا ويحملوا جلده إلى الدير فإن ذلك جدير بأن يجذب الناس إليه فتكثر أمواله".

فعبس جريجورى، إذ سمع ذلك من سيده وأدرك سخريته، غير أن سمردياكوف ابتسم فلمحه فيدور بافلوفتش وسأله عما دعاه إلى الابتسام فأجاب قائلا:

– أرى أن هذا الجندي لو أذعن للإكراه وغير دينه لما أتى بذلك ذنبًا، لأنه يكون قد أنقذ حياته فيكفر عن خطيئته بالأعمال الصالحة في أيامه الباقية!

فقال له فيدور بافلوفتش: "كيف لا يكون قد أتى ذنبًا؟. إن قولك هذا هراء، وأنت جدير بأن تدخل من أجله جهنم حيث يشوي لحمك كما يشوي لحم الضأن على النار!".

وفي تلك اللحظة دخل أليوشا، واستطرد سمرديا كوف يقول: "أما عن الضأن فلا يشوى لحمه هكذا، ولن يكون في الدار الآخرة شيء من ذلك إذا اتبع العدل؟".

فنظر فيدور بافلوفتش إلى أليوشا ثم قال للخادم: "ماذا تعني بقولك إذا اتبع العدل؟"، وهنا انفجر جريجورى قائلا: "إنه وغد.. هذه حقيقته!"، فرد سمرديا كوف قائلا له: "مهلا يا جريجورى، فإني لو أسرت وأرغمت على تغيير ديني فإني لا أرى ضيرًا من ذلك، إنقاذًا لحياتي!".

فصاح به فيدور بافلوفتش: "لقد قلت ذلك قبلًا فلا تلق القول هباء بل برهن على ما تقول".

وقال له جريجورى بازدراء: "أنت يا صانع الحساء؟!".

ورد سمرديا كوف بهدوء قائلا: "أما كوني صانع حساء فانتظر قليلًا يا جريجورى ولا تشتمني، إني إذا أرغمت على ترك ديني فإني أصبح لتوي بلا دين فأخرج توًا من تبعية الكنيسة المقدسة كما لو كنت وثنيًا، أليس كذلك يا جريجورى؟".

فصاح فيدور بافلوفتش قائلا لولده إيفان: "إنه يقول ذلك ابتغاء رضائك عنه!".

وكان إيفان يصغي إلى الحديث الدائر من غير أن يقول شيئًا، ثم مال عليه أبوه وقال له همسًا: "إني أحبك كما أحب أليوشا، لا تظن أني لا أحبك... أتريد قدحا أخرى من الخمر؟"، فقال إيفان: "نعم، مع الشكر!"، وكان قد لحظ أن أباه لعبت برأسه الخمر فأخذ ينظر إلى سمرد ياكوف نظرة ثاقبة، ولما عاد جريجورى يشتم سمرد ياكوف قال له سيده: "كلا!. لا تشتمه!".

ثم استطرد سمرد ياكوف فقال: "في اللحظة التي أخرج فيها من تبعية الكنيسة المقدسة أكون قد خرجت عن المسيحية بمجرد الفكر قبل أن أقول شيئًا!، وإذا كنت قد طردت هكذا من رحمة الله فهل من العدل أن أسأل كما يسأل المسيحي عن إنكار المسيح؟، إن الذي لم يعد مسيحيًّا لا يمكن أن ينكر المسيح لأنه لم يعد لديه ما ينكره!".

وعندئذ قال فيدور بافلوفتش لولده أليوشا: "ما رأيك في هذا الذي يقوله؟، لابد أنه تلقى درسًا من الجزويت في مكان ما؟!"، واستمر سمرد ياكوف في سفسطته، وجريجورى، يرد عليه في غيظ وحنق، حتى أسكتهما أليوشا بمنطقه، وصرف فيدور بافلوفتش خادميه، ثم قال لايفان:

– إن سمرد ياكوف يتسكع دائمًا بعد الطعام منذ جئت أنت إلي الدار، ماذا فعلت حتى سلبته عقله؟.

فقال إيفان: "لا شيء مطلقًا! لقد حلا له أن تكون له فكرة طيبة عني، ولكنه ليس إلا خادما دنيء النفس، إن مثله يصلح مادة خامة للثورة!".

وتساءل أبوه في دهشة: "الثورة؟!"، فقال إيفان مستطردًا: "نعم، وسيكون هناك من هم خير من سمرديا كوف!".

فتساءل أبوه قائلا: "ومتى تحسب أنها تحدث؟".

فقال إيفان: "من يدرى؟ إن الفلاحين لا يصغون بعد إلى الطهاة أمثال سمرديا كوف"، فقال له أبوه: "ولكن حمار بلعام يفكر كثيرًا، والله يعلم أين يذهب به الفكر!".

ثم أخذ يعبر عن عقيدته وما يكنه من كفر وإلحاد، وكأنما لحظ أن أليوشا يتأذى مما يسمع منه، فقال له: "لعلى جرحت شعورك يا أليوشا.. أغاضب أنت منى؟".

فقال له أليوشا: "إني أعلم أن قلبك خير من لسانك!".

فالتفت أبوه إلى إيفان وقال له: "أسامع أنت ما يقوله؟، وهل أنت أيضًا تحب أليوشا؟"، وأجاب ايفان: "نعم أحبه يا أبى"، فقال أبوه وقد بدأ السكر يغلبه:"يجب أن تحبه... ولكن لابد أن تذهب إلى (تشرماشنيا) يومين أو ثلاثة... ليبيع الخشب!"، فقال إيفان: "سأذهب غدًا ما دمت مصرًا على ذهابي!".

ونظر إليه أبوه متفرسًا وهو يقول: "لماذا تنظر إلي هكذا؟، إنك تريد أن تراقبني ولا شك أيها الماكر العنيد، وما أظن أنك أتيت إلى هنا إلا لغرض خفي!، إنك تحتقرني ولكن أليوشا لا يحتقرني، اسمع يا ألكسي، لا ينبغي لك أن تحب ايفان هذا!".

فقال له أليوشا: "لا تكن سيء الظن بإيفان!".

فالتفت إلى ايفان قائلا: "حسنا!، لا تتكدر من شيخ ضعيف مثلي، إني أعرف أنك لا تحبني، وليس هناك سبب يغريك بأن تحبني، اذهب إلى تشر ماشنيا، وسآتي إليك بنفسي بهدية، سأريك فتاة حسناء هناك، وقد راقبتها منذ مدة، إنها تسير حافية، لا تخف من الحسان الحافيات الأقدام، إنهن جواهر!، الحقيقة أني لا أعد أية امرأة دميمة، بل لكل امرأة فتنتها، اصغ إلى يا أليوشا، أني لم أكن كثير الاهتمام بأمك، ولكن حين كانت تأتي اللحظة المناسبة كنت أبدى لها الحب وأزحف على ركبتي وأقبل قدميها وأغريها دائمًا بأن تضحك تلك الضحكة القصيرة، وكانت نوباتها تبدأ دائمًا هكذا، وفي اليوم التالي كانت تصرخ صرخات هستيرية، لقد كانت تعوض بها عن تك الضحكة القصيرة، والمهم هو أن تعرف كيف تؤثر في كل امرأة، وكان هناك شاب وسيم يحوم حولها ويدعى بيلافسكى، وقد لطمني يومًا أمامها وبدا منها وهي عادة كالحمل الوديع أنها تريد أن تقتلني من أجل تلك اللطمة وقالت لي بحنق: "لقد غلبك على أمرك، لقد لطمك، وكنت تحاول أن تبيعني له! وكيف جرؤ على أن يلطمك في حضوري، لا تحاول أن تقترب منى بعد الآن.. أبدًا... أبدًا... هيا اطلب مبارزته!".. وقد ذهبت بها إلى الدير ليعيدوا إليها ما ذهب من عقلها. ولكنى أقسم لك بالله يا أليوشا أني لم أهن تلك المرأة المجنونة قط!".

وكان أليوشا قد نفذ صبره بعد أن كظم إزاء كفر أبيه وإلحاده، وشعر بألم شديد لإساءة أبيه إلى ذكرى أمه، ثم اعتراه تشنج عنيف وأخذ يبكى وينتحب فصاح الشيخ السكير:

– إيفأن.. إيفان.. جئني بماء... لقد بدت عليه الأعراض التي كانت تعتريها... لا شك أنه تكدر من أجل أمه!.

فقال له إيفان بغض وازدراء: "لقد كانت أمي أيضًا!".

فقال له: "أمك؟ "أي أم تقصد؟... طبعًا كانت أمك أيضًا... لقد كنت أظن يا إيفان".. وبان عليه أنه لا يفقه شيئًا من السكر، وفي تلك اللحظة سمعت ضجة شديدة في الردهة، وفتح الباب بعنف، واندفع ديمتري إلى داخل الغرفة، فهرع الشيخ إلى إيفان يحتمي به ويصرخ قائلا: "إنه سيقتلني... إنه سيقتلني... يجب أن تحول بينه وبيني!".

وسارع جريجورى وسمرديا كوف إلى محاولة اللحاق بديمتري، وكانا قد حاولا منعه من دخول الغرفة، إذ كان أبوه قد أمرهما بذلك، لكنه دخل برغمهما ووقف لحظة يبحث فيها عن جروشنكا، فانتهز جريجورى هذه الفرصة وأغلق الباب المواجه المؤدى إلى الجناح الداخلي، ثم وقف أمام الباب باسطًا ذراعيه متأهبًا للدفاع، ولما رآه ديمتري صاح به قائلا: "إذن هي هنا!، إنها مختبئة في الداخل! أوسع الطريق أيها الوغد!".

وحاول أن يزحزح جريجورى عن المكان، ولكن الخادم الشيخ دفعه عنه، فضربه ديمتري بأقصى قوته، وسقط الخادم الشيخ على الأرض بينما قفز فوق جسمه نحو الباب. أما سمرديا كوف فقد وقف في مكانه شاحب الوجه يرتعد من الخوف، وقد التصق بفيدرو بافلوفتش، وصاح ديمتري قائلا:

– إنها هنا!. لقد رأيتها تحيد عن الطريق صوب هذه الدار، ولكن لم أستطع إدراكها. أين هي؟.

وشجعت هذه الصيحة أباه فقال: "أمسكوه!، أمسكوه!" ثم اندفع نحوه، وكان جريجورى قد قام من سقطته ولكنه وقف في مكانه ذاهلًا، وجرى إيفان وأليوشا وراء أبيهما، وسمع في الغرفة الداخلية صوت شيء يقع، وكان آنية زهر كبيرة أسقطها ديمتري في طريقه، وصاح الشيخ يقول:

– وراءه!.. النجدة!....النجدة!.

وأمسك ايفان وأليوشا أباهما وجعلا يعودان به بالقوة، وقال له إيفان: "لماذا تجرى وراءه؟ إنه يقتلك!".

فقال لهما أبوهما الشيخ: "ايفان!. أليوشا!.. لابد أنها هنا! لابد أن جروشنكا قد جاءت، لقد قال أنه رآها بنفسه وهي تجرى!".

وكان يختنق من التأثر، ولم يكن ينتظر مجيء جروشنكا في تلك الساعة، فلما سمع فجأة بمجيئها كاد يفقد عقله وتولته رعدة شديدة، فصاح به إيفان قائلا:

– إنها لم تأت.. وأنت نفسك تعلم هذا حق العلم!.

فقال له: "لعلها جاءت من المدخل الآخر!"

فقال ايفان: "كلا! أنت تعلم أن هذا المدخل موصد، ومفتاحه معك!".

وعاد ديمتري فجأة إلى غرفة الجلوس، وكان قد وجد ذلك المدخل مغلقًا، وكذلك كانت جميع نوافذ الغرفة مغلقة فلا يمكن أن تكون جروشنكا قد دخلت أو خرجت، وما كاد أبوه يلمحه حتى صاح: "أمسكوه!.. لقد كان يسرق مالي من غرفة النوم!".

واندفع نحو ديمتري، فمد هذا يديه وأمسك أباه من الشعر الباقي في رأسه ورماه على الأرض ثم ركله بكعب حذائه في وجهه مرتين أو ثلاثًا فأخذ الشيخ يتأوه، بينما سارع إيفان وأليوشا فأحاطا بأخيهما الأكبر وجذباه بعيدًا من أبيه، وصاح به إيفان: "ماذا فعلت يا دمتري؟، لقد قتلته أيها المجنون!".

فقال ديمتري وقد تقطعت أنفاسه: "هذا جزاؤه الحق!، وإذا لم أكن قد قتلته الآن فسآتي مرة أخرى لأقتله، ولن تقدروا أن تحموه مني!".

فصاح به أليوشا آمرًا: "متيا، اذهب من هنا فورًا!".

فقال له ديمتري: "إني لا أصدق أحدًا سواك يا ألكسي فأخبرني: أكانت جروشنكا هنا أم لا؟، لقد رأيتها بنفسي سائرة في هذه الجهة ولما ناديتها هنا!"، فقال له أليوشا: "أقسم لك إنها ليست هنا، ولم يكن أحد ينتظر قدومها".

فقال له: "لكن رأيتها!، إذن لابد أنها... ولكني سأعرف مكانها توًّا، وداعاً يا ألكسي، لا تقل شيئاً عن النقود الآن ولكن اذهب إلى كاترينا إيفانوفا بلا إبطاء، ولا تنس أن تبلغها أطيب تمنياتي... نعم تمنياتي... نعم تمنياتي ووداعي... ولا شيء غير ذلك!" .

ثم أضاف إلى ذلك قوله: "لا بأس بأن تذكر لها ما حدث هنا الآن!"

وفي خلال ذلك كان جريجوري وإيفان قد رفعا الشيخ من الأرض وأجلساه على مقعد، وكان وجهه مغطى بالدم، ولكنه كان في وعيه، وكان لا يزال يعتقد أن جروشنكا في مكان ما بالدار، وألقى عليه ديمترى نظرة بغض وقال وهو يخرج:

– إني لا آسف على سفك دمك!، حذار أيها الرجل العجوز من أحلامك، لأن لي أحلامي كذلك!، إني ألعنك وأتبرأ من أبوتك لي!".

وما كاد يخرج حتى قال الشيخ: "إنها هنا!. لابد أنها هنا!"، ثم أشار بأصبعه إلى سمرد ياكوف وناداه بينما صاح به إيفان: "كلا، إنها ليست هنا، أنت أيها الشيخ المخرف!، لقد أصابه إغماء! أسرع يا سمرد ياكوف جئني بماء".

فجري سمرد ياكوف ليحضر ماء، وأخيراً خلعوا ثياب الشيخ وأرقدوه في فراشه، ووضعوا فوطة مبلولة حول رأسه، وكانت قواه قد أنهكها السكر والتأثر والضرب الذي تلقاه من ولده الأكبر، وسرعان ما أغمض عينيه وراح في سبات عميق، فعاد ايفان وأليوشا إلى غرفة الجلوس، وعمد سمرديا كوف إلى إزالة قطع الآنية المكسورة على حين وقف جريجوري إلى جوار المائدة عابساً ينظر إلى الأرض، فقال له أليوشا: "ينبغي لك فراش أن تأوي إلى فراشك أنت أيضًا، وسنعني نحن بأبينا، لقد ضربك ديمتري ضربة شديدة على رأسك".

فقال جريجوري: "لقد أهانني!"، فقال لإيفان مواسياً: "لقد أهان أباه أيضاً "، فاستطرد جريجوري يقول: كنت أحمية وهو طفل والآن يهينني!"، وقال إيفان لأليوشا همسًا: "لولا أني جذبته لقتله!"، فقال له أليوشا: "لا قدر الله!"، وهنا نظر إليه إيفان مستنكراً وقال له: "إن أفعى تلتهم أفعى، وهذا عدل للاثنتين معاً!"، فارتا ع أكسي حين سمع ذلك، واستطرد إيفان يقول: "بالطبع لن أدع أبي يقتل كما لم أدعه يقتل الآن، امكث هنا يا أليوشا وسأخرج قليلا إلى فناء الدار فأني أشعر بصداع!".

وذهب أليوشا إلى سرير أبيه حيث جلس بجانبه زهاء ساعة، وبعدئذ فتح الشيخ عينيه بغتة ونظر إلى أليوشا ملياً وهو يتذكر ما حدث ببطء، ثم سأله بصوت ضعيف: "أين ايفان؟"، فأجاب أليوشا: "إنه في فنار الدار، لأنه يعاني الصداع!".

فأشار الشيخ إلى مرآة صغيرة معلقة على خزانة بالغرفة وقال له: "أعطني هذه المرآة" فناوله أليوشا المرآة، وأخذ الشيخ ينظر إلى وجهه فيها، متأملًا أنفه الذي ورم ورمًا شديدًا، والرض الظاهر بالجانب الأيسر من جبهته، ثم تساءل قائلا:" ماذا يقول إيفان عما حدث؟، اسمع يا عزيزي أليوشا، إني خائف من إيفان، بل إني أشدّ خوفًا منه من الآخر، إنك أنت الوحيد الذي لا أخشاه!"، فقال له: "لا تخش إيفان، إنه غاضب ولكنه يدافع عنك!".

فسأله أبوه: "أين ذهب الآخر يا أليوشا؟، "لقد جرى إلى جروشنكا". "خبرني يا عزيزي: أكانت هنا منذ قليل أم لم تكن؟!".

فقال مؤكداً: "لم يرها أحد قط!. لقد كان الأمر وهماً، ولم تكن هنا!".

فسأله أبوه: "أتعلم أن متيا يريد أن يتزوجها؟".

فأجاب: "ولكنها لن تتزوجه!"، فبدت الفرحة في وجه الشيخ وأخذ يقول: "نعم، إنها لن تتزوجه!، لن تتزوجه بأي حال!"، ثم أمسك بيد أليوشا ووضعها على قلبه بحنان وانحدرت الدموع من عينيه، ومضى يقول له:

- خذ صورة العذراء التي هنا في البيت فأني أهديها إليك، سأدعك ترجع إلى الدير كما تشاء، لقد كنت أمزح صباح اليوم إذا أكدت أنك لن تعود إليه، لا تكن غاضباً يا أليوشا، والآن أصدقني القول : أكانت

جروشنكا هنا أم لا؟، على أني أصدقك ولكني أطلب إليك أن تذهب إليها بنفسك بلا إبطاء وأن تسألها صراحة أتختارني أنا أم تختاره هو؟.

فقال له أليوشا مرتبكا: "سأسألها حين أراها!"

ولكن أباه عاد يقول: "كلا!، إنها لن تخبرك، إنها شريرة!، بل أحسبها ستغمرك بقبلاتها وتؤكد لك أنت أنها لا تختار سواك، إنها فاجرة مخادعة، لا ينبغي لك أن تذهب إليها مطلقاً! ".

فقال أليوشا: "حسناً يا أبي لن أذهب إليها!".

فقال الشيخ: "لكن سمعته يطلب منك أن تذهب إليها، أليس كذلك؟".

فقال أليوشا: "كلا!. بل طلب أن أذهب إلى كاترينا ايفانوفنا".

فسأله: "لكي تطلب له مالا منها؟".

فأجاب: "كلا، ليس من أجل المال! ".

فقال الشيخ في ارتياح: "حسناً!، إنه لا يملك مالً، لا يملك درهما من المال!، سأستريح هذه الليلة وأفكر في الأمور، وأنت يمكنك أن تذهب، وربما تقابلها، ولكن يجب أن تأتي أنت إلي صباح غد، فإن لدي كلمة أقولها لك، وعليك حين تأتي أن تدعي أنك جئت من تلقاء نفسك لكي تسأل عني، ولا تقل شيئا لإيفان، وداعا يا ملاكي لقد دافعت عني دفاعا لن أنساه، وعندي غدا!،كلمة أقولها لك، ولكن يجب أن أفكر أولا! ".

فسأله أليوشا: "كيف حالك الآن؟".

فأجاب: "سأقوم غداً معافي تماما! ".

ولما عبر أليوشا فناء الدار، وجد إيفان جالساً على دكه بجوار المدخل وكان يكتب شيئاً بقلم رصاص في مفكرة، فأخبره بأن أباه قد استيقظ من نومه وبأنه تركه يعود إلى الدير. فقال له ايفان بلهجة ودية: " يسرني أن ألقاء صباح غد يا أليوشا"، فقال له أليوشا: "سأكون عند مدام هولا كوف غداً، وقد أزور كاترينا ايفانوفنا أيضاً إذا لم أجدها الآن".

فقال له إيفان وهو يبتسم: "ستذهب إليها الآن على أي حال لإبلاغها تلك التمنيات الطيبة مع الوداع!، لقد فهمت أن ديمتري كلفك أن تبلغها ذلك عنه"، فلم يرد أليوشا على ذلك إذ كان مشغولا بشيء آخر وقال لإيفان: "ترى كيف تنتهي هذه الحالة المفزعة التي بين أبي وديمترى؟"، فأجاب ايفان: "لا يقدر أحد أن يتنبأ بما تنتهي إليه!، وقد تنتهي إلى لا شيء، إن تلك المرأة بلا شعور ولا ضمير، وعلى أي حال يجب أن نبقي أبانا الشيخ داخل البيت ولا ندع ديمتري يدخل؟"، فقال أليوشا: لا أحسب أن ديمتري أهل لأن يقتل أباه! "، فقال إيفان: "أيا كان الأمر فثق بأني أدافع عنه، والآن وداعا إلى غد! ".

هكذا الحب

غادر أليوشا بيت أبيه وهو أشد قلقا وهما، وجعل يسائل نفسه: كيف تنتهي الحال بين أبيه وأخيه الأكبر؟، لقد رأي أخاه الآخر– إيفان– يخطو خطوة نحوه وكان يتمنى ذلك من زمن بعيد، غير أنه الآن شعر بالخوف والريبة من تلك الخطوة، وكان قبل ساعات معدودات يخشى الارتباك من لقاء كاترينا إيفانوفنا، أما الآن فقد أصبح تواقا للقائها، غير أنه وجد أن إبلاغها رسالة ديمتري صار أصعب عليه، فقد يئس من الحصول على الثلاثة الآلاف من أبيه ففقد ديمتري أمام خطيبته كرامته إلى الأبد، وقد يدفعه هذا الشعور إلى التردي في الهوة إلى قرارها!.

وكانت الساعة السابعة مساء وقد بدأ الظلام يسدل أستاره حين دخل أليوشا البيت الفاخر الذي تسكنه كاترينا إيفانوفنا مع عمتيها، ولما دخل الردهة وذكر للخادمة اسمه، بدا له أن القوم ينتظرون قدومه، ولعل كاترينا رأته من النافذة وهو قادم، وقادته الخادمة إلى غرفة جلوس فسيحة، ولم تمض لحظة حتى جاءت كاترينا ومدت إليه يديها كلتيهما محيية وقالت له: " حمداً لله على مجيئك، لقد مكثت طول اليوم أدعو الله أن تجيء!".

وكان أليوشا قد بهره جمالها حين قدمه ديمتري إليها منذ ثلاثة أسابيع، ولم يجر بينه وبينها حديث إذ ذاك فقد أدركت أنه شديد الخجل ولذا لم تضايقه، لكنه مع ذلك لم يفته ما تمتاز به من جمال وكبرياء، وقد راعته خاصة عيناها النجلاوان البراقتان... أما الآن فقد بدا عليها كثير من الرقة والعطف في

مكان الكبرياء، وأدرك أليوشا لأول وهلة أنها مطلعة على خافية أمر الرجل الذي خطبها ولعلها تعرف كل شيء، ولحظ أول ما تكلمت أنها شديدة التأثر، وما لبثت قليلا حتى قالت له:

– لقد كنت تواقة للقائك لأني أقدر أن أعرف الحقيقة كلها منك أنت!.

فقال لها متلعثما: "لقد جئت... لقد بعثني إليك! ".

فقالت: "أهو الذي أرسلك؟، لقد توقعت ذلك!، والآن وقد عرفت كل شيء أقول لك لماذا أردت أن أراك، لعلي أعرف أكثر مما تعرفه أنت، ولا حاجة بك لأن تخبرني بشيء، وإنما أسألك عما أريد أن أعرفه منك، أريد أن تذكر لي آخر فكرة لك عنه بعد أن قابلته اليوم، وأرجو ألا تخفي على شيئا، إن هذا خير لي من أن أتلقى إيضاحًا منه شخصيًّا مادام لا يريد أن يأتي إليّ، أتدري الآن ماذا أريده منك؟، هيا اذكر لي كل كلمة من الرسالة التي حملك إياها إلي"، فقال لها أليوشا: "إنه كلفني أن أبلغك أحسن تمنياته... وأنه لن يأتي إليك! "، فتساءلت: "أحسن تمنياته؟، أهذا ما قاله بالضبط؟، لعله قال أو أراد أن يقول كلمة أخرى؟"، فقال أليوشا مؤكداً: "كلا!. بل كررها وطلب إلى أن أذكرها لك بالضبط! "، فصعد الدم إلى خديها وقالت: "ساعدني الآن يا ألكسي، لأني الآن في حاجة إلى عونك. سأقول لك ما اعتقده وعليك أن تقول لي إن كنت أخطأت أم كنت على صواب!، اصغ إلي، لو أنه أرسل إلي تمنياته عفواً من غير أن يؤكد لك رغبته في أن تكررها لي بالنص، لانتهى الأمر بيننا، أما وقد أكد لك رغبته هذه فلا بد إنه كان في حالة تأثر وقتي لا يملك معها أعصابه، لقد قرر أمراً يخشاه، فهو لا يهجرني

بقدم ثابتة بل يقفز ماضياً على غير هدى!، إن تأكيده تلك العبارة إنما يدل على إنه يتصنع الشجاعة!".

فقال أليوشا بحرارة: "أجل. أجل. إني أعتقد ذلك!"، فقالت: "إذا كان الأمر كذلك فإنه لم يضع بعد، ومازال في يدي أن أنقذه!، هل ذكر لك شيئا عن المال، بشأن ثلاثة آلاف روبل؟"، فقال لها: "لقد حدثني عن ذلك، وهذا الأمر يكاد يسحقه سحقاً، ولكن أتعلمين شيئاً عن ذلك المبلغ؟"، فقالت: "عرفت الحقيقة منذ أمد طويل فقد أرسلت برقية إلى موسكو لأسأل عن ذلك المبلغ، فعلمت أنه لم يرسله ولكني لم أقل له شيئاً، وفي الأسبوع الماضي علمت أنه محتاج إلى نقود، وكان كل غرضي أن يعرف إلى من ينبغي له أن يتجه إذا أحتاج، ليدرك من هي صديقته في المحن، ولكنه لم يرد أن يدرك أني أخلص الناس له، وإنما ينظر إلى نظرته إلى امرأة فحسب، وقد آلمني أن يعذبه ضميره لا لشيء سوى أنه أنفق تلك الآلاف الثلاثة، لا ضير أن يخجل من نفسه أو يخجل من الناس، ولكن لا يصح أن يخجل مني أنا!، بالله كيف لا يدرك إلى أي مدى يمكنني أن أتحمل من أجله؟، وكيف لا يعرفني حق المعرفة بعد كل ما حدث؟، إني أريد أن أنقذه إلى الأبد، دعه ينسى أني خطيبته، فإنه يتأذى إذ يحسب نفسه قد فقد كرامته أمامي، ولماذا لم يخش أن يفتح قلبه لك يا ألكسي؟، لماذا لا يعاملني بالمثل؟"، وغلبها البكاء وهي تقول ذلك!، فقال لها ألكسي بصوت مرتعش: "يجب على أن أطلعك على ما حدث منذ لحظة بينه وبين أبي! "، ثم وصف لها ما حدث بالتفصيل، ومضى فقال: "وبعد ذلك ذهب إلى تلك المرأة! ".

فردت كاترينا إيفانوفنا قائلة: "أتحسبني لا أصلح نداً لتلك المرأة؟، وهل

هو يظنني كذلك؟، على أنه لن يتزوجها، فإن مثل هذه العاطفة التي يبديها نحوها لا تستمر طويلا لدى أحد من آل كارامازوف، إنه لن يتزوجها لسبب بسيط هو إنها لن ترضى أن تتزوجه!"، وضحكت ضحكة عصبية وهي تقول ذلك، فرد أليوشا قائلا بلهجة حزن: "لا يبعد أن يتزوجها!".

فقالت له: "أؤكد لك أنه لن يتزوجها!، إن تلك الفتاة ليست شيطانة كما يتوهم الكثيرون، بل هي من الملائكة!، إنها من أعجب الناس أطواراً، وأنا أعرف أنها فاتنة ساحرة، ولكني أعرف أيضاً أنها نبيلة ذات عزم وإرادة!، لماذا تنظر إلى هكذا يا ألكسي؟ لعلك تستغرب ما أقوله عنها، أو لعلك لا تصدقني؟!"، ثم صاحت فجأة: "يا أجرافينا... تعالي هنا... هذا صديق... إنه أليوشا وهو يعرف كل شيء عن مسائلنا! ".

وسرعان ما وصل إلى سمع أليوشا صوت نسائي رقيق يقول من خلف ستارة: "لقد كنت أنتظر خلف الستارة حتى تناديني!"، وظهرت جروشنكا مبتسمة الثغر مشرقة الوجه، فشعر أليوشا بالاشمئزاز أول الأمر، وبقى لا يجيد ببصره عنها ويحدث نفسه: هذه هي المرأة المخيفة أو (الوحش) كما وصفها إيفان منذ ساعة!، لكنها مع ذلك تبدو امرأة جميلة فاتنة في الثانية والعشرين من عمرها، بادية البساطة والوداعة، وهي أميل إلى الطول، وإن تكن أقصر قليلا من كاترينا، كما أنها ممتلئة الجسم خفيفة الحركة حتى إن قدميها لا تحدثان أي صوت على الأرض!، وكانت بشرتها ناصعة البياض وعلى خديها حمرة فاتنة، وقد ارتدت شالا يكشف عن كتفين بضتين وصدر ممتلئ.

ودعتها كاترينا إلى الجلوس في مواجهة أليوشا وقالت له: "هذه أول مرة نتقابل فيها، أنا وهي يا ألكسي، فقد اشتقت لأن أراها وأعرفها عن كثب، وأردت أن أذهب إليها، ولكنها لم تكد تعلم ذلك حتى جاءت إليّ، وقد أدركت منذ البداية أن في استطاعتنا تسوية كل شيء فيما بيننا، والواقع أن قلبي كان يحدثني بذلك، وقد أوضحت لي جروشنكا كل شيء، وأخبرتني بما تعتزم عمله، وجاءت إلي كملك للنبل يحمل الأمن والسرور".

وقالت جروشنكا في صوت به رنة غناء: "إنك لم تتكبري علي أيتها السيدة الصغيرة الرائعة!".

فقالت كاترينا: "لا تخاطبيني بهذه اللهجة أيتها الساحرة!، أنا أتكبر عليك؟، لا بد لي إذن أن أقبل ثغرك الجميل مرة أخرى، أنظر يا ألكسي كيف تضحك!، حقا إن الإنسان لينشرح صدره إذ يرى ملاكًا أمامه!".

فقالت جروشنكا: "إنك تقدرينني فوق قدري يا أيتها السيدة الصغيرة الفاتنة!، إني لا أستحق منك ذلك كله!".

فقالت لها كاترينا إيفانوفنا في حماسة: "بل أنت تستحقين أكثر من ذلك!."، ثم قالت لألكسي: "إننا نحن النساء هوائيات عنيدات، غير أن لنا كبرياءنا قبل كل شيء!، دعني أقل لك إننا نبيلات، متسامحات يا ألكسي! وكل ما هنالك أننا نحن الاثنتين قد شقينا زماناً، وكنا على أهبة لكل تضحية نبذلها لرجل متقلب غير جدير بحبنا!، لقد كان هناك رجل، ضابط بالجيش، أحببناه وضحينا كل شيء من أجله، وكان ذلك منذ خمس سنوات، ثم نسينا هذا الرجل وتزوج، ولما ماتت زوجته أخيراً كتب يقول إنه قدم إلى هنا، أتعلم

يا ألكسي أننا طول الوقت لم نحب سواه؟، إنه قادم وعندئذ تعود جروشنكا إلى سعادتها وهنائها، لقد مكثت طول السنوات الخمس الأخيرة في شقاء مقيم، ولكن من الذي يلومها؟، ومن يستطيع أن يدعي حظوة لديها؟، لا أحد سوى ذلك التاجر الشيخ المريض، ولكنه أدنى إلى أن يكون أباها أو صديقها أو حاميها، وقد وجدها في حال من اليأس والعذاب، إذ هجرها الرجل الذي أحبته، وكانت تود لو ترمي نفسها في البحر، ولكن ذلك التاجر الشيخ أنقذ حياتها!".

وهنا قالت جروشنكا: "إنك تدافعين عني في عطف وحنان أيتها السيدة الشابة العزيزة!".

فقالت كاترينا: "أنا أدافع عنك؟، وهل أجرؤ على ذلك؟، مدي إلي يدك يا جروشنكا، أنظر يا ألكسي إلى هذه اليد الصغيرة الناعمة البضة!، أنظر إليها!، لقد جاءت إلي بالسعادة ورفعتني من هوة، ولهذا أقبلها ظهراً وبطناً!"، وقبلت يد جروشنكا ثلاث مرات، وقد بسطتها هذه لها وهي تضحك ضحكة موسيقية قصيرة، واحمر وجه أليوشا حيال هذا المنظر وقال يحدث نفسه: "هذه حماسة فائضة"، وقالت جروشنكا: "إنك تخجلينني إذ تقبلين يدي هكذا أمام ألكسي فيدروروفتش!".

فقالت كاترينا إيفانوفنا في شيء من الارتباك: "أتظنين أني أردت أن أخجلك؟، ما أقل ما تفهميني!".

فقالت لها: "أنت أيضاً تسيئين فهمي يا أيتها السيدة الصغيرة العزيزة، فلعلي لست من طيبة القلب كما تظنين، وإن لي لناحية شر، ولقد خلبت

لب ديمتري المسكين لا لشيء سوى التسلية والمزاح!".

فقالت كاترينا: "كنك الآن ستنقذينه، انجازاً لما وعدتني به!، ستوضحين له كل شيء، وستصارحينه بأنك تحبين رجلا آخر منذ وقت طويل، وأن هذا الرجل الآخر ليطلب يدك!".

فقالت جروشنكا: "إني لم أعدك بذلك، ولكنها رغبتك التي أصررت طول الوقت على ترديدها، أما أنا فلم أعدك بشيء!".

وبدا القلق في وجه كاترينا وقالت: "إذن... لم أفهمك حق الفهم... لقد وعدتني...".

فقالت جروشنكا: "أيتها السيدة الطيبة!، إني لم أعدك بشيء، إني تاعسة عنيدة إذا قورنت بك، إني إذا أردت أن أفعل شيئاً فإني أفعله، ربما وعدتك بشيء ما منذ برهة، ولكني أعاود التفكير الآن، فربما يتعلق قلبي بديمتري من جديد، لقد أحببته ذات مرة، مدة ساعة كاملة، والآن ربما أذهب لأقول له أن يمكث معي دائماً، أرأيت إلى أي حد أنا متقلبة الهوى؟".

فقالت كاترينا بضعف: "لكنك منذ لحظة كنت تقولين غير ذلك؟!".

فقالت لها كاترينا: "إني لم أنتظر قط....". وقبل أن تتم عبارتها استأنفت جروشنكا كلامها فقالت لها:

- ما طيب قلبك يا أيتها السيدة الصغيرة، وما أكرم عطفك علي، لكن لعلك الآن لا تهتمين بمخلوقة حمقاء مثلي بعد أن عرفت خلقي، مدى إلي يدك الحلوة الصغيرة أيتها السيدة الطيبة!، وتناولت يد كاترينا بشيء

من التبجيل وقالت: "أريد أن أقبل يدك، لقد قبلت أنت يدي ثلاث مرات، ولكني أريد أن أقبل يدك ثلاثمائة مرة حتى أوفي بديني نحوك!، ولعلي أصبح أسيرة رقيقة لك ما حييت، ولكن لتكن مشيئة الله من غير اتفاقات منا ووعود!، ما أجمل يدك يا أيتها الحسناء الفاتنة! "، ورفعت يد كاترينا ببطء نحو شفتيها ولكنها أبقتها كذلك دقيقتين أو ثلاثاً بالقرب من ثغرها كمن غير أن تقبلها ثم قالت بغتة: "أحسبني لا أريد تقبيل! ".

فقالت لها كاترينا: "كما تشائين!.. ولكن ماذا جرى؟".

فنظرت جروشنكا إليها نظرة تدل على كثير من العداء والتحدي، وأدركت كاترينا ما وراء هذه النظرة فقالت لها: "يا لك من مخلوقة وقحة! "، فأجابتها جروشنكا: "وهكذا سأقول لديمتري إنك قبلت يدي، ولكني لم أقبل يدك. لا شك أنه سيضحك كثيراً! ".

فقالت لها كاترينا: "يا لك من امرأة شيطانة!.. اغربي عن وجهي!".

فردت جروشنكا قائلة: "يا للعار أيتها السيدة الصغيرة!، لا يليق بك أن تقولي مثل هذه الألفاظ!".

وكانت كاترينا قد تملكها الحنق حتى انقلبت سحنتها. فقالت لها: "اذهبي من هنا، إنك مخلوقة تبيع نفسها! ".

فردت قائلة: "نعم أنا أبيع نفسي!، أما أنت فكنت تزورين الناس في غسق الليل من أجل المال!، كنت تعرضين جمالك للبيع!، أرأيت أني أعرف سرك؟!".

فصرخت كاترينا من الغيظ، وهجمت عليها تريد أن تضربها لولا أن حال أليوشا بينهما وقال لها: "لا تقولي شيئاً!، لا تردي عليها، ستذهب من هنا تواً!".

وفي تلك اللحظة دخلت عمتا كاترينا وخادمتها، فتناولت جروشنكا معطفها من فوق الأريكة، وقالت: "إني ذاهبة!، وأنا أنتظر زيارتك لي يا أليوشا"، فقال لها أليوشا: "أرجو أن تخرجي تواً"، فقالت له: "حسناً يا عزيزي أليوشا الصغير!، تعال إلي في بيتي، إن عندي قصة أريد أن أقصها عليك، وقد دبرت هذا المنظر لأجل خاطرك، زرني وسيسرك ذلك في المستقبل!".

وتملكت كاترينا نوبة هستيرية فجعلت تنتحب وجسمها يرتعد، بينما أحاط بها من بالغرفة، وقالت لها إحدى عمتيها: "لقد حذرتك وأردت أن أحول دون لقائك إياها، ولكنك شديدة الاندفاع، إنك لا تعرفين أمثال هذه المرأة، إنها أسوأ المخلوقات اللاتي من صنفها!".

فقالت كاترينا: "إنها لبؤة مفترسة!، لماذا حلت بيني وبين ضربها يا ألكسي؟ لقد أردت أن أضربها بأقصى قوتي، ينبغي أن تجلد بالسوط في ميدان عام!"، ومشى أليوشا نحو الباب الخروج، وتذكرت كاترينا بغتة فقالت: "يا للعار!، كيف رضي هو أن يكون قليل الشرف إلى هذا الحد؟، لماذا أخبرها بما حدث في ذلك اليوم الكريه؟، لقد قالت لي إني عرضت جمالي يوماً للبيع!، ألم تسمع؟ أن أخاك وغد يا ألكسي فيدروفتش! ولم يجد ألكسي ما يقوله فقالت له: "أذهب الآن يا ألكسي!، إن الأمر فظيع لا يطاق! ولكن تعال غداً، أتوسل إليك، لا تحكم علي، بل اصفح عني، إني لا أدري ماذا أفعل بنفسي الآن!".

وخرج أليوشا وهو يغالب دمعه، ولم يكد يمشي خطوات في الطريق حتى أدركته الخادمة وأعطته خطاباً وقالت له: "إنه من مدام هولا كوف وقد أرسلته لك عندنا وقت الظهر!".

كان الدير لا يبعد عن البلدة سوى ثلاثة أرباع الميل، وقد مضى أليوشا مسرعاً في الطريق وكانت مهجورة في تلك الساعة وقد عم الظلام، وعند مفترق الطرق ظهر أمامه شبح وقال له: "نقودك أو حياتك!".

ففزع ولكنه تبين لتوه صوت أخيه ديمتري فقال له: "أهذا أنت يا متيا؟"، فضحك ديمتري وقال له: "إنك لم تكن تتوقع لقائي؟ لكني رأيت أن أنتظرك في طريقك إلى الدير، والآن هيا صارحني بالحقيقة كلها، ولا تخش أن تسحقني بها، ولكن ماذا بك؟، إنك ترتعد؟".

فقال له أليوشا: "هذا أثر الخزف من مفاجأتك لي هكذا!، إنك كدت تقتل أبانا منذ ساعة، والآن تفاجئني هكذا وكأنك قاطع طريق! ".

فقال له ديمتري: "لقد تلبدت السماء بالغيوم وهبت الريح عاصفة، فاختبأت هنا تحت الصفصاف أرتقب مرورك، وخطر لي فجأة أن أفر مما أنا فيه، فها هنا شجرة ومعي منديل وعلى قميص، فماذا لو شنقت نفسي وارتحت من الحياة وآلامها؟، ولماذا أبقى على ظهر الأرض أدنسها بوجودي؟، ثم سمعت خطاك وأنت قادم، فولى عني اليأس بغتة، فها هو ذا شخص أحبه، أخي الصغير العزيز، الوحيد الذي أحبه في العالم، وفاض بي الحب حتى وددت لو أعانقك، ثم خطرت لي تلك الخاطرة الحمقاء، ومثبت معك دور قاطع الطريق، اغفر لي حماقتي، ولكن خبرني ماذا حدث؟، ماذا

قالت لك؟ اضربني، اسحقني ولكن لا تكتم عني الحقيقة، هل ثارت ثائرتها حين بلغتها رسالتي؟!".

فقال أليوشا: "كلا!، لم يحدث شيء من ذلك يا متيا، لقد وجدتهما معا!".

- وجدتهما...من هما؟

- جروشنكا وكاترينا إيفانوفنا!

فدهش ديمتري حتى عقدت الدهشة لسانه، وجعل أليوشا يصف له كل ما حدث بين الاثنتين أمامه، وكان ديمتري يصغي إليه حتى إذا انتهى أليوشا قال: "إذن لم ترض جروشنكا أن تقبل يد كاترينا؟ وهذه قالت عنها إنها لبؤة مفترسة!، حقا إنها كذلك، أجل إنها تستحق أن تجلد بالسوط في ميدان عام، إنها ملكة الوقاحة، لعلك عرفت الآن حقيقتها من حكاية تقبيل اليد هذه! إنها شيطانة لا مثيل لها في الشر!، أقلت أنها ذهبت إلى بيتها؟، إذن سأذهب إليها تواً، لا تلمني يا أليوشا!، إن الشنق قليل بالنسبة لما تستحقه من جزاء!".

- وكاترينا إيفانوفنا!.

- إني أفهمها الآن كما لم أفهمها قط من قبل، إنها هي نفسها كاتيا التي لم تخش لقاء ضابط خشن الطباع، وقد واجهت مهانة لا تمحي، مدفوعة بعامل كريم هو إنقاذ أبيها من مأزقه!.. إنها هكذا دائما جسورة متحدية للقدر، وتقول إن عمتها أرادت أن تحول بينها وبين ما فعلته؟، أن تلك العمة كانت متغطرسة مثلها وهي أخت أرملة الجنرال التي في موسكو،

وقد اتهم زوجها باختلاس أموال حكومية وصودرت أملاكه، ومنذ ذلك تركت زوجته جانب الكبر ولم ترفع رأسها بعد ذلك، لقد أرادت منع كاتيا ولكن هذه لم تصغ لها، إن كاتيا تحسب أنها قادرة أن تتغلب على كل شيء، ولعلها ظنت إنها تستطيع أن تخلب لب جروشنكا إذا شاءت، ولكن أتراها قبلت يده لغرض ما؟ كلا إن جروشنكا هي التي سحرتها، كلا بل سحرها أملها الذي خدعت به نفسها، اسمع يا عزيزي أليوشا: كيف استطعت الفكاك من هاتين المرأتين!، هل التقطت قلنسوتك وجريت؟!".

ثم عادت إلى الضحك، فقال له أليوشا: "إنك لا تقدر مدى إهانتك لكاترينا إيفانوفنا إذ أفشيت لجروشنكا سر ما حدث في ذلك اليوم!، لقد جابهتها به وعيرتها بأنها ذهبت يوماً في غسق الليل إلى رجل لتبيعه جمالها!، هل هناك إساءة شر من ذلك؟".

وقد غاظ أليوشا ما يبدو على أخيه من سرور لتحقير كاترينا، فتجهم وجه ديمتري عند ذلك السؤال وتذكر قول كاترينا لأليوشا: "إن أخاك وغد"، وقال:

- أجل لعلي أخبرت جروشنكا فعلا بذلك اليوم الرهيب كما تصفه كاتيا!، أجل لقد حدثتها عنه، إني أتذكر ذلك الآن، كان ذلك في موكرو وكنت سكران، وكانت الغجريات يغنين، ولكني كنت أبكي وأنتحب وأنا راكع أمام صورة كاتيا، وأدركت جروشنكا الموقف وأذكر إنها بكت أيضاً، لقد بكت وقتئذ ولكنها الآن تطعن كاتيا بخنجر في قلبها!، هكذا النساء!".

وسكت مستغرقاً في الفكر ثم قال: "أجل إني وغد!، وسواء أبكيت

وقتئذ أم لم أبك فإني وغد، قل لها إني أقبل لنفسي هذا الوصف إذا كان في ذلك راحة لها، والآن كفى، مع السلامة، فلا فائدة من الكلام، اذهب في طريقك وسأذهب أنا في طريقي، ولا أريد أن أراك ألا لتكون ملاذي الأخير... وداعاً يا ألكسي!".

وصافحه بحرارة وهو لا يزال ينظر إلى الأرض ولا يرفع رأسه، ثم مضى مسرعاً نحو البلدة، ونظر ألكسي وراءه وهو في دهشة من تركه هكذا بغتة.

غير أن ديمتري انثنى راجعاً إليه وقال له: "انتظر يا ألكسي، هناك اعتراف آخر أدلي به إليك وحدك، انظر إلى جيداً، ها هنا عار شنيع مخبأ لي! ".

وضرب بيده على صدره وكأن العار جاثم فوقه أو معلق برقبته، ثم قال: "إنك تعرف الآن أني وغد، ولكني لم أرتكب قط إثماً يوازي العار الكامن الآن فوق صدري، مع أن باستطاعتي أن أخلص منه، أجل يمكنني أن أخلص من هذا العار أو أبقى حاملا إياه كما يحلو لي، ولكني لم أصارحك القول بأني سأبقى أحمله، لقد اعترفت لك منذ برهة بكل شيء، ولكن لم أجد في نفسي الجرأة للاعتراف بهذا الأمر، إني مازلت أستطيع إنقاذ نفسي، وفي إمكاني أن أستعيد غداً نصف شرفي الضائع، ولكني لن أفعل بل سأوغل في طريق الدناءة وأنت شاهد على ذلك! لا حاجة بي لأن أوضح الأمر لك، وستعرفه في الوقت المناسب، وداعاً، لا تصل من أجلي لأني لا أستحق ذلك، وأياً كان الأمر فلست في حاجة إلى صلاتك من أجلي! ".

ثم انطلق مرة أخرى، ومضى أليوشا في طريقه إلى الدير وفي نيته أن يبحث عن أخيه غداً فقد اشتد قلقه عليه بعد ما سمعه منه!.

وفتح له باب الدير مع أنه لا يدخله عادة أحد في مثل تلك الساعة، وجعل يسائل نفسه لماذا خرج إلى العالم المضطرب، بينما هذا الدير يحوي الهدوء والسكينة!...

ودخل غرفة الأب زوسيما وكان فيها بعض الرهبان، غير أن الأب زوسيما كان قد اشتد به المرض فلم يلق عليهم وعظه المعتاد، وأيقن أليوشا أن أستاذه هذا يحتضر، فشعر بحزن عميق، واعتزم أن يبقى معه غدا، ويخلف وعده لأبيه ومدام هولاكوف وكاترينا إيفانوفنا، وركع برهة بجانب سرير الأب زوسيما وكان هذا مستغرقا في سباته، ثم أوى إلى الغرفة المجاورة التي كان الأب يستقبل فيها زائريه صباحًا، فنام هناك على أريكة جامدة، واستيقظ قبيل الفجر وكان الأب زوسيما قد صحا قبله بادي الضعف والوهن، فقال لأليوشا في عطف وحنان: "وقد لا أعيش يوما آخر...". ثم بدأ الرهبان يتوافدون فأجلس الأب في كرسيهم ذي الذراعين وقال لهم بصوت ضعيف: "لقد مكثت أعلمكم سنوات عديدة وأتكلم بصوت مرتفع حتى صار من عادتي كثرة الكلام وصار أصعب عليّ أن أسكت من أن أتكلم، وهذا برغم ما بي من ضعف وإعياء"، ثم قال: "أحبوا بعضكم البعض، وأحبوا خلق الله، إننا وقد جئنا ها هنا إلى الدير وحبسنا أنفسنا بين جدرانه، لا يجدر بنا أن نحسب أننا أقرب إلى الله ممن في خارجه، بل إن مجرد دخول كل منا في الدير هو اعتراف منه بأنه شر من الناس جميعاً، فإذا أدرك كل منا إنه ليس شراً من الناس فحسب بل إنه كذلك مسئول عن خطايا الناس جميعاً، فعندئذ فقط يكون قد حقق الغاية من عزلته في الدير، إن معرفة ذلك هي تاج الحياة للراهب ولكل إنسان، لأن الرهبان ليسوا صنفاً خاصاً من البشر بل إنهم

يمثلون ما يجب أن يكون عليه الناس من إنكار الذات!".

ومضى الأب زوسيما في وعظه وصوته يزداد ضعفاً، وكان كثيرا ما يتوقف عن الكلام، وكان الجميع يصغون إليه في تأثر، وكأن على رؤوسهم الطير، وقد أدركوا أن ها الدرس هو درس الوداع!

وجاء راكتين فسلم أليوشا خطابا من مدام هولاكوف تقص عليه فيه قصة عجيبة عن الراهب المحتضر، فقد كان بين زائريه أمس امرأة تدعى (بروهو روفنا) هي أرملة جاويش بالجيش وكانت قد سألت الأب زوسيما: هل ينبغي لها أن تصلي على روح ولدها (فاسيا) الذي سافر إلى إير كوتسك ومكثت لا تتلقى منه نبأ منذ عام، فأجابها الأب زوسيما بأنها لا ينبغي لها أن تصلي على روح شخص حي، وأن ولدها (فاسيا) حي بلا ريب وأنه إما أن يأتي إليها قريبا وإما أن يرسل إليها خطابا، ولم تكد المرأة تعود إلى بيتها حتى وجدت خطابا من ابنها في سيبريا وفيه يقول إنه لا تمضي ثلاثة أسابيع حتى يكون قد عاد إليها!.

وقد طلبت مدام هولا كوف إلى أليوشا في خطابها أن يقص نبأ "هذه المعجزة" على رئيس الدير وجميع الرهبان، على أن أليوشا لم يحتج إلى إذاعة النبأ لأن (راكتين) كان قد أذاعه فعلا بين الجميع!، ولما آوى الأب زوسيما إلى فراشه بعث في طلب أليوشا وما كاد يراه حتى قال له:

- إن قومك ينتظرونك يا أليوشا!، أليسوا في حاجة إليك؟، ألم تعد أحداً أمس بأن تلقاه اليوم؟".

فقال أليوشا: "لقد وعدت أخويّ، وآخرين".

فقال له الأب زوسيما: "إذن، يجب أن تذهب إليهم، يجب أن تفي بوعدك، يجب أن تعود إلى العالم!.

ذهب أليوشا إلى أبيه، وتذكر في طريقه أن أباه قد طلب إليه أمس أن يأتي إليه وحده، فجعل يسائل نفسه عن السر في ذلك، وفتحت له مارفا باب الحديقة إذ كان جريجوري ملازما الفراش، وقد علم منها أن أخاه إيفان خرج منذ ساعتين وأن أباه جالس في غرفة الجلوس يتناول القهوة وحده، وقد وجده يتسلى بمراجعة حساباته، وكان وحده بالدار إذ خرج سمردياه كوف أيضاً ليشتري لوازم البيت، وكان فيدوربافلوفتش بادي التعب، وقد ظهرت رضوض زرقاء على جبينه، وورم أنفه وبان الكمد على ملامحه، ولما رأى أليوشا قال: "لماذا جئت؟".

فأجاب: "لكي أطمئن على صحتك!"، فقال له: "أنا أيضاً طلبت منك أمس أن تأتي، كيف حال الأب زوسيما؟".

- في شر حال، وقد يوافيه أجله اليوم!

- لقد خرج إيفان، إنه يبذل قصارى جهده لي يقتنص خطيبه ديمتري، هذا هو الذي يغريه بالمكث هنا!

- ما أحسبه قال لك ذلك؟

- لقد قال لي ذلك منذ ثلاثة أسابيع!، أم تحسب أنه جاء أيضاً لكي يقتلني؟، أتظن ذلك؟، لقد كان له غرض يحدوه إلى المجيء هنا!

- لماذا تقول ذلك؟

- صحيح إنه لا يطلب مني مالًا، ولكنه لن يحصل على درهم مني، فقد نويت أن أعيش أطول عيشة، ويجب أن تعلم ذلك أنت أيضاً يا عزيزي ألكسي، ولذا أحتاج إلى كل درهم من مالي!

وأخذ يمشي من ركن بالغرفة إلى آخر ويداه في جيبي ردائه الأصفر، ثم قال: "إني أبدو كأني لا أزال في الخامسة والخمسين من عمري، وقد أظل أبدو كذلك عشرين سنة أخرى، على أني كلما كبرت صارت النساء لا يأتين إليّ من أجل جمالي، ولذا سأحتاج إلى مال كثي، وهذا الذي يدعوني إلى الادخار لأجل نفسي فقط ألكسي، وينبغي لك أن تعرف أني معتزم المضي في خطاياي إلى النهاية، ذلك لأن الخطيئة لذيذة!، إن الناس جميعًا ينكرونها ولكنهم يعيشون فيها، غير أنهم يأتونها خفية أما أنا ففي العلن؛ ولذا يعادونني جميعاً لسذاجتي، إن جنتك يا عزيزي ألكسي لا تلائمني، فهي ليست بالمكان اللائق لمثلي هذا إذا وجدت حقاً، على أني أعتقد أني حين أموت سأنام ثم لا أصحو أبداً، وهذا كل ما في الأمر، ويمكنك عندئذ أن تصلي على روحي إذا شئت، وإذا لم تشأ فلا تصل، هذه هي فلسفتي في الحياة، لقد أحسن إيفان الحديث أمس مع أننا كنا سكرانين، إنه شديد الغرور بنفسه ولكنه لم يدرس علماً معيناً، ولم ينل التربية اللائقة، وإنما يجلس صامتاً ويبتسم من غير أن يقول شيئاً وهكذا يستر نفسه!".

وكان أليوشا يصغي صامتاً، ثم استطرد الشيخ يقول: "لماذا لا يريد أن يكلمني في صراحة؟، إنه حين يتكلم يعمد إلى الإدعاء، إن ايفان وغد، وأنا سأتزوج جروشنكا في دقيقة واحدة إذا أردت، لأنك يا ألكسي إذا كنت تملك مالا فما عليك إلا أن تريد الشيء فيكون لك، وهذا ما يخشاه إيفان،

فهو يرقبني ليحول دون زواجي!، ولهذا السبب نفسه تراه يغري متيا بأن يتزوج جروشنكا، وبهذا يحول بيني وبينها، وفضلا عن ذلك إذا تزوجها متيا فإن إيفان عندئذ يقدر أن يتزوج خطيبة متيا الغنية! إن إيفان وغد!".

- لا شك أنك غاضب من أثر ما حدث أمس، يحسن بك أن ترقد وتستريح!

- كأنك تقول إن هذا الشيخ قد أدرك الأمور وكأن خاطراً خطر لي فجأة!، على إني لست غاضباً عليك من أجل ذلك، ولو أن إيفان قاله لتكدرت منه، إني لا أرتاح إلا إليك وحدك، وإلا فإني سيء الطبع!.

- كلا، كل ما هنالك أنك متأثر!

- لقد فكرت صباح اليوم في أن أسعى في سجن ذلك المجرم (متياً)، ولا يبعد أن أعمد إلى ذلك، ومهما صار الآباء والأمهات مكروهين في العصر الحاضر فإن القانون لا يبيح للابن أن يجذب أباه من شعره ويطرحه أرضاً ويركل وجهه بقدمه ويتحدث في كل مكان عن رغبته في قتله!، ولو شئت لسحقته سحقا!

- إذن أنت لا تنوي اتخاذ تدابير قانونية ضده!

- لقد أغراني إيفان بألا أفعل، وما كان لي أن أصغي إلى إيفان لولا أن هناك باعثاً آخر!

وهنا مال على أذن أليوشا وقال له همساً: "لو أني زججت بالمجرم في السجن فإن جروشنكا ستعلم بذلك وتهرع إلى زيارته، ولكن إذا علمت أنه

ضرب أباه الشيخ الضيف حتى كاد يقتله فقد تهجره وتأتي إليّ، فإن هذه طبيعتها، كل ما فيها تناقض، إني أعرفها حق المعرفة!".

وصبّ لنفسه كأساً من نبيذ وهو يقول: "إن كأساً أخرى لن تقضي علي!"، فابتسم أليوشا وقال له: "لقد تحسن مزاجك الآن!".

- إني أحبك حتى دون أن أشرب خمراً!، ولكني وغد حيال الأوغاد، إن إيفان لا يريد أن يذهب إلى تشرما شيئا، لماذا؟، لكي يتجسس على ويعرف كم من المال أعطى جروشنكا إذا جاءت إلي، إنهم جميعاً أوغاد! ولكني لا أعرف حقيقة إيفان! إني لا أعرفه مطلقاً، من أين جاء؟!. آه ليس واحدا منا!، ولن ينال من مالي درهما، وقد عزمت ألا أكتب وصية، وجدير بك أن تعرف ذلك، وسأسحق متيا كما تسحق الحشرة، إنك تحبه وأنا لا أبالي حبك إياه، ولكن لو أحبه إيفان لأخافني ذلك، إن إيفان ليس من زمرتنا، إنه مثل سحابة من غبار تذهب إذا هبت الريح، لقد خطر لي خاطر سخيف إذ طلبت إليك أن تأتي إلي اليوم، لقد أردت أن أعرف منك شيئاً عن متياً، أئذا أعطيته ألف روبل أو ربما ألفين أيرضى أن يبعد عنا ويختفي خمس سنوات بل قل خمساً وثلاثين سنة ويهجر جروشنكا إلى الأبد؟!.

فقال أليوشا: "سأسأله عن ذلك، وأحسب إنه إذا أعطيته ثلاثة آلاف فربما..."

- كلا، لا حاجة لأن تسأله الآن فقد غيرت رأيي، لقد كانت فكرة سخيفة مني، لن أعطيه شيئا، ولا درهما واحداً، إني محتاج إلي المال لأنفقه على

نفسي، وسأسحقه كما تسحق الحشرة، لا تقل له شيئاً حتى لا يكن أملًا كاذبًا، وليس هنا شيء يمكنك أن تفعله فلا حاجة بك إلى البقاء، وهل خطيبته المسماة كاترينا ايفانوفنا والتي لم يدعني أراها قط، ستتزوجه أم لا؟، ألم تذهب لزيارتها أمس؟.

- لن يغريها شيء بتركه!

- إنك ترى كيف يخلص الشابات الفاتنات في حبهن للأوغاد!، إنهن مخلوقات تاعسات جد مختلفات عن... آه لو أن لي شبابه والوسامة التي كانت لي حين كنت مثله في الثامنة والعشرين من عمري، لقد كنت أجمل منه، وكنت البطل الغازي قلوب العذارى، ولكن أيا كان الأمر فإنه لن ينال جروشنكا، كلا، لن ينالها، وسأسحقه!.

وعاد إليه حنقه وهو يقول كلماته هذه ثم قال لأليوشا: "الآن يمكنك أن تذهب فليس لك ها هنا ما تفعله!".

فقام أليوشا وقبله في كتفه فقال له أبوه: "لم هذا؟.. أظن أننا لن نلتقي بعد اليوم؟".

- لم أعن شيئاً من ذلك!

- ولا أنا، عد إلي قريباً، وسأعد لك حساء سمك مما تشتهيه، ليس اليوم، ولكن غداً، لا تنس أن تأتي غداً!

ولم يكد أليوشا يخرج حتى قام الشيخ إلى الخزانة، وتجرع كأساً من خمر معتقة وهو يقول: "لن أشرب بعد ذلك" وسرعان ما غلبه النعاس!.

وصل أليوشا إلى بيت مدام هولا كوف، وهو بيت وجيه مؤلف من طبقتين، ومع أن مدام هولا كوف تمضي معظم وقتها في إقليم آخر تملك فيه مزرعة، أو في موسكو حيث لها دار خاصة بها، فإن لها كذلك بيتاً في بلدتنا ورثته عن أجدادها، والمزرعة التي لها في إقليمنا هي كبرى مزارعها الثلاث، ولما جاء أليوشا أسرعت للقائه في الردهة وقالت له:

- هل تسلمت خطابي بشأن المعجزة الجديدة، وهل أذعتها؟، لقد أعاد الابن إلى أمه!".

فقال لها: "إن الأب زوسيما يجود بروحه الآن!".

فقالت له: "سمعت بذلك، ولهذا كان لابد لي أن أحدثك أو أحدث أي إنسان عنه، إن البلدة كلها تتحدث عنه اليوم، والآن، أتعلم أن كاترينا إيفانوفنا هنا؟".

فقال أليوشا: "هذا من حسن حظي !، فقد طلبت إلي أمس أن أزورها اليوم! ".

فقالت له: "أعرف ذلك، وأعرف كل شيء!، وقد علمت ما حدث أمس من تلك، المخلوقة!، ما رأيك في أخيك ديمتري فيدوروفتش؟، آه لقد كدت أنسي!، إن أخاك جالس الآن مع كاتريتا ايفانوفنا، لست أعني ذلك الأخ الفظيع ولكن أعني إيفان فهو معها الآن يتحدثان حديثاً جديا، آه لو تدري ما يجري بينهما الآن! إنهما يحطمان حياتهما عمداً لغير سبب، وهما يعلمان ذلك حق العلم ولكنهما سعيدان به!، لقد كنت تواقة للقائك لعلك تجد حلا لهذه المشكلة!"

وفي خلال ذلك كان الحديث الجاد قد انتهى بين كاترينا وإيفان، ولما دخل أليوشا ومدام هولا كوف غرفة الجلوس وقف إيفان مستأذنا في الانصراف، وكان شاحب الوجه بادي الجد فنظر إليه أليوشا قلقاً، وكان قد خطر له مراراً أن أخاه إيفان متيم حباً بكاترينا خطيبة أخيه ديمتري يريد اقتناصها منه، وكانت هذه الفكرة تبدو له مخيفة لأنه يحب أخويه كليهما ويخشى أن يقوم بينهما تنافس ونزاع، غير أن ديمتري صارحه أمس بأنه سعيد لأن إيفان ينافسه في حب كاترينا لأن ذلك يحقق أغراضه، وفهم من ذلك أن ديمتري يريد الفكاك من رابطة خطبته لكاترينا لكي يتزوج جروشنكا، لكن هذا الزواج في نظر أليوشا أفظع ما يمكن أن يقع، وفضلا عن ذلك كان أليوشا حتى مساء أمس يعتقد أن كاترينا متيمة حباً بديمتري برغم عيوبه، ولكن في خلال ما دار أمس بينها وبين جروشنكا أمامه، خطر له أن كاترينا لا تكن لديمتري حباً صادقاً، ولكنها تريد أن تضحي نفسها من أجله بدافع عرفان الجميل لا غير، وها هي ذي مدام هولا كوف تؤكد له أن كاترينا تحب إيفان كما يحبها ولكن الاثنين يعذبان نفسيهما بإنكار هذا الحب!

على أن أليوشا خجل من نفسه لهذه الخواطر وقال يحدث نفسه: "ماذا أدري أنا عن الحب وعن النساء حتى يمكنني أن أحل هذه الألغاز؟"، ثم تذكر قول إيفان عن أبيه وأخيه ديمتري: "إن أفعى تلتهم أفعى"، وعلى ذلك فإن إيفان يعد ديمتري أفعى وربما كان يعده كذلك منذ زمن، أم لعله لم يحسبه أفعى إلا منذ أن عرف كاترينا إيفانوفنا؟، إن هذه الجملة قد جرى بها لسان إيفان عفوا!، ولكن ذلك زادها أهمية في نظر أليوشا، لأنها عبرت عمّا في قرارة ضميره نحو أبيه وأخيه!

ولما أبصرت كاترينا أليوشا قالت لإيفان: "انتظر لحظة فإني أريد أن أعرف رأي أخيك هذا الذي أثق به كل الثقة!"، ودعت أليوشا ومدام هولا كوف إلى الجلوس واستطردت تقول لإيفان: "إنكم كل أصدقائي في العالم، أنت يا ألكسي قد شهدت أمس منظراً شنيعاً، إنك أنت يا إيفان لم تره ولكن ألكسي رآه، ولست أدري أحكمه لي أم علي، ولكني أدري أن ذلك المنظر لو تكرر اليوم، في هذه الدقيقة، لعبرت عن الأحاسيس نفسها ولقلت العبارات نفسها كأمس، اسمع يا ألكسي، إني لا أدري أمازلت أحبه أم أنه مجرد شفقة عليه؟، لو أني لا أزال أحبه لما شعرت الآن بالأسف له، بل كنت بالتأكيد أبغضه!".

وكان صوتها يرتعش من التأثر، وقد ترقرقت دمعة في عينيها، وقالت لها مدام هولا كوف: "هذا صحيح!"، فاستطردت هي قائلة لها: "مهلا يا عزيزتي، إني لم أخبركم بعد بما انتهيت إليه من رأي في خلال الليلة الماضية، وقد يكون ما اتخذت من قرار رهيباً قاسياً ولكني لن أغيره ما حييت، وصديقي العزيز الأمين، إيفان قد أقر رأيي بما له من فكر ثاقب!".

وهنا قال إيفان: "أجل إني أقرها على رأيها الذي انتهت إليه!".

واستطردت كاترينا تقول: "ولكني أريد أيضا رأي ألكسي أمامكم، إني أشعر بأن رأيك أنت يا عزيزي أليوشا سيضفي علي الأمن والسلام برغم آلامي، لأني عندئذ أهدأ وأخضع!".

فقال أليوشا: "لا أدري ماذا تطلبينه مني، ولكني أدرى أني أحبك كأخت، وأني لا أريد لك غير السعادة، ولكني لا دراية لي في هذه الشؤون!".

فقالت له: "في هذه الأمور يا أليوشا يجب أن يسمو الشرف والواجب على كل شيء، وعلى ذلك قررت إنه إذا تزوج ديمتري تلك المخلوقة التي لن أصفح عنها ما حييت، فإني حتى في هذه الحالة لن أتخلى عنه، وليس معنى ذلك أني أطارده أو أقف في طريقه، كلا!، بل إني أعتزم الهجرة إلى بلدة أخرى، أية بلدة، ولكني سأظل بقية حياتي أراقبه، حتى إذا رأيته يشقى مع تلك المرأة، وهو ما أتوقعه، وجد مني صديقة وفيه بل أختاً رحيمة، أجل أخته ولن أكون له إلا كذلك، ولكنه سيعرف يومئذ أن هذه الأخت تحبه وتحنو عليه، وأنها ضحت حياتها من أجله، هذا ما قررته، وقد وافق عليه إيفان!"، وكان يبدو عليها التأثر الشديد وهي تقول ذلك، وما لبث ايفان أن قال:

- إن أيه امرأة أخرى سواك كانت تخطئ لو اتخذت مثل هذا القرار، ولكنك على صواب!

فاعترضت مدام هولا كوف قائلة: "لعله رأي صائب في هذه الساعة ولكنه لن يكون كذلك دائما!".

فقال إيفان: "أجل، إن أية امرأة أخرى كانت تتخذ مثل هذا القرار من تأثير ما حدث أمس، أما كاترينا فإن تلك اللحظة التي ذكرتها قد تدوم معها حتى آخر العمر، وما يعد لدى غيرها وعدًا هو واجب مقدس تعيش لأدائه، إن حياتك يا كاترينا سوف تنقضي منذ اليوم في تفكير في شعورك وتضحيتك وألمك، على أن الألم سوف يخف مع الزمن حتى يصبح تأملًا هادئًا في تحقيق خطة باسلة مبعثها الكبرياء، أجل إن مبعثها الكبرياء، وقد يكون معناها اليأس ولكنها بالنسبة لك ظفر لا شك فيه!".

وكان إيفان ينبعث في قوله هذا عن شيء من المكر والسخرية، ولكن كاترينا لم تلحظ منه ذلك، وإنما قالت مدام هولا كوف صديقتها: "إني أرى الخطأ في ذلك كله!".

فصاحت كاترينا قائلة: "تكلم يا ألكسي، يهمني أن أسمع رأيك".

وغلبها البكاء وقالت: "لا شيء!، إني لم أنم الليلة الفائتة، ولكني أشعر بالقوة معك ومع أخيك لأني موقنة أنكما لا تخذلانني!".

فقال إيفان فجأة: "إني لسوء حظي مضطر للعودة إلى موسكو، وربما أسافر غداً، وسأتركك مدة طويلة، ولسوء حظي لا مفر من ذلك!".

فبان عليها الأسى وقالت له: "أتسافر غداً إلى موسكو؟!".

على أنها سرعان ما كفكفت دمعها، وعاودها العزم فقالت: "ما أسعدها فرصة!، بالطبع لا أعني بعدك عني مدة طويلة، ولكن أقصد أنك في موسكو تستطيع أن تقابل عمتي وأختي أجافيا وأن توضح لهما الموقف الذي أنا فيه، ويمكنك أن تصارح أجافيا بكل شيء، ولكن لا تحزن عمتي، إني لم أرد أن أوضح لهما كل شيء في خطابي، ولكنك ستشرح لهما الأمور!".

وهنا قالت مدام هولا كوف: "ولكنا مازلنا ننتظر رأي أليوشا!".

فقال أليوشا: "أن ما أراه أمامي يعلو على فهمي!، إنه مسافر غداً إلى موسكو، وأنت تقولين أن ذلك فرصة سعيدة!، إنك تمثلين دوراً كما في المسرح!"

فقالت كاترينا بدهشة: "أمثل دوراً كما في المسرح؟، ماذا تعني بذلك؟".

فقال لها: "إنك تقولين إنك آسفة لبعد صديق، ومع ذلك تعدين سفره فرصة سعيدة!، إن ما أراه قد يدلني على أنك تحبين ديمتري مطلقاً، وإنك لم تحبيه حقاً منذ البداية، وأحسب أن ديمتري أيضاً لم يحبك قط وأنه إنما يقدرك ويحترمك! إني لا أدري كيف أجرؤ على قول ذلك، ولكن لابد لأحد منا أن يقول الحق، ولم أجد أحداً هنا يريد أن يقوله! ".

فسألته كاترينا وفي صوتها رعشة هستيرية: "أي حق تعني؟".

فأجاب قائلا: "سأبحث عن ديمتري وأحضره إلى هنا لكي يمسك بيد إيفان وبيدك ويضع كلا منهما في الأخرى، ذلك لأنك إنما تعذبين نفسك وتعذبين إيفان معك، لا لشيء سوى أنك تتوهمين أنك تحبين ديمتري وتغرين قلبك بأن يصدق ذلك! ".

قالت له كاترينا: "ما أنت إلا أبله صغير متدين! ".

وعندئذ ضحك إيفان، وأمسك بقبعته يريد الذهاب وقال لأخيه: "أنت مخطئ يا أليوشا!، إن كاترينا لم تهتم بي قط وهي تعلم أني أحبها من زمن، وإن لم أصارحها بحبي قط ولكنها تعلمه ولا تعبأ به!، كذلك لم تلتمس صداقتي لحظة لأنها أشد كبرياء من أن تحتاج إلى صديق، وإنما رضيت بي إلى جانبها كأداة لانتقامها، وقد انتقمت بي ومني لكل الإهانات التي تلقتها من أخي ديمتري منذ أول لقاء لهما، لأن ذلك اللقاء الأول بينهما قد بقي في نفسها كإهانة بالغة لا تمحى!، إنها لم تكلمني قط إلا عن حبها له، ولكلما زاد إهانة لها زادت حباً له، وهذه هي تضحية النفس، ولعله إذا أصلح حاله لم تعودي تحبينه، فأنت في حاجة إليه على حالته هذه لتقنعي كبرياءك بعظيم تضحيتك،

والآن وداعاً يا كاترينا، لقد قلت كل ما بنفسي، إنك لن تريني بعد اليوم، إني لا أريد أن أصافحك فقد عذبتني عذاباً لا يدع في نفسي مجالا للصفح في هذه اللحظة، ولعلي أصفح عنك فيما بعد!".

وخرج من الدار دون أن يصافح أحداً، أما كاترينا فقامت لتوها وذهبت إلى الغرفة المجاورة، وبقيت مدام هولا كوف مع أيوشا وكان بادي الندم على ما بدر منه فقالت له:"إنك لم تخطيء.. بل كنت ملاكاً كريماً! ".

نحو حياة جديدة

أحس أليوشا في نفسه حاجة شديدة إلى لقاء أخيه ديمتري بعد أن اتضحت أمامه الأمور، وقد رأى أن يفاجئه باللقاء، فقفز فوق سياج الحديقة التي بها البيت الصيفي ودخل ينتظره، ولم تمض ربع ساعة حتى سمع صوت قيثارة وصوت رجل ينشد أغاني على نغماتها ثم إذا به يرى سمرديا كوف جالساً مع صديقة له!، وكانا لا يشعران بوجوده على مقربة منهما لولا الآن؟"، فأجابه بجفاء قائلا: "لا أدري، ولا أريد أن أدري!".

فقال أليوشا: "لكن ديمتري كلفك أن تنبئه إذا جاءت اجرافينا الكسندروفنا (جروشنكا)".

فنظر إليه الخادم نظرة ماكرة ثم قال له: "وكيف استطعت الدخول إلى هنا مع أن باب الحديقة موصد منذ؟!".

فأجاب أليوشا: "لقد جئت من الزقاق الخلفي وتسلقت السور وذهبت تواً إلى البيت الصيفي!".

وهنا قالت صاحبة سمرديا كوف: "إن ديمتري يأتي دائماً من هذا الطريق!".

فقال أليوشا: "لقد جئت لأمر هام يا سمرديا كوف، ويهمني أن أقي ديمتري".

فقال سمردياكوف: "إنه يضايقني دائماً بإلحاجه في السؤال عن السيد وعما يجري في البيت، لقد هددني بالقتل مرتين!".

فدهش أليوشا وتساءل: "هددك بالقتل؟!"، فقال له سمردياكوف: "أتحسبه يتردد في قتلى إذا غضب وقد رأيته بنفسك أمس حين كاد يفتك به؟، لقد توعدني بالقتل إذا تركت إجرافينا الكسندروفنا تدخل البيت وتمضي ليلة فيه!، حقا إني لفي خوف شديد منه حتى لأفكر في إبلاغ البوليس، لقد قال لي أمس: سوف أدقك في الهاون! ".

فقال أليوشا: "لا تخش شيئاً ياسمردياكوف!، إنه هذا كلام يقوله لا غير!".

فقال سمردياكوف: "لقد أرسلني إليه إيفان صباح اليوم برسالة يدعوه فيه إلى تناول الغداء معه في مطعم متروبوليس بالسوق، وقد ذهبت إليه ولكني وجدته غادر البيت مع أن الساعة لم تكن قد بلغت الثامنة صباحاً، ولعله الآن مع إيفان في المطعم، على أني أرجو منك ألا تذكرني عنده بشيء، وألا تقول له ما صارحتك به الآن، فإني أخاف أن يقتلني! ".

فقال أليوشا: "اطمئن!، سأذهب إلى المطعم وكأني ذهبت إليه مصادفة!".

ولما وصل أليوشا إلى ذلك المطعم وجد إيفان جالساً في ركن منعزل تفصله ستارة عن بقية المطعم، ولكن ديمتري لم يكن هناك، وقد سر إيفان لرؤية أليوشا ودعاه إلى تناول الطعام، وجرى الحديث بينهما صافياً صريحاً حتى قال أليوشا: "وماذا عن الخلاف الذي بين ديمتري وأبي؟ وبأي شيء ينتهي؟".

فقال له إيفان في ضجر: "إنك دائماً تسأل هذا السؤال!، ولكن ما شأني أنا به؟، هل أنا وصي على ديمتري؟، لقد أتممت ما جئت إلى البلدة من أجله، وليس لي الآن إلا أن أسافر إلى موسكو، أم تراك تحسبني أغار من ديمتري وأني سعيت لاقتناص خطيبته الحسناء منه ولذا مكثت هذه الأشهر الثلاثة؟، كلا!، بل كانت لي شؤون أخرى وقد أنجزتها!".

فسأله أليوشا: "وكاترينا ايفانوفنا؟".

فأجاب: "لقد حررت نفسي منها إلى الأبد!، وليس لديمتري شأن بذلك!، لقد كان مسلكه يوحي بأن بيني وبينه تفاهما على هذا الأمر، ولكن الحقيقة غير ذلك فأني لم أطلب منه شيئا وإنما سلمني خطيبته ضمناً وبارك صلتي بها وهو صامت، حقاً إن الأمر لا يخلو من فكاهة!، على أني أشعر الآن بالخلاص، ولذلك تراني آكل وأشرب وقد كدت أطلب شمبانيا احتفالا بحريتي التي عادت إليّ!، آه لقد مكثت أسيراً زهاء ستة أشهر، وها أنذا قد فككت أساري بغتة! ".

فقال أليوشا: "إنك تتحدث عن الحب يا إيفان، وما أحسبه بهذه السهولة!".

فقال له: "لا تتحدث عن الحب يا أليوشا فإنه لا يليق بك، لقد اندفعت في الحديث عنه مع كاترينا وكنت صريحاً إلى أقصى حدود الصراحة حتى وددت لو أقبلك!، إنها تعرف إني أحبها، وأنا موقن أنها تحبني ولا تحب ديمتري، وكل ما تشعر به نحوه هو رغبتها في التضحية!، ولعلها لن تعرف هذه الحقيقة إلا بعد خمس عشرة سنة أو عشرين سنة!".

وهنا أنبأه أليوشا بأنه سمع من مدام هولا كوف أن كاترينا أصابتها نوبة هستيرية حتى لزمت الفراش، فقال له ايفان: "لا أحد يموت من ذلك!، إن الله قد جعل الهستيريا للنساء لتخفف عنهن!، ولن أعودها لأني لا أريد أن أبدأ من جديد!".

ولما افترقا بعد ذلك، عاد إيفان إلى بين أبيه وهو يشعر بكره له، وسره أنه أعتزم السفر والبعد عن ذلك البيت الكريه إلى الأبد، وكان سمرديا كوف واقفاً بباب الحديقة كأنما كان ينتظره، فلم يجد ما يقوله له سوى أن سأله عن أبيه، قائلا: "هل أبي فوق؟".

فأجاب سمرديا كوف: "إن السيد مازال نائما!".

وسكت برهة ثم قال وقد جمع جرأته: "إني في دهشة منك يا سيدي!".

فعجب إيفان من هذه الجرأة ولكنه اكتفى بأن سأله: "وماذا يدهشك مني؟".

فابتسم سمرديا كوف ابتسامة ما كرة وقال: "لماذا لا تذهب إلى تشرماشنيا يا سيدي؟".

فأجاب إيفان بدهشة: "ولماذا أذهب إلى تشرماشنيا؟".

فسكت سمرديا كوف برهة ثم قال: "إن السيد فيدور بافلوفتش قد طلب ذلك إليك! "، وأدرك ايفان أنه يخفي غرضاً في نفسه فصاح به بحنق: "تكلم ماذا تريد؟"، ولزم سمرديا كوف جانب الصمت قليلا ثم قال: "إني في موقف حرج يا سيد إيفان، ولست أدري ماذا ينبغي لي أن أفعله، إن أباك وأخاك

ديمتري كليهما قد جنا، وكأنما عادا إلى طفولتهما الأولى، فأما الأول فإنه يسألني كل دقيقة: (هل جاءت؟ لماذا لم تأت؟)، وهكذا من الصباح إلى منتصف الليل!، وإذا لم تأت اجرافينا الكسندروفنا (جروشنكا) وأغلب الظن أنها لا تفكر في المجيء مطلقاً، فإنه يبدأ سؤالي من جديد حين يبزغ فجر اليوم التالي وهكذا.."، "وأما ديمتري فإنه متى غربت الشمس، وربما قبل ذلك، يظهر أمامي وبندقيته في يده ويقول لي: (اصغ إلى أيها الوغد يا صانع الحساء، إذا جاءت ولم تخبرني فإني أقتلك قبل أن أقتل غيرك)، حتى إذا انقضى الليل أخذ مثل أبيه يزعجني بأسئلته وكأني أنا الملوم سواء أجاءت أم لم تجيء، والاثنان يزداد غضبهما كل يوم بل كل ساعة حتى ليخطر لي أحياناً أن أقتل نفسي من الخوف!".

واستمع إيفان إلى حديثه ملياً ثم سأله: "لماذا تدخلت في الأمر؟، لماذا رضيت أن تكون عيناً لديمتري؟".

فأجاب سمرديا كوف: "إني لم أرد أن أتدخل بينهما، ولكن أخاك جعل يهددني بالقتل إذا جاءت جروشنكا ولم أخبره بمجيئها!، إني موقن يا سيدي أني سأصاب غداً بنوبة صرع طويلة الأمد!".

فسأله: "ماذا تعني بنوبة الصرع طويلة الأمد هذه؟".

فأجاب: "أعني أنها قد تستمر عدة ساعات، وقد تسمتر يوماً أو يومين، لقد انتابتني فيما مضى نوبه دامت ثلاثة أيام، وسقطت في بدايتها من غرفة السطح، وكلما انتهى التشنج عاد من جديد، وعلى ذلك بعث السيد فيدور بافلوفتش في طلب الدكتور (هرزتشتوبه) فوضع ثلجاً على رأسي ثم جرب علاجاً آخر، وقد كدت أموت وقتئذ! ".

فقال له إيفان: "إن الإنسان لا يمكن أن يتنبأ لنفسه بنوبة صرع قبل حدوثها، فما الذي يحملك على الظن بأن ستنتابك نوبة صرع غداً؟".

فقال سمردياكوف: "صدقت، إن الإنسان لا يمكن أن يعرف سلفاً، ولكني أصعد إلى غرفة السطح كل يوم، وهي التي سقطت منها في تلك النوبة الأولى، وقد أسقط منها غدا إذا دهمتني النوبة، وإلا فقد أسقط فوق سلم القبو!"، فنظر إيفان إليه نظرة فاحصة وقال له: "إن قولك هذا هراء لا أفهمه!، أم تراك تعني أنك ستدعي المرض غداً وتمكث في هذا الإدعاء ثلاثة أيام؟".

فقال سمردياكوف: "لو أني استطعت ادعاء المرض، وهو أمر يسير لشخص اعتاد تلك النوبات، لكان لي كل الحق في ذلك لأنقذ نفسي من القتل، لأنه إذا جاءت أجرافينا إلكسندروفنا في خلال مرضى إلى السيد الشيخ فإن ديمتري لا يقدر أن يلومني ما دمت مريضا".

فبان الكدر على وجه إيفان وقال له: "لماذا تخشى على حياتك دائماً إلى هذا الحد؟، إن تهديد أخي ديمتري إياك بالقتل إنما هو تهديد أجوف، ثق أنه لن يقتلك، لست أنت الذي سيقتله!".

- إنه سيقتلني أولا كما لو كنت ذبابة!، ولكن الأهم من ذلك أن أتهم بكوني شريكا له إذا قتل أباه!" .
- ولماذا تتهم بأنك شريكه؟
- سيعدونني شريكه لأني أطلعته على الإشارات السرية!

– أية إشارات؟ إنك تتكلم بالأحاجي والألغاز!

– إني أعترف لك بأن بيني وبين أبيك سرًا، أنت تعلم أنه منذ بضعة أيام اعتاد أن يوصد باب غرفته على نفسه إذا جنّ الليل، إذا لم تلحظ ذلك لأنك تأوي إلى غرفتك كلما جئت مساء، وأمس لم تأت إلى البيت، وهو لا يفتح الباب لجريجوري نفسه إلا إذا سمع صوته من وراء الباب، على أن جريجوري لا يأتي إليه بل أقوم أنا وحدي على خدمته ليلا في غرفته، وهذا ما اتفق معي عليه منذ بدأت مسألته مع أجرافينا إلكسندروفنا، ومتى انتهت من خدمته أويت إلى الكوخ، ولكني أبقى ساهراً حتى منتصف الليل، أراقب وأمشي في فناء الدار لعل اجرافينا الكسندروفنا (جروشنكا) تأتي إليه، وقد كاد يجن في الليالي الأخيرة، من جراء انتظار مجيئها، وهو يرى أن خوفها من ديمتري سيجعلها تأتي من طري الزقاق الخلفي، والمتفق عليه بيني وبينه إذا لمحتها قادمة ليلا أن أهرع إليه وأضرب بيدي على الباب أو على النافذة، أولا مرتين بلطف، ثم ثلاث مرات بسرعة، وعندئذ ويدرك أنها جاءت فيفتح باب غرفته، أما إذا حدث شيء مفاجئ فعليّ أن أقرع على الباب أو النافذة مرتين أولا، ثم أسكت برهة، وأضرب بعدها بيدي ضربة واحدة أشد، وعندئذ يفهم أن شيئاً غير منتظر قد حدث وإني لا بد أن أقابله تواً فيفتح لي الباب، وهو يقصد من ذلك أن جروشنكا قد لا تأتي بنفسها ولكنها قد ترسل رسالة إليه، على أن ديمتري قد يأتي فينبغي لي في هذه الحالة أن أحذر السيد لأنه يخافه أشد الخوف، وربما تأتي جروشنكا وتمكث مع السيد في غرفته والباب موصد عليهما، ثم يظهر ديمتري على مقربة من الدار، وفي

هذه الحالة يجب عليّ أن أضرب بيدي على الباب ثلاث مرات متوالية، وقد علمني هذه الإشارات كلها للأحوال الثلاث وكررها أمامي بنفسه بقصد التجربة، والآن قد أصبح هذه الإشارات السرية معروفة!

فسأله إيفان: "من الذي يعرفها؟".

فأجاب قائلًا: "لقد أفشيت سرها لديمتري بدافع الخوف منه، إذا كان يوم يتهمني بأني أخدعه وأخفي عليه شيئاً، ويهدد بأن يكسر ساقي، فلم يسعني إلا أن أذكر له تلك الإشارات التي اتفق أبوه معي عليها، لأبرهن له على إخلاصي ويعلم إني لا أكتم سراً عنه!".

فقال له إيفان: "إذا كنت تحسب أنه سيستغل علمه بهذه الإشارات ويحاول أن يدخل عند أبي، فلا تدعه يدخل!".

فقال سمرديا كوف: "هذا ما قررته، لكن إذا كنت مصاباً بنوبة صرع فكيف أمنع دخوله، بلى كيف أتجرأ على منعه وهو في غضبه وهياجه؟".

فسكت إيفان مفكراً ثم سأله: "كيف تجزم بأنك ستصاب بنوبة صرع؟، أتراك تسخر مني؟".

فأجاب سمرديا كوف: "معاذ الله أن أسخر منك يا سيد إيفان!، ثم إن الخوف الذي بي لا يدع لي مجالا للسخرية، إنما أشعر بأني سوف أصاب بنوبة صرع، عندي إلهام بذلك، ولعل الخوف وحده سيحدث لي النوبة!".

فقال له: "أياً كان الأمر فإن جريجوري يمكنه أن يتولى الرقابة إذا حدث لك تلك النوبة!".

فقال سمرديا كوف: "لست أجرؤ على إخبار جريجوري بتلك الإشارات بغير علم سيدي، على أن جريجوري مريض منذ أمس وتنوي مارفا أن تعطيه دواءها، وهو دواء عجيب تحضره بنفسها من بعض الأعشاب، وهي تعطيه زوجها كلما عاني آلام الروماتيزم ولزم الفراش، فهي أولا تدعك ظهره بفوطة بعد غمسها في ذلك الدواء، وتظل تدعكه حتى يحمر ويصيبه ورم، ثم تجرعه من الدواء نفسه وهي تدعو دعاء خاصًا، وإذا بقى في قارورة الدواء شيء شربته وعندئذ يستغرقان كلاهما في نوم عميق مدة طويلة، ثم يستيقظ بعدها جريجوري معافي من كل مرض، وعلى هذا إذا عالجت مارفا زوجها بهذا الدواء غداً فلن يحول أحد دون دخول ديمتري عند أبيه! ".

فقال ايفان: "ما أعجب هذا التوافق!، لكأن الأمر مدبر تدبيراً محكماً!، أنت ستكون مصاباً بنوبة صرع لا تعي معها شيئاً، وجريجوري وزوجته سيكونان في سبات عميق من أثر ذلك الدواء!، يبدو أنك تريد أن تدبر خطة على هذه الشاكلة! ".

فقال سمرديا كوف: " كلا!، إن كل شيء يتوقف على ما يعتزمه ديمتري لا علي أنا، إنه إذا اعتزم أن يفعل شيئاً فسيفعله ولا شأن لي بذلك! ".

- ولكن ما الذي يغريه بأن يذهب إلى أبيه خفية إذا كانت أجرافينا ألكسندروفنا لن تأتي؟، تكلم، أني أريد أن أعرف ما يدور بخلدك!.
- إنك تعرف يا سيد إيفان أنه سوف يأتي لأبيه، إنه سيأتي لأنه في حالة غضب وهياج، أو لأنه حين يعلم بمرضي سيندفع بنفسه إلى الدار كما فعل أمس إذ جاء يبحث في الغرف عن حبيبته، وهو يعلم حق العلم أن

أباه قد أعد ظرفا به ثلاثة آلاف روبل وختمه بثلاثة أختام وكتب عليه: "إلى ملاكي جروشنكا إذا جاءت....".

فصاح به إيفان: "كفى هراء!، إن ديمتري لن يأتي ليسرق هذا المبلغ ويقتل أباه من أجله!، لقد كان في إمكانه أمس أن يقتله بسبب جروشنكا في خلال هياجه ولكنه لا يسرق بأي حال!".

- إنه في أشد حاجة إلى المال إنك لا تعرف ماذا تفعل الحاجة بالإنسان!، لقد كان في إمكانه أمس أن يقتله بسبب جروشنكا في خلال هياجه، ولكنه لا يسرق بأي حال! ".

- إنه في أشد حاجة إلى المال في الوقت الحاضر، إنك لا تعرف ماذا تفعل الحاجة بالإنسان!، ثم إنه ينظر إلى تلك الآلاف الثلاثة وكأنها حق له مغتصب، وطالما ذكر أن أباه مدين له بثلاثة آلاف روبل!، وهناك أمر آخر هو أن أجرافينا إلكسندروفنا (جروشنكا) إذا شاءت الزواج بالسيد الزواج فإن من اليسير عليها على أن تغريه بذلك، وإذا كانت لا تريد أن تأتي لتقضي ليلة معه فقد تأتي لتكون سيدة البيت، وأنا أعلم أن التاجر سامسونوف كان يمزح معها منذ بضعة أيام ويقول لها إنه يحسن بها أن تتزوج شيخاً غنياً مثل فيدور بافلوفتش، ولا شك أنها أعقل من أن تتزوج شاباً مفلساً مثل ديمتري، وفي هذه الحالة لن تنال أنت ولا ديمتري ولا ألكسي شيئاً من ثروة أبيكم إذا مات، لأن أجرافينا إلكسندروفنا متى تزوجته استحوذت على إرادته وثروته، أما إذا مات الآن من غير أن تتزوجه فإن كلا منكم يحصل على أربعين ألف روبل،

حتى ديمتري نفسه الذي يبغضه السيد أشد البغض، وذلك لأن أباكم لم يكتب وصية، وديمتري يعرف ذلك كله!

- فشعر إيفان برعدة تسري في جسده كله، ثم قال له: "لماذا تريد مني أن أسافر إلى تشرماشنيا؟، ماذا تريد من وراء ذلك؟، إنك تعلم ما يمكن أن يحدث هنا إذا سافرت!".

- فأومأ سمرديا كوف برأسه ويديه موافقًا وهو يقول: "بالضبط! ".

- فسأله إيفان: "ماذا تعني بعبارة (بالضبط) هذه؟".

- فأجاب: "لقد كلمتك بصراحة لإخلاصي لك!، ولو كنت في مكانك لتركت الأمور تجري مجراها بدل أن أبقى في مثل هذا الموقف".

- فقال إيفان: "يبدو لي أنك وغد!، اسمع، سأسافر إلى موسكو غداً في باكورة الصباح وهذا كل ما عندي! ".

- فقال له سمرديا كوف: "هذا خير ما تفعله، ويمكن إرسال برقية إليك في موسكو إذا حدث شيء هنا".

فصاح به إيفان في حنق: "وإذا سافرت إلى تشرماشينا أفلا يمكن إرسال برقية إلى هناك إذا حدث شيء هنا؟".

فقال سمرديا كوف: "نعم، ولكن تشرماشينا أقرب من موسكو!".

فقال له ساخراً: "إذن، تريد أن توفر على الفرق في أجر السكة الحديد؟!".

وضحك إيفان وهو يقول ذلك ومضى في طريقه إلى الدار، ولما صادف

أباه في غرفة الجلوس ذكر له أنه ذاهب توًّا إلى غرفته في الطابق الأعلى، ثم مضى إليها، وعندئذ أخذ فيدور بافلوفتش يسأل سمردياكوف أسئلته المعتادة كل يوم: "هل جاءت جروشنكا؟، ولماذا لا تأتي؟".

وفي صباح اليوم التالي استطاع الشيخ أن يقنع ولده إيفان بالسفر إلى تشرماشينا بدلا من موسكو ليتم هناك صفقة الأخشاب، ولما ركب العربة وأعطى منحة لكل من الخدم قال لسمردياكوف: "ها أنت ذا ترى أني مسافر إلى تشرماشينا! ".

فقال سمردياكوف بخبث: "لقد صدق المثل الذي يقول: (من المفيد دائماً أن تتحدث مع شخص أريب) ".

جروشنكا

كانت أجرافينا إلكسندروفنا (جروشنكا) تسكن الحي التجاري في البلدة على مقربة من ميدان الكاتدرائية، في بيت صغير (سلاملك) بفناء دار الأرملة موروزوف، وكانت هذه الأرملة الغنية تعيش مع ابنتي أختها العانسين، وقد رضيت أن تؤجر جروشنكا ذلك البيت الملحق بدارها منذ أربع سنوات لا لشيء سوى إرضاء قريبها التاجر سامسونوف الذي كانت جروشنكا في رعايته، ويقال إن ذلك المحب الشيخ إنما أسكن خليلته الشابة الحسناء لدي قريبته لكي ترقب هذه سيرتها عن كثب، وقد انقضت أربع سنوات منذ جاء ذلك الشيخ بتلك الفتاة الخجول من عاصمة الإقليم وكان عمرها وقتئذ لا يزيد على ثماني عشرة سنة ولا يدري أحد شيئاً عن ماضيها قبل ذلك، كذلك لا يدري أحد شيئاً كثيراً عنها بعد تلك السنوات الأربع برغم كثرة الرجال الذين فتنوا بها بعد أن اكتمل نموها وأصبحت شابة فاتنة، وإنما كان يشاع أنها حين كانت في السابعة عشرة من عمرها قد خدعها ضابط أحبته، ثم هجرها وتزوج غيرها فمكثت وحدها تعاني العوز والعار، وكان يشاع أيضاً أنها سليلة أسرة محترمة من القساوسة وأن أباها كان من رجال الكنيسة!.

والآن بعد تلك السنوات الأربع أصبحت الفتاة اليتيمة الخجول، وردة روسية متفتحة الأكمام، ذات عزيمة وكبرياء تتحدى بهما العالم أجمع، وقد اكتسبت براعة في شئون المال وادخرت لنفسها ثروة تذكر، على أن الناس

جميعاً قد اتفقوا على أمر واحد هو أنها ليست بالصيد السهل، حتى لا يقدر أي رجل أن يفخر بنيل مأرب منها، ما عدا ذلك التاجر الشيخ وقد حاول الكثيرون نيل حظوة خاصة لديها فباءوا جميعاً بالفشل، وقد عمدت في المدة الأخيرة إلى المضاربات المالية حتى صار الكثيرون يشبهونها باليهود!، صحيح أنها لم تكن تقرض المال بالربا، ولكنها اشتركت مع كارامازوف الشيخ في شراء ديون مشكوك فيها بثمن بخس قد لا يعدو عشر قيمتها، فربحت مع شريكها مالا كثيراً من وراء ذلك!.

وكان الشيخ سامسونوف رجلا واسع الثراء شديد البخل لا تطرق الرحمة قلبه، وكان له أولاد كبار من زوجته المتوفاة يعاملهم بقسوة واستبداد، وفي السنة الأخيرة مرض وورمت ساقاه حتى لم يعد يستطيع المشي، ووقع تحت سيطرة جروشنكا بعد أن كان يستبد بها ويخفي صلته بها عن الناس، وقد بلغ من نفوذها عليه في السنتين الأخيرتين أنه صار لا يقدر أن يعيش بدونها، ومع ذلك لم يخصها بثروة محترمة تستعين بها في مقبل أيامها، وما كان ليفعل ذلك حتى ولو هددته بالهجران، ولكنه أهدى إليها مبلغاً قليلا من المال فكان ذلك مثار دهشة الذين يعرفون شحه وتقتيره، وقال لها وهو يعطيها الثمانية عشر ألف روبل: "إنك امرأة ذات ذكاء وستشقين طريقك في الحياة، ولكن لا تنتظري مني بعد اليوم سوى معاشك السنوي إلى يوم أموت!".

وقد وفى بوعده، فإنه لما مات ترك كل ثروته لأولاده وزوجاتهم وأولادهم، ولم يذكر اسم جروشنكا في وصيته إطلاقا، ولكنه كان قد علمها كيف تستغل مالها وكيف تنجح في ميدان التجارة.

وقد عرفها فيدور بافلوفتش كارامازوف أول مرة من طريق إحدى صفقات المضاربة وسرعان ما وقع في غرامها، ولما علم الشيخ سامسونوف بذلك وهو مريض ملازم الفراش، اهتم بالأمر، وكانت هي قد اعتادت أن تصارحه بكل شيء، فقال لها: "إذا خيرت بين الأب والابن، فاختاري الأب الشيخ إذا كنت موقنة أنه يتزوجك، بشرط أن يختصك سلفا بجانب من ثروته، ولكن حذار أن تؤثري ابنه الضابط فإنك لا تجنين خيراً من ورائه! ".

وكان أهالي البلدة جميعاً يعلمون بأمر المنافسة التي بين الأب والابن على جروشنكا، ولكن لا أحد منهم يدري شعورها نحو أيهما، حتى خادمتيها اللتين تعيشان معها قد شهدتا فيما بعد في المحكمة بأنها "كانت تستقبل ديمتري بدافع الخوف منه لا بأي دافع آخر، لأنه كان يهددها بالقتل"، وكانت إحدى خادمتيها امرأة عجوزاً واهنة الجسم ثقيلة السمع تقوم بطهو الطعام، وكانت من قبل خادمة لدي أسرة جروشنكا، والأخرى حفيدة تلك المرأة، وهي شابة في العشرين من عمرها شديدة الذكاء، وكانت جروشنكا ترعى في معيشتها جانب الاقتصاد وتبعد عن مظاهر الترف، وكان بيتها الصغير مكونا من ثلاث غرف بها أثاث قديم تملكه صاحبة الدار.

كان الليل قد أرخى سدوله حين دخل راكتين وأليوشا بيت جروشنكا، وكانت هذه راقدة على أريكة كبيرة قديمة مفروشة بالجلد وقد وضعت تحت رأسها وسادتين أخذتهما من السرير، وكانت راقدة على ظهرها ويداها تحت رأسها، وقد ارتدت ثيابها كاملة كأنها تنتظر مجيء أحد، وكان عليها ثوب من حرير أسود، وفوق كتفيها شال من المشبك (الدانتلا) يربط طرفيه مشبك سميك من الذهب، ولما أنبأتها الخادم بمقدم زائرين وقف تستقبلهما وقالت لراكتين:

- أهذا أنت؟، من الذي أحضرته معك؟، رباه! لقد أحضرته حقا!.
- فقال لها: "نعم، إنه أليوشا، ألا يسرك مجيئه؟".
- فقالت لأليوشا برقة بالغة: "لا تخف مني يا عزيزي أليوشا!، إني سعيدة برؤيتك".
- ثم التفتت إلى راكتين وقالت له: "حسبت أن متيًا (ديمتري) هو الذي اقتحم الدار!، لقد خدعته منذ لحظة وزعمت أني سأقضي المساء مع رجلي الشيخ كوزما كوزمتش (سامسونوف) وأني سأبقى معه إلى ساعة متأخرة من الليل لأعد له نقوده، والواقع أني أمضي معه ليلة كل أسبوع لمراجعة حساباته لأن لا يثق بأحد غيري، فالآن يحسب هو أني مع الشيخ، في حين أني رجعت إلى هنا لأنتظر بعض الأنباء، ولكن كيف أدخلتك (فنيا) إلى هنا؟!".
- ثم قالت لخادمتها: "اذهبي إلى البوابة، إني أخشى أن يكون الكابتن ديمتري قد عاد أو أن يكون مختفيًا للتجسس علي!، الحق أني في رعب شديد منه!"، فقالت لها الفتاة فنيا: "ليس هناك أي أحد لدى البوابة، وأنا بين حين وآخر أنظر من خلال الباب لأرى، فلست أقل خوفا منك!".

فقالت لها: "هل النوافذ أحكم غلقها؟، يجب أن تسدل الستائر أيضاً يا فنيا!، إنه سيقتحم الباب إذا رأى الضوء هنا، إني في خوف شديد من أخيك يا أليوشا! "، وكانت تتكلم بصوت مرتفع، ولكنها برغم خوفها كانت بادية السرور، فقال لها راكتين: "لماذا تخشين ديمتري اليوم؟، لقد حسبته طوع إشارة منك! ".

فقالت: "ذلك لأني أنتظر أنباء هامة، ولست أريد (ميتا) مطلقاً!، لقد شعرت بأنه لم يصدقني إذ زعمت أني سأمكث شطراً من الليل لدي كوزما كوزمتش (سامسونوف) ولابد أن يكون مختبأ بالحديقة خلف دار أبيه، متوقعاً مجيئي، على أنه إذا كان هناك فإنه لن يأتي إلى هنا وهذا خير لي، لقد قلت له إني سأمكث عند كوزما كوزمتش حتى منتصف الليل وعندئذ يأتي ليصحبني إلى هنا، ولكني مكثت مع كوزما كوزمتش عشر دقائق فقط وعدت إلى هنا مسرعة!".

فسألها راكتين: "لماذا ارتديت ملابس الخروج؟".

فأجابت: "لأني أنتظر رسالة، ومتى جاءت طرت من هنا ولن تراني بعد ذلك!".

فسألها: "إلى أين أنت ذاهبة؟"، فأجابت: "ليس لك أن تعرف أكثر مما قلته!".

فقال لها: "حقاً إنك بادية السرور اليوم وكأنك ذاهبة إلى حفلة راقصة!".

فقالت: "ولماذا لا أسر وكل شيء يدعوني إلى السرور اليوم؟، إني مسرورة لمجيء أليوشا!".

فقال لها راكتين: "لقد مكثت أياما تلحين عليّ أن أجيئك به، ولا بد أن لك غرضاً خفياً!".

فقالت: كان لي غرض ولكنه انتهى الآن!، اجلس يا راكتين، ولكنها أنت قد جلست من تلقاء نفسك، ولكن ما بال أليوشا كأنه غاضب أو

حزين؟، لا تغضب أبداً ولا تحزن يا أليوشا، إن علي أن أنعشك وأسرك أيها الشاب الورع التقي!، ولهذا سأجلس على حجرك!، هل لديك مانع من ذلك؟!".

صمت أليوشا ولم يتحرك، فجلست على حجره وهي تقول: "إذا تضايقت فأخبرني كي أقوم"، ولم يشعر أليوشا بشيء سوى الخجل، على حين جلس راكتين يرقبه بخبث وغيرة، وقال لها:"بدلًا من هذا الهراء يمكنك أن تقدمي لنا شمبانيا، فأنت قد وعدتني بها إذا لم تخنك ذاكرتك!"

فقالت لأليوشا: "أتعلم أني وعدته بالشمبانيا إذا أحضرك إلي؟، إنني برغم حبي للاقتصاد أحتفظ لديّ بزجاجة شمبانيا، إنها ليست لك يا راكتين، وإذا كان قلبي مشغولا بشيء آخر فإني سأشرب معك يا أليوشا! ".

وسألها راكتين: "ولكن ماذا دهاك؟، ما هي الرسالة التي تنتظرينها، أم الأمر سر؟".

فأجابت: "إنها ليست سراً!، وأنت تعلم، إن الضابط الذي أحبه قادم إلىّ يا راكتين، أجل سيأتي إلي، إنه الآن في موكرو وقد تسلمت اليوم خطابا منه يقول فيه إنه سيرسل إلىّ رسولا، وأنا أنتظر هذا الرسول بين ساعة وأخرى! ".

فسألها: "هل يعلم متيا بذلك؟"، فأجابت قائلة: "إنه لا يعلم!، ولو أنه علم لوقعت جريمة قتل!، ولكني لا أخشى ذلك الآن، اسكت يا راكتين ولا تذكرني به، دعني أنظر إلى أليوشا الوسيم، ابتسم لي يا عزيزي، آه إنه يبتسم حقاً! وينظر إلى بعطف! لقد كنت أحسبك غاضباً على من جراء ما حدث

أول من أمس مع تلك السيدة الصغيرة، كاترينا ايفانوفنا!".

فقاطعها راكتين قائلا لأليوشا: "إنها مثلك خائفة من دجاجة!".

فردت هي عليه قائلة: "إنه دجاجة في نظرك يا راكتين لأنك بلا ضمير!، ولكني أحبه من كل قلبي!".

فقال لها راكتين: "يا لك من امرأة قليلة الحياء!، أهكذا تصارحين أليوشا بأنك تحبينه؟".

فقالت: "ولم لا؟، إنني أحبه حقًّا من كل قلبي!".

فسألها: "هذه مسألة أخرى!، إني أحب أليوشا حبًّا من نوع آخر، صحيح يا أليوشا أني كنت أعتزم أمراً آخر نحوك، فقد كان يغيظني أن تزدريني كما حسبت حين خرجت من بيت كاترينا إيفانوفنا، لقد كنت أفكر فيك منذ حين، وديمتري يعلم ذلك ويفهمه، أتدري أني أحياناً أنظر إليك وأشعر بالخجل من نفسي؟"، وهنا دخلت فنيا حاملة صينية عليها زجاجة شمبانيا وأكواب، ثم دعت جروشنكا أليوشا ليحتسي كأساً فتذوقها بشفتيه ثم أعادها إلى مكانها وهو يقول: "أوثر ألا أشرب!".

فقالت له: "إذا كنت أنت لا تشرب فإني كذلك لا أشرب!، والحقيقة أني لا أشعر بحاجة إليها، ويمكنك أنت يا راكتين أن تتجرع كل ما في الزجاجة وحدك!".

فقال راكتين: "ما أبدع هذه العواطف التي تتبادلانها!، ثم إنك جالسة على حجره! إن أليوشا بدأ يعصي الله!".

فرد عليه أليوشا بحزم: "إنك تعلم ما أنا فيه من حزن لوفاة الأب زوسيما!، وليس لك أن تحكم على بأني عصيت الله، إنها إنما تعطف علي، ولقد جئت إلى هنا وأنا موقن أني سأجد نفساً شريرة، كنت أشعر بأني مجذوب إلى السوء، لأن نفسي جبلت عليه، ولكني بدلا من ذلك وجدت كنزاً نفسياً وقلباً كريماً، لقد رفعت روحي من الحضيض!".

وكانت شفتاه ترتعشان وهو يقول ذلك، فضحك راكتين وقال له بخبث: "لقد أنقذتك كما يبدو لي وهي التي كانت أن تأسرك في شباكها!".

فقالت جروشنكا: "اسكتا كلاكما، اسكت يا أليوشا فإن كلامك هذا يخجلني، لأني في الحقيقة شريرة، واسكت أنت يا راكتين لأنك لا تقول إلا كذباً!، لقد أردت حقاً أن أوقع أليوشا في شباكي، ولكن شعوري نحوه قد تغير، ولا أريد أن أسمع كلمة أخرى منك يا راكتين!".

وهنا قال راكتين: "يبدو إنهما قد جنا، لكأني في مستشفى للمجاذيب!"، فقالت جروشنكا: "أريد أن أبكي!، لقد دعاني بأخته ولن أنسى ذلك أبداً!"، ثم قامت وفتحت درجاً وأخرجت منه كيس نقود وتناولت ورقة بنكنوت بخمسة وعشرين روبلا وأعطتها إلى راكتين وهي تقول: "خذها، إنك لن ترفضها لأنك طلبتها بنفسك، أليس هذا هو الأجر الذي حددته أنت في مقابل إحضارك أليوشا إلي؟".

فبان الخجل على راكتين وحاول أن ينكر، ولكنه أخذ الورقة وهو يقول: "إن الحمقى مصدر رزق للعقلاء!".

ثم أخذت تقص على أليوشا كيف تركها حبيبها الضابط البولندي منذ

خمس سنوات بعد أن غرر بها ثم تزوج غيرها، وكيف صارت بعد ذلك تمضي الليالي ساهدة لا تفكر إلا فيه وفي الانتقام منه، حتى إذا تذكرها بعد أن ماتت زوجته وبعث إليها بخطابه، لم تدر أبغضه لما كان من غدره أم تصفح عنه وتعود إليه؟، واعترفت بأنها كانت تتسلى مع ديمتري كيلا تهرع إلى حبيبها الغادر ذليلة بائسة، ثم قالت:

- ما أحسبني قد صفحت عنه الآن، وكل ما هنالك أني مستعدة للصفح!، وسأجاهد نفسي، لقد اعتدت يا أليوشا أن أحب دموعي طوال السنوات الخمس الماضية!.

وأخيراً قام راكتين يريد الانصراف مع صاحبه فقالت جروشنكا: "أتذهب هكذا مبكراً يا أليوشا؟!"

فقال لها راكتين: "يمكنه أن يقضي الليلة معك إذا شاء، وفي هذه الحالة أنصرف وحدي!".

فقالت له: "أمسك عليك لسانك القذر!، قارن بين ما تلفظ به وبين ما قاله لي أليوشا!، إني لم أسمع قط مثل حديثه، لقد كنت أنتظر طول حياتي شخصاً مثله يحبني برغم ما بي من سوء!"

وفي هذه اللحظة اندفعت فنيا إلى الغرفة تصيح قائلة: "سيدتي، لقد جاء إليك رسول راكباً عربة من موكرو!، وها هو ذا الخطاب الذي جاء به!"، فشحب وجه جروشنكا وهي تتناول الخطاب وقالت: "لقد بعث في طلبي!".

وكان الخطاب مكوناً من بضعة أسطر فقرأته على عجل ثم قالت: "سأذهب إليه!، وداعاً يا أليوشا!، إن جروشنكا تفر إلى حياة جديدة!، وداعاً

إلى غير لقاء!، وأنت يا راكتين، إياك أن تذكرني بسوء!، إني أشعر كأني سكرى!، لا تنس يا أليوشا أن تحمل تحيتي إلى أخيك متيا (ديمتري)، وأرجو ألا يذكرني بسوء وإن كنت جئته بالشر!، لقد أحببته ساعة واحدة، فليتذكر تلك الساعة طول حياته!".

ولما خرجا من لدنها قال راكتين لأليوشا: "إن حبيبها هذا ضابط بولوني، بل الحقيقة أنه ليس ضابطاً الآن، وقد كان موظفاً بالجمارك في سيبريا على مقربة من حدود الصين، ثم خرج من وظيفته، وما أحسبه الآن إلا فقيراً طامعاً في مالها، فقد علم أنها تقتني ثروة صغيرة!.

فلم يجب أليوشا وعندئذ قال له: "لعلك لا تحتقرني من أجل الخمسة والعشرين روبلا التي أخذتها من جروشنكا!".

فقال له أليوشا: "ثق يا راكتين إني نسيتها لولا إنك ذكرتني بها!".

فقال له راكتين: "لتذهبوا جميعا إلى الشيطان، ماذا يعنيني من أمركم؟، إني لا أريد أن أعرفك بعد اليوم!".

لم يدر ديمتري أن جروشنكا قد فرت منه إلى حياة جديدة، فقد مكث طول اليومين الأخيرين في هياج دائم حتى خشي أن تصيبه حمى مخية كما ذكر فيما بعد، ولم يتح لأليوشا أن يلقاه، وكذلك إيفان لم يجده بالحانة، وكانت ربة البيت الذي يسكنه تخفي حركاته وتكتم تنقلاته كما أوصاها بشدة، وقد قضى ذينك اليومين وهو يقصد إلى كل مكان في سبيل الحصول على مال ينقذ به نفسه كما قال فيما بعد.

لقد أحبته جروشنكا، في صدق وإخلاص ساعة واحدة، ولكنها في مقابل ذلك عذبته طول الأيام والليالي، وكان يدرك أنها لا يجدي معها عنف ولا لين، ويوقن أنه إذا أغضبها فإنها تهجره إلى الأبد، وقد تبين أنها هي أيضاً تعاني حرباً في داخل نفسها، وأنها مترددة تريد أن تعتزم أمراً فلا تستطيع، ولكنه لم يصل به الحدس إلى خافية أمرها، وإنما ظن أنها إنما تترد في المفاضلة بينه وبين أبيه!.

وقد أيقن ديمتري أن أباه لا يحجم لحظة عن الزواج بها إذا رضيت، ولم يكن من البله بحيث يحسب أن مبلغ الآلاف الثلاثة كاف لإغرائها، وقد استنتج ديمتري ذلك من معرفته بجروشنكا وأخلاقها.

ومن عجب أنه طول ذلك الوقت لم يخطر له قط أن حبيبها الأول، ذلك "الضابط" البولوني، وقد يعود إليها، فقد مكثت هي لا تذكره أمامه قط، ولكنه كان يعلم أنها تسلمت منه خطاباً منذ شهر، فقد ذكرت له ذلك

وأطلعته فعلا على الخطاب، ومن عجب أنه لم يعره اهتماماً، إذ كان لا يتبين الخطر على حبه لها إلا من ناحية أبيه، وكان أشد ما يخشاه أن تصارحه يوماً بأنها اعتزمت الزواج بذلك الشيخ!، على أنه كان يمني نفسه بأن تؤثره على أبيه، وفي الوقت ذاته كان عليه أن يدبر المال اللازم للإنفاق عليها إذا تحققت هذه الأمنية!، وكان كذلك يرى قبل كل شيء أن يرد تلك الآلاف الثلاثة من الروبلات إلى كاترينا إيفانوفنا!.

إنه يعرف أين يوجد المال، ولكنه لا يريد إلا المال الذي يحق له أخذه شرعاً، وعلى ذلك اعتزم أن يبذل كل جهد حتى يحصل على المال بطريقته مشروعة!.

وفكر ملياً حتى خطر له أن يبيع مزرعة صغيرة كان قد ورثها عن أمه، ولا يزال بينه وبين أبيه نزاع عليها، إذ يزعم أبوه أنها صارت ملكا له وهو لا يقر ذلك، ورأى أن يقصد إلى (كوزما سامسونوف) ذلك التاجر الغني الذي كان حامي حمى جروشنكا سنوات طويلة، وكانت له به معرفة بسيطة ولكنه مع ذلك قصد إليه لعله يشتري منه حقوقه في تلك المزرعة!.

وقد رفض سامسونوف في البداية أن يستقبله وبعث مع الخادم يعتذر بمرضه، ولكنه ألح في مقابلته لأمر هام، ولما استقبله أخيراً قال له بأدب وجفاء معاً: "ماذا تريد مني يا سيدي؟".

فقال له ديمتري: "يا سيد كوزما كوزمتش المحترم، لا شك أنك سمعت بالنزاع الذي بيني وبين أبي إ سلبني ميراثي من أمي، ولعل جروشنكا- أعني أجرافينا إلكسندروفنا- التي أكن لها أكبر قدر من الاحترام، قد أخبرتك

بطرف من ذلك!، وأنا أؤكد لك على كل حال أن مزرعة تشرماشينا التي يدعي أبي الآن ملكيتها هي لي حقاً وشرعاً، وسوف يعيدها القضاء إلي، إنها تساوي ثلاثين ألف روبل، ولكن أبي القاسي لم يدفع لي في مقابلها نصف هذا المبلغ!، وإني مستعد أن أبيعك حقوقي فيها بثلاثة آلاف روبل فقط فتربح من هذه الصفقة سبعة آلاف روبل على الأقل! ".

وكان الشيخ سامسونوف يصغي إليه بضجر، حتى إذا انتهى قال له: "معذرة !، فإني لا أباشر صفقات من هذا القبيل! ".

ولكنه مع هذا دله على رجل يدعي (لياجا فى) في بلدة عينها له على بعد أربعين فرسخًا، لعله يعقد معه هذه الصفقة، فشكره ديمتري وانصرف وملء قلبه الأمل!.

وأراد أن يستأجر عربة تجرها الجياد ليسرع إلى تلك البلدة، ولما لم يجد معه نقوداً قصد إلى تاجر ساعات يهودي رهن لديه ساعته الفضية على ستة روبلات، وبعد جهد كبير استطاع الوصول إلى (لياجا فى) في بلدته وإذا به فلاحاً يسكن كوخاً بسيطاً، وكان في حال من السكر لا يكاد يعي معها حديثاً، وقد أنكر معرفته بسامسونوف، فأدرك ديمتري أخيراً أن سامسونوف إنما سخر منه إذا بعثه إلى هذا الرجل!.

وهكذا عاد إلى البلدة خاوي الوفاض، فقد أنفق في تلك الرحلة ما كان لديه من مال زهيد، وكان لديه مسدسان ثمينان لم يرهنهما لاعتزازه بهما، وقد ذكرهما مرة لصديق له تعرف إليه منذ مدة وجيزة في حانة متروبوليس، وكان موظفاً شاباً شغوفاً بجمع الأسلحة، فذهب إليه ورهنهما عنده على عشرة

روبلات، وأراد ذلك الصديق أن يشتريهما منه ولكن ديمتري أبى، وعلى ذلك أقرضه ذلك المبلغ بغير (فائدة) فقد رفض أن يقرضه بالربا، وبهذا ثبت فيما بعد أنه قبل ثلاث ساعات فقط من وقوع حادث معين، لم يكن بجيبه درهم حتى اضطر إلى أن يرهن مسدسين عزيزين عليه ليحصل على عشرة روبلات! وكان على عجل فأسرع صوب سقيفته خلف دار أبيه لكي يسأل سمرديا كوف أسئلته المعتادة، غير أنه علم من ماريا كوندراتيفنا- التي تسكن على مقربة من دارفيدوربافلوفتش- أن سمرديا كوف مريض، فقد أصابته نوبة صرع شديدة سقط منها على سلم القبو ودعي الطبيب ليعوده، وعلم من تلك المرأة أيضاً أن أخاه إيفان سافر إلى موسكو صباح اليوم نفسه!.

وقد أزعجه مرض سمرديا كوف، إذ كان قد كلفه أن يقوم بالرقابة، وأخذ يسأل تلك المرأة هل رأت شيئاً غير عادي في الليلة الفائتة؟ ثم أفصح وسألها:" ألم تأت شابة حسناء؟"، ولكنها طمأنته وأكدت له أنه لم يأت أحد!

ورأى أنه لابد أن يقوم بالرقابة بنفسه، ولكن أين؟، أها هنا تحت السقيفة، أم عند مدخل بيت سامسونوف، وأخيراً رأى أن يراقب هنا وهناك، ولكن بقي أن يحصل على المال بعد أن عجز عن إتمام الصفقة مع سامسونوف اللئيم!.

وفكر ديمتري في الأرملة الغنية مدام هولا كوف، ورأى أنها لن ترضى أن تشتري حقوقه في تلك الضيعة ولكنها قد تقرضه ثلاثة آلاف روبل، على أن تكون حقوقه في تلك الضيعة ضماناً للدين!.

ولم تكن بينه وبينها رابطة وثيقة، وهو لم يرها منذ شهر، وقد أبدت له

جانب البغض منذ خطب صديقتها كاترينا إيفانوفنا إذ كانت تؤثر عليه أخاه ايفان خطيباً لها، وخطر له أنها ما دامت لا تريد أن يتزوج صديقتها فإنها ستبادر إلى إقراضه ثلاثة آلاف روبل ليردها إلى كاترينا فينتهي الأمر بينهما!.

وقد استقبلته مدام هولا كوف استقبالا حسناً وقالت له: "لقد كنت أنتظر مجيئك!، تصور يا ديمتري إني صباح اليوم كنت أشعر شعوراً مبهماً بأنك في الطريق إليّ!".

فقال لها: "شكراً لك ياسيدتي!. لقد جئت لأمر هام، أمر ذي أهمية بالغة لي يا سيدتي، وأنا أبادر..."، فقطعت كلامه قائلة: "إني أعلم جئت لأمر هام، فقد كان لابد لك أن تأتي بعد ما حدث منك لكاترينا ايفانوفنا!"

فقال لها: "اسمحي لي بأن أشرح لك الأمر!".

فقالت: "هل علمت أن الأب زوسيما قد مات؟".

فقال: "هذه أول مرة أسمع بالنبأ، ولكن اسمحي لي بأن أشرح لك ما جئت من أجله! ".

فعادت مدام هولا كوف تقول: "إني أعرف سلفاً كل ما تريد أن تقوله لي!، لقد مكثت أفكر في أمرك وأرقبك عن قرب، ثق يا ديمتري بأني طبيبة نفسانية مدربة!".

فقال لها: "إذا كنت كذلك يا سيدتي فإني بحق مريض مرض نفساني، وما دام أمري يهمك فإني موقن الآن أنك ستمدين إليّ يد العون، لقد جئت يا سيدتي"، فقطعت كلامه مرة أخرى وقالت له: "لا داعي للإيضاح!، إنه أمر ثانوي، أما عن

مد يد العون إليك فلست أنت أول من أعاونه، لعلك سمعت بابنه عمي مدام بلمسوف، لقد نكب زوجها في ثروته فنصحت له بتربية الخيل، وهو ما يفعله الآن، هل لديك أية فكرة عن تربية الخيول يا ديمتري فيدوروفتش؟".

فقال لها: "كلا يا سيدتي!، ولكني عل عجل، وأرجو منك أن تمنحيني من وقتك دقيقتين اثنتين لأشرح لك ما جئت من أجله، لقد جئت إليك وأنا على حافة هاوية اليأس، جئت لكي أطلب إليك أن تقرضيني ثلاثة آلاف روبل بضمان، ودعيني أشرح لك الأمر".

وهنا أشارت إليه بيدها لكي يصمت وقالت له: "اشرح لي فيما بعد، فيما بعد، ومهما تقل لي فإني أعرفه سلفاً، إنك تطلب مبلغاً معيناً، ثلاثة آلاف روبل، ولكن يمكنني أن أعطيك أكثر من هذا المبلغ، إني سأنقذك من وهدتك يا ديمتري، ولكن يجب أن تصغي إلي!".

فقفز من فوق كرسيه فرحاً وقال: "ما أطيب قلبك يا سيدتي!، حقاً لقد أنقذتني من الموت!، وسأبقى ما حييت مدينًا لك بهذا الصنيع!".

فقالت له: "كفي يا ديمتري، لقد وعدتك أن أنقذك وسأفي بوعدي، سأنقذك كما أنقذك بلمسوف، ما رأيك في مناجم الذهب؟!".

فقال في دهشة: "مناجم الذهب؟!، إني لم أفكر فيها قط يا سيدتي!".

فقالت له: "لكني فكرت فيها من أجلك!، فكرت فيها تفكيرًا عميقًا، لقد كنت أرقبك طول الشهر الماضي كلما مررت أمام بيتي، وكنت أحدث نفسي قائلة: (إنه شاب مملوء نشاطاً، وينبغي له أن يكون عند مناجم الذهب)، والواقع أنني كنت أدرك ذلك من مشيتك! ".

فتساءل ديمتري وقد اشتدت دهشته: "من مشيتي يا سيدتي؟".

فأجابت قائلة: "هل تنكر أن أخلاق الإنسان تظهر من مشيته؟، إن العلم يؤيد ذلك!".

فقال لها: "لكن يا سيدتي، لقد وعدتني بإقراضي ثلاثة آلاف روبل أنا في حاجة شديدة إليها".

فقالت له في هدوء: "ثق بأنها في جيبك!، بل ثق بأن جيبك فيه ثلاثة ملايين لا ثلاثة آلاف!، إني أهدي إليك الفكرة، سوف تكتشف مناجم ذهب وتعود إلينا وأنت من أرباب الملايين، وتؤسس المشروعات وتساعد الفقراء، إنك ستكون رجلا شهيراً يا ديمتري، وستحتاج إليك وزارة المالية، خصوصاً في هذا الوقت الذي انخفضت فيه قيمة الروبل... ".

ولم يسع ديمتري إلا أن يقطع كلامها وقال لها وقد بدأ ينفذ صبره: "سيدتي، سأتبع نصيحتك، وسأسافر إلى حيث توجد مناجم الذهب، وسأزورك مرة أخرى خصيصا لبحث هذا الموضوع، ولكني الآن في حاجة عاجلة إلى الثلاثة الآلاف التي تفضلت فوعدتني بإقراضي إياها!".

فقالت له: "كفى يا ديمتري، إني أسألك: أتذهب إلى مناجم الذهب أم لا؟".

فأجاب في يأس: سأذهب إليها يا سيدتي فيما بعد!، ولكن الآن...".

وهنا أشارت إليه بيدها أن يكف عن الكلام، ثم نهضت ومضت إلى خزانة ذات أدراج عديدة وأخذت تبحث فيها عن شيء ما، فأدرك ديمتري

إنها ستعطيه الآلاف الثلاثة من غير أن تنتظر منه صكا ولا سواه، وأكبر في نفسه كرمها وسماحتها، وبعد دقائق مرت عليه كأنها أسابيع، عادت إليه مسرورة وقد أمسكت بأصابعها أيقونة فضية معلقة بخيط وقالت له: "هذه أيقونة من كييف، من مخلفات القديس الشهيد فارفارا، دعني أعلقها بعنقك وبهذا أعدك لحياتك الجديدة!".

ثم علقت الأيقونة بعنقه وهو على أحر من الجمر، وقالت له: "الآن يمكنك أن تذهب إلى مناجم الذهب!".

فقال لها: "شكراً لك على عطفك الجم!، ولكن لو علمت ضيق وقتي الآن، وشدة حاجتي إلى المبلغ، ومادمت بهذا الكرم فاسمحي لي بأن أصارحك بأني أحب فتاة بالبلدة، ولم أكن أمينًا في صلتي بكاتيا، أعني كاترينا ايفانوفنا، لأني وقعت في حب أخرى، وهي امرأة قد تزدرينها لأنك تعرفين كل شيء، ولكن لا يمكنني أن أتركها مطلقا ولذا أحتاج إلى ثلاثة آلاف روبل لكي....".

فقطاعته بلهجة حازمة: "دع كل شيء الآن!، خصوصاً الحب والنساء، إن هدفك يجب أن يكون مناجم الذهب دون غيرها!، وبعد أن تعود غنياً شهيراً، يمكنك أن تختار المرأة التي يرتاح إليها قلبك بين طبقات المجتمع العليا، وعندئذ تكون مسألة المرأة قد خلت، وتكون المرأة الحديثة قد احتلت مكانتها!".

فقال لها: "ليست هذه هي المسألة يا سيدتي... إنني....". ولكنها لم تعبأ بمعارضته ومضت تقول في حماسة: "إنني لا أعارض الحركة النسائية القائمة يا ديمتري؟.. بل إنما أؤيد تقدم المرأة وتحريرها... ماذا بك؟...".

وكان صبره قد نفذ فقام من مكانه وشبك يديه على هيئة توسل وقال لها: "يا سيدتي إنك تدفعينني إلى البكاء إذا أخرت ما وعدتني به!".

فقالت له: "ابك يا ديمتري!، ابك وأذرف الدمع، إن هذا شعور نبيل منك، إن الدموع تخفف عن القلب لوعته، وسوف تعود إلينا فرحًا، إنك سوف تسرع إلى من سيبريا لكي تشركني في فرحك!".

فقال لها: اسمحي لي يا سيدتي... لآخر مرة أرجو منك أن تخبريني: أتعطينني اليوم المبلغ الذي وعدتني به؟".

وهنا تساءلت مدام هولاكوف في دهشة بالغة: "أي مبلغ يا ديمتري؟!".

فقال متعجبًا بدوره: "مبلغ الثلاثة الآلاف روبل، لقد تفضلت فوعدتني بأن تقرضيني هذا المبلغ".

فقالت في تأكيد:"ثلاثة آلاف روبل؟، كلا، لست أملك هذا المبلغ!".

فكاد ديمتري يصعق من الدهشة وقال لها: "لكنك يا سيدتي قلت لي منذ لحظة إنها تكاد تكون في جيبي!".

فقالت: "كلا!، إنك أسأت الفهم يا ديمتري فيدوروفتش، لقد كنت أحدثك عن مناجم الذهب، صحيح أني وعدتك بأضعاف هذا المبلغ، إني أذكر ذلك الآن، ولكني كنت أقصد مناجم الذهب التي يمكن أن تدر عليك ثروة طائلة!".

فلم يستطع أن يتمالك نفسه وقال: "يا للشيطان!"، ثم ضرب المنضدة بقبضة يده وبصق على الأرض، وخرج مسرعًا إلى الطريق المظلم وهو يضرب

بيده على صدره كما فعل قبل يومين وهو يحدث أليوشا، إن هنا في صدره يكمن سر لم يفشه لأحد حتى ولا لأخيه الأصغر!، إن ذلك السر يعني عنده ما هو أكثر من العار، إنه يعني الخراب واليأس والانتحار!

ومضى في طريقه بلا هدف يقصده، وغلبه البكاء فأخذ يمسح دموعه بيده، حتى وصل إلى الميدان فاصطدم بإحدى المارات فوقعت على الأرض من شدة الصدمة، وسمع هو صرختها من الألم وأدرك أنها سيدة عجوز فأعانها على النهوض واعتذر لها، ثم تفرس في وجهها فإذا هي خادمة الشيخ سامسونوف فقال لها: "لقد رأيتك في بيت كوزما كوزمتش، أليس كذلك؟"

فقالت له: "نعم، وكنت ذاهبة إلى البقال بروهوريتش، ولكن من أنت؟، إني لا أعرفك!".

فقال لها: "أخبريني أيتها السيدة الطيبة، هل جروشنكا لدى سيدك الآن؟، لقد صحبتها إلى هناك منذ قليل!".

فقالت الخادمة: "لقد كانت عنده ومكثت برهة قصيرة ثم ذهبت!".

فصاح بها: "ذهبت؟، إلى أين؟!".

فقالت: "إنها لم تكد تدخل البيت حتى خرجت!، وقد أسرت إلى كوزما كوزمتش كلامًا جعله يضحك!".

فصرخ قائلًا: "أنت تكذبين!"، ثم تركها وجرى بأقصى سرعته إلى بيت جروشنكا، ولما وصل إليه كانت هي في طريقها إلى موكرو حيث ينتظرها حبيبها البولوني!.

وكانت خادمتها فنيا جالسة بالبيت مع جدتها ماتريونا الطاهية العجوز، فصرخت الفتاة فزعًا حين رأته ولم يفته ذلك فقال: "أنت تصرخين، أين هي؟".

ولم يترك لها فرصة لكي تجيب بل ركع عند قدميها وقال لها: "بالله يا فنيا خبريني أين هي؟".

فقالت له: "لا أدري يا عزيزي ديمتري، لا أدري! يمكنك أن تقتلني ولكني لن أخبرك، لقد ذهبت أنت نفسك معها منذ ساعات!".

فقال لها: "لكنها عادت وحدها!"، فقالت: "كلا!، لم تعد، أقسم لك!".

فقال لها: "إنك تكذبين!، إن الخوف الذي أنت فيه يدلني أين هي!". ثم هم بالانصراف، ولكنه لمح على المنضدة هاونًا من نحاس له يد غليظة قصيرة لا يزيد طولها على ست بوصات، فاختطف هذه اليد ووضعها في جيبه وخرج!

وعندئذ صاحت فنيا تقول: "رباه!، إنه سيقتل أحدًا!".

* * *

حدث ديمتري نفسه قائلًا: "أين يمكن أن تكون جروشنكا الآن إلا في بيت أبي؟، لا شك أنها جرت إليه بعد أن غادرت بيت سامسونوف، إن الأمر واضح، ولم ير فائدة من الذهاب إلى الجارة ماريا كوندراتيفنا، إذ أيقن أنها شريكة في المؤامرة، وإنما اعتزم أمرًا آخر، فسار في طريق طويلة حول دار فيدور بافلوفتش حتى وصل إلى الزقاق الذي خلف الحديقة، وكان في تلك

الساعة مهجورًا لا يمر به أحد، وكان على أحد جانبيه سياج حديقة المطبخ في دار أحد الجيران، وعلى الجانب الآخر سور سميك مرتفع لحديقة دار أبيه، فتسلق ديمتري هذا السور، ثم جلس هناك يرقب نوافذ البيت المضاءة وهو يقول لنفسه: "أجل، إن غرفة الشيخ مضاءة، لابد أنها هنا!"، وكان يعرف أن جريجوري وسمردياكوف مريضان في فراشهما، ولكنه مع ذلك اختبأ كيلا يراه أحد، وقبع في مكانه مصغيًا متربصًا!، لكنه لم يسمع شيئًا إذا شمل المكان سكون كسكون الموت!.

ثم مشى فوق السور متلصصًا حتى وصل إلى حيث النافذة المضاءة بغرفة النوم، وكان تحت هذه النافذة أشجار قديمة، وكان الباب المؤدي من الحديقة إلى الدار مغلقًا، وقد لحظ ذلك عند مجيئه، ثم وصل إلى تلك الأشجار، واختبأ وراء إحداها، وانتظر هناك دقيقتين وكان قلبه يدق دقًا سريعًا حتى ليوشك أن يقف، ثم خطا بحذر ووقف على أطراف أصابع قدميه، حتى استطاع أن يرى ما بداخل الغرفة، ولم تكن بالفسيحة، وقد قسمت قسمين، وكانت ثمة ستارة صينية تستر قسمًا منهما، فقال يحدث نفسه: "لابد أن جروشنكا وراء هذا الستار"، ثم أخذ يرقب أباه، وكان مرتديًا جلبابًا حريريًا جديدًا، وحول وسطه حزام تتدلى منه شرابتان، وفوق الجزء الأعلى من الجلباب قميص كتاني نظيف عليه أزرار من ذهب، ولا تزال على رأسه تلك اللفافة الحمراء التي كان قد لف بها رأسه عقب ما أصابه من رضوض وجروح!.

وكان الشيخ واقفًا على مقربة من النافذة، مستغرقًا في الفكر، ثم رفع رأسه فجأة متنبهًا، ولما لم يسمع شيئًا ذهب إلى المنضدة التي بالغرفة وصب

لنفسه خمرًا في كأس وتجرعها!، ثم صدرت عنه آهة عميقة، وبعدها أخذ ينظر إلى نفسه في المرآة التي على الحائط، ورفع اللفافة عن جبهته قليلًا ليرى ما بها من رضوض وجروح لم تزل آثارها بعد!.

وقال ديمتري يحدث نفسه: "إنه وحده!، إن كل الدلائل تدل على أنه وحده" ثم ترك فيدور فافلوفتش المرآة وذهب إلى النافذة وأطل منها، فتوارى ديمتري خلف الشجرة حتى لا يراه في الضوء المنبعث من النافذة، ثم عاد يقول لنفسه والألم يدمي قلبه: "قد تكون هناك خلف الستارة، ربما تكون الآن نائمة"، ولكنه لم يلبث حتى قال: "إنه يطل من النافذة لعله يراها آتية، وإلا فلماذا يطل هكذا في الظلام؟، يبدو عليه أنه قد نفد صبره!".

ثم تراجع وعاد ينظر إلى داخل الغرفة من خلال النافذة، وكان أبوه الشيخ قد جلس إلى المنضدة بادي الأسى مسندًا خده الأيمن إلى يده، وجعل متيا (ديمتري) يرقبه لحظة ثم قال: "إنه وحده!، ولو كانت جروشنكا عنده لما بدا هكذا حزينًا"، ولكنه لم يلبث حتى عاوده الشك وتولاه الغضب وأخذ يقول لنفسه: "أتراها هنا أم لا؟". ثم حسم أمره فجأة، وقرع النافذة بالإشارة التي عرفها من سمردياكوف، أولًا ضربتين في بطء، ثم ثلاث ضربات سريعة متوالية، ومعنى هذه الإشارة أن جروشنكا قد جاءت!

ففزع الشيخ وقفز من مكانه وجرى صوب النافذة، وعندئذ اختبأ ديمتري في الظلام.

وهمس الشيخ قائلًا: "جروشنكا؟، أهذه أنت؟، أين أنت يا ملاكي؟".

وكان بادي التأثر يكاد تنقطع أنفاسه، فأدرك ديمتري أنه وحده، وعاد

الشيخ يقول: "أين أنت؟ تعالي إلي، لقد أعددت لك هدية صغيرة".

وكان قد أبرز رأسه من النافذة حتى بدا كتفاه، فقال ديمتري لنفسه: "إن تلك الهدية هي لا شك الآلاف الثلاثة من الروبلات!".

ثم قال الشيخ بصوت أعلى من قبل: "أين أنت؟، هل أنت بالباب؟، سأفتح لك توًّا!."

وكاد الشيخ يقفز من النافذة وهو ينظر يمينًا حيث الباب المؤدي إلى الحديقة، يحاول أن يبصر في الظلمة المحيطة بالمكان!.

ونظر إليه ديمتري من مكانه، فشعر نحوه ببغض لا يوصف، فها هنا غريمه ومنافسه الذي عذبه وحطم حياته، فماذا لو أنه أخرج من جيبه يد الهاون!

وفي اللحظة نفسها رأى جريجوري قادمًا، وكان قد أبل من مرضه بعد أن شرب الدواء الذي أعدته زوجته ونام نومًا عميقًا، فقام يجوس خلال الحديقة للحراسة بينما زوجته لا تزال مستغرقة في نومها من أثر بقية الدواء التي تجرعتها، ثم تذكر بغتة قبل أن يأوى إلى فراشه أنه لم يكن قد أغلق مدخل الحديقة الصغير، ثم نظر إلى نافذة غرفة سيده فرآها مفتوحة فعجب لذلك إذ لم يكن الوقت صيفًا حتى تفتح، ثم نظر فرأى على بعد أربعين خطوة منه رجلًا يجري على أرض الحديقة في الظلام وكأنه شبح من الأشباح، فنسى الألم الذي ما يزال يحسه في ظهره وأسرع لإدراك ذلك الرجل واستمر يعدو خلفه حتى وصل إلى مبنى الحمام حتى لحق به وهو يتسلق سور الحديقة، وانقض عليه ممسكًا إحدى قدميه بيدين كالحديد، ولم يخطئ حدسه فقد عرفه

لتوه وأدرك أنه ديمتري فصاح به: "لقد قتلت أباك!".

وأخذ يصرخ "لقد قتل أباه!" حتى أيقظ الحي كله، ولكنه لم يلبث حتى سقط على الأرض ولا صوت به ولا حراك!.

وعاد ديمتري فقفز إلى أرض الحديقة وانحنى على جريجوري، وكانت يد الهاون النحاس ما زالت في يده فرماها بحركة آلية على الأرض على بعد خطوتين من جريجوري، ثم أخذ يفحص جسد الشيخ المنبطح على الأرض، وقد غطى الدم رأسه، فمد يده إليه وأخذ يتحسسه، فقد خاف أن يكون قد حطم جمجمته بيد الهاون ولكن الدم كان ينزف من رأس جريجوري غزيرًا حتى غمر أصابع ديمتري، فأخرج من جيبه منديلًا أبيض نظيفًا كان قد حمله في مناسبة زيارته مدام هولاكوف، ووضعه على رأس الرجل ليمسح الدم من وجهه وعارضيه، وسرعان ما بلله الدم المنسكب، وعندئذ أدرك ديمتري هول الموقف وقال لنفسه: "رباه! ماذا فعلت؟ أتراني حطمت جمجمته؟"، وفكر لحظة ثم قال: "إذا كنت قد قتلته فقد انتهى الأمر، ولا حيلة لي في دفع ما زج بنفسه إليه!"، ثم تسلق السياج وهبط في الزقاق الخلفي، وشرع يجري ولا يزال المنديل المبلل بالدم في قبضة يده اليمنى ثم وضعه في جيبه الخلفي، واستمر يجري، حتى أن المارة الذين صادفهم في الطريق تذكروا فيما بعد أنهم رأوا رجلًا يجري في تلك الليلة، حتى وصل إلى دار الأرملة موروزوف التي تسكن جروشنكا في المبنى الملحق بها!.

وكانت (فنيا) بعد أن ذهب ديمتري قد قصدت إلى البواب نازار إيفانوفتش وطلبت إليه ألا يدع الكابتن (تقصد ديمتري بافلوفتش) يدخل إذا

جاء في ذلك اليوم أو في غده، ووعدها نازار بذلك ولكن سيدته أرسلته بعد حين لشراء شيء، فعهد إلى ابن أخيه، وهو فتى جاء من الريف حديثًا، أن يجلس بجانب الباب في مكانه حتى يعود، ونسى أن يخبره بأمر ديمتري، فلما جاء هذا عرفه الفتى وفتح له الباب توًا إذ كان قد أعطاه منحة نقود (بقشيش) أكثر من مرة، وبادر إلى إخباره في سذاجة، بأن أجرافينا إلكسندروفنا ليست بالبيت!

فسأله ديمتري: "وأين هي إذن يا بروهور؟".

فأجاب: "لقد سافرت منذ ساعتين إلى موكرو".

فسأله: "لماذا سافرت؟"، فأجاب الفتى قائلًا: "لا أدري!، لكن يقال إنها ستلقي ضابطًا هناك، فقد جاء رسول منه إلى هنا بالعربة فركبت معه!".

فكاد ديمتري يجن حين سمع ذلك، وجرى إلى حيث الخادمة فنيا، وكانت هذه جالسة بالمطبخ مع جدتها وقد تأهبتا للنوم، فاقتحم (متيا) عليهما الباب وانقض على فنيا وأمسك بخناقها وصاح بها: "قولي أين هي!، ومع من هي الآن في موكرو؟".

فصرخت المرأتان فزعًا وقالت له فنيا: "سأقول لك يا ديمتري، يا عزيزي، سأقول لك كل شيء توًّا، ولن أخفي عليك شيئًا، لقد ذهبت إلى موكرو ولتلقي الضابط البولوني الذي كانت تعرفه منذ خمس سنوات!".

وعندئذ ترك ديمتري خناق الخادمة ووقف شاحب الوجه، وقبعت الفتاة المسكينة في مكانها وهي ما زالت ترتعد خوفًا، ومما زاد رعبها أن يديه كانتا ملوثتين بالدم، ولعله وهو يجري في الطريق كان قد لمس جبهته وخده بيده

ولذا كانت عليهما أيضًا آثار الدم!، وهذا الذي جعل فنيا تنظر إليه وقد ارتسم الرعب على ملامح وجهها، أما جدتها الطاهية العجوز فكانت تحملق فيه ذاهلة!.

ووقف لحظة أمامهما ثم جلس على مقعد بجوار فنيا، وكأنما شل منه الفكر في تلك اللحظة، على أن كل شيء كان واضحًا أمامه؛ فإنه كان قد سمع عن ذلك (الضابط) من جروشنكا نفسها، وكان قد علم منها أنها تسلمت منه خطابًا، وكان ذلك منذ شهر، وهكذا سار كل شيء خفية طول هذا الشهر، فلماذا نسي أمر هذا المنافس بعد أن علم به؟، إنه جعل الآن يسأل نفسه عن هذا السؤال، وهو في دهشة من غفلته!.

ثم أخذ يسأل فنيا في لين ورفق وكأنه لم يملأ قلبها رعبًا منذ لحظة، وأخذت هي تجيب عن كل سؤال منه في صدق وإخلاص، وإن ظلت تنظر في خوف إلى الدم الذي فوق يديه ووجهه، وذكرت له تفصيل ما حدث في خلال اليوم، من زيارة راكتين وأليوشا لسيدتها وما دار بينهما وبينها، وكيف أطلت جروشنكا من النافذة بعد خروج أليوشا طالبة إليه أن يبلغه تحياتها وأنها أحبته مدة ساعة، ولما سمع ديمتري ذلك ابتسم وأشرق وجهه وصعد الدم إلى خديه الشاحبين، ثم قالت له فنيا بغتة:

– انظر إلى يديك يا ديمتري.

فنظر إلى يديه في غير اكتراث وقال: "نعم"، ثم سكت برهة، ووقف فجأة كأنه اعتزم أمرًا، فقالت له فنيا وهي تشير إلى يديه: "ماذا جرى يا سيدي؟".

فنظر إلى يديه وقال لها في هدوء: "هذا دم يا فنيا، دم إنسان، رباه! لماذا سكب هذا الدم؟، غدا حين يطلع النهار تسمعين وتعرفين، والآن وداعًا، إني لن أقف عائقًا في سبيل سيدتك، بل أعرف كيف أنتحي بنفسي جانبًا، عيشي واستمتعي بحياتك يا جروشنكا!، لقد أحببتني ساعة كما تقولين، فتذكريني إلى الأبد، تذكري متينكا كما كنت تدعونني!".

وخرج (ديمتري) فجأة كما دخل فجأة!، وبعد عشر دقائق ذهب إلى (بيوتر إيليتش برهوتين) ذلك الموظف الشاب الذي رهن عنده مسدسيه، وكانت الساعة الثامنة والنصف مساء، وقد ارتدى الشاب ملابسه ليقصد إلى حانة مترو بوليس حيث يلعب البلياردو، ولما رآه ملوث الوجه بالدم صاح به قائلًا: "رباه! ماذا جرى؟".

فقال له ديمتري: "لقد جئت إليك أسترد المسدسين وأحضرت لك نقودك، شكرًا جزيلًا، إني على عجل يابيوتر إيليتش فاسرع!".

فازداد بيوتر إيليتش دهشة، ونظر فرأى في يد (متيا) رزمة من ورق البنكنوت، وكان قد أمسك بها ودخل بها البيت بشكل غير معتاد، ومد بها يده اليمنى يريد أن يريه إياها، وقد شهد الغلام خادم بيوتر إيليتش فيما بعد بأنه رآه قبل دخوله البيت يسير في الممر حاملًا ورق البنكنوت في يده على ذلك الشكل، ولعله إذن كان يحملها هكذا في الطريق وكانت كلها أوراقًا من فئة مائة روبل وكانت أصابعه التي تقبض عليها مغطاة بالدم!.

ولما سئل بيوتر إيليتش فيما بعد عن قدر تلك النقود قال إن من الصعب تقديرها ولكن قد تكون ألفي روبل وربما ثلاثة آلاف، ولكنها كانت على أي

حال رزمة كبيرة من ورق النقد، وشهد كذلك بأن ديمتري فيدوروفتش كان يبدو وقتئذ في طور غريب، فهو لم يكن بالسكران ولكنه كان في ذهول عن كل شيء، مستغرق الفكر، ظاهر التردد، وكان عجولًا إلى حد كبير!.

وصاح به بيوتر إيليتش: "ماذا دهاك؟، ماذا جرى؟، ومالك هكذا مغطى بالدم؟، هل سقطت وجرحت؟".

وقاده من كوعه وأراه نفسه في مرآة، فلما رأى متيا (ديمتري) وجهه صاح قائلًا في غضب: "يا للشيطان!، لم يبق إلا هذا!"، وأسرع فنقل أوراق النقد من يده اليمنى إلى يده اليسرى، وأخرج منديله من جيبه بحركة آلية، ولكن المنديل أيضًا كان مغموسًا في الدم (وهو الذي مسح به وجه جريجوري)، حتى لم تبق به نقطة بيضاء، وكان الدم قد جمده حتى صار كالكرة فرماه على الأرض، وقال لبيوتر إيليتش: "أليست لديك خرقة لأمسح بها وجهي؟".

فقال له: "إذن أنت ملوث بالدم من غير جرح!، هيا إلى هذا المغسل، وسأصب لك الماء لتغسل وجهك!".

فقال ديمتري: "حسنًا!، ولكن أين أضع هذه؟" وأشار إلى رزمة ورق النقد التي معه، فقال له بيوتر إيليتش: "ضعها في جيبك أو على المنضدة، إنها لن تضيع!".

فقال له: "صدقت!، في جيبي!، ولكن هيا بنا أولًا نسوي مسألة المسدسين، ردهما إلي، وهاك العشرة روبلات، إني في حاجة شديدة إلى المسدسين، وليس عندي وقت أضيعه!".

وسحب أول ورقة من الرزمة وبسط بها يده فقال له بيوتر إيليتش:

"ولكن هذه ورقة بمائة روبل، وليس عندي بقيتها، أليس معك ورقة أقل قيمة من هذه؟".

فنظر متيا إلى رزمة ورق النقد التي في يده وقلب بعضها وقال: "كلا، إنها كلها ذات قيمة واحدة!".

وعندئذ سأله بيوتر إيليتش: "ولكن أنى لك هذه الثروة المفاجئة؟، انتظر، سأبعث غلامي إلى بلوتنيكوف البقال لعله يبدل بهذه الورقة أوراق نقد صغيرة، تعال يا ميشا!.

ونادى الغلام ميشا، فقال ديمتري: "إلى دكان بلوتنيكوف، هذا بديع!"، ثم التفت إلى الغلام وقال له: "اجر إلى دكان بلوتنيكوف وقل له إن دميتري فيدوروفتش يبعث إليك بتحياته وسيوافيك توًّا، وقل له يجهز صندوقين من زجاجات الشمبانيا لآتي فآخذهما إلى موكرو!".

ثم التفت إلى بيوتر إيليتش وقال له: "لقد أخذت معي إلى موكرو في المرة الماضية ثلاثة صناديق من زجاجات الشمبانيا!".

واستطرد يقول للغلام: "أبلغه أيضًا أن يعد جبنًا وفطائر وسمكًا مقددًا ولحم خنزير وبطارخ وكل شيء مما عنده، مما تبلغ جملة ثمنه مائة روبل أو مائة وعشرين كما في المرة الماضية، ولكن انتظر: قل له لا ينسى الحلوى والكمثرى والبطيخ والشوكولاتة، أي كل صنف مما أخذته معي إلى موكرو في المرة السابقة، لغاية ثلاثمائة روبل غير ثمن الشمباني، تذكر كل ذلك يا ميشا!".

والتفت إلى بيوتر إيليتش وسأله: "أليس اسمه ميشا؟".

فقال له: "خير لك أن تذهب بنفسك وتخبره لأن ميشا سينسى!".

فقال: "نعم، أراه سينسى مع أني كنت سأقبله إذا أنجز هذه المهمة!، سأعطيك عشرة روبلات إذا لم تخطئ، فهيا أسرع، إن الشمبانيا هي أهم شيء، والبراندي والنبيذ الأحمر، والأبيض، وكل ما أخذته معي من صنوف في المرة السابقة، إنهم في الدكان يعرفون ما اشتريته وقتئذ!".

فقال له بيوتر إيليتش وقد نفد منه الصبر: "دعه يسرع ويبدل ورقة البنكنوت هذه عند بلوتنيكوف ويقل له لا يغلق دكانه حتى تذهب أنت إليه!".

وكان الغلام قد وقف طول تلك المدة فاغرًا فاه لعله يعي مطالب ديمتري، وكان في الوقت نفسه ينظر إلى الدم الذي على وجهه ويديه خائفًا منه، ولما خرج طوعًا لأمر سيده قال هذا لديمتري: "الآن هيا اغسل وجهك وضع النقود على المنضدة أو في جيبك، هذا حسن، والآن اخلع معطفك".

وساعده على خلع معطفه، وما لبث حتى قال له: "انظر، إن معطفك أيضًا ملوث بالدم!".

فقال ديمتري: "إنه قليل من الدم على الكم، حيث وضعت المنديل، لابد أن الدم قد نقع فوصل إلى الكم، لقد جلست على المنديل، حين كنت مع فنيا، فتسرب منه الدم!".

وقال له بيوتر عابسًا: "لا شك أنه حدث شيء!، لعلك كنت تتشاجر مع أحد؟".

وأخذ ديمتري يغسل وجهه ويديه، وبيوتر يصب له الماء من إبريق، وكانت يدا ديمتري ترتعشان حتى لا تكادان تمسكان بالصابون (وقد تذكر بيوتر إيليتش ذلك فيما بعد)، ولكن هذا أصر على أن يغسل ديمتري يديه وأصابعه جيدًا، وكان بيوتر شابًا جادًا مستقيمًا، فزاد في تلك الدقائق سلطانه على ديمتري، وصار هذا يخضع له، ثم قال له: "انظر، إنك لم تغسل أظافرك جيدًا، والآن اغسل وجهك، هنا على عارضيك، وأذنيك، أتذهب بهذا القميص؟، وإلى أين تذهب!، انظر، إن حاشية الكم ملوثة بالدم!".

فنظر ديمتري إلى كم قميصه وقال: "حقًا!.. ولكن ليس لدى متسع من الوقت، سأطوي كم القميص فلا يراه أحد تحت معطفي!".

ثم قال له الشاب: "هل تشاجرت مع أحد في الحانة كعادتك؟، ترى من الذي ضربته هذه المرة؟، أم لعلك قتلت أحدًا؟".

فقال ديمتري: "هذا هراء، لا تزعج نفسك!، لقد هشمت امرأة عجوزًا في السوق بل رجلًا شيخًا!".

فتساءل بيوتر: "امرأة عجوز أو رجل شيخ؟! هل قتلت أحدًا؟".

فأجاب ديمتري: "لقد سوينا خلافنا!، تشاجرنا ثم اصطلحنا، في مكان أعرفه وافترقنا صديقين، إنه أحمق، وقد صفح عني، لا شك أنه صفح عني الآن!".

ثم قال بغتة: "إذا قام من سقطته فلن يصفح عني، لعنة الله عليه! لا تشغل بالك به يا بيوتر!".

فسأله هذا: "لماذا تثير المشاجرات في كل مكان؟، لقد تشاجرت، ثم ها أنت ذا تسارع إلى التماس المتعة والمرح!، وتشتري صناديق الشمبانيا! ماذا تفعل بهذه الزجاجات كلها؟".

فقال ديمتري: "ليس لدى متسع من الوقت للشرح، والآن أعد إلى المسدسين، أود لو أتحدث معك طويلًا، ولكني لا أملك وقتًا الآن، ثم لا حاجة بي الآن إلى الحديث فقد فات الوقت، أين النقود؟ أين وضعتها؟".

وتحسس جيوبه بيديه فقال له بيوتر إيليتش: "لقد وضعتها على المنضدة، هل نسيت؟ يبدو لي أن النقود في نظرك كالماء أو القذارة، إليك مسدسيك، حقًّا إن مما يدعو إلى العجب أن ترهنهما لدى الساعة السادسة مساء على عشرة روبلات ثم تأتي الآن ومعك آلاف!، ألفان أو ثلاثة كما أظن!".

فضحك ديمتري وقال: "ثلاثة آلاف!".

ووضعها في جيب سراويله، فقال له صاحبه: "إنها تضيع منك إذا وضعتها هكذا، هل كشفت منجم ذهب!".

فصاح ديمتري قائلًا: "منجم ذهب؟، أنت أيضًا تذكر مناجم الذهب؟، أتحب أن تذهب إلى مناجم الذهب يا برهوتين؟، هناك سيدة تعطيك ثلاثة آلاف روبل إذا رضيت أن تذهب إلى مناجم الذهب، لقد فعلت ذلك لي لأنها شغوف بمناجم الذهب!، أتعرف مدام هولاكوف؟".

فقال له هذا: "إني لا أعرفها ولكني سمعت عنها ورأيتها، هل أعطتك فعلًا ثلاثة آلاف روبل؟".

فقال له ديمتري: "اذهب إليها صباح غد حين أشرق الشمس واسألها هل أعطتني ثلاثة آلاف، أم لا!، حاول أن تعرف ذلك منها!".

فقال بيوتر: "لا أدري ما علاقتك بها!، لكني أحسبها أعطتك هذا المبلغ، وهو في يدك، وبدلًا من أن تذهب إلى سيبريا حيث مناجم الذهب ها أنت ذا تنفقه بلا حساب، أين تذهب الآن حقًا؟".

فقال ديمتري "إلى موكرو!...".

وسأله بيوتر: "أفي هذا الوقت من الليل تسافر إلى موكرو؟".

فصاح ديمتري فجأة: "كان الفتى يملك كل شيء فأصبح لا يملك شيئًا!".

فسأله بيوتر: "كيف لا تملك شيئًا ومعك كل هذه الآلاف؟".

فأجاب: "إني لا أتحدث عن المال ولكن عن طبائع النساء!".

فقال بيوتر: "لست أفهم حرفًا مما تقول!"، فقال له ديمتري: "أتحسبني سكران؟".

فأجاب بيوتر: "كلا.. بل أحسب أن في الأمر ما هو شر من ذلك!".

فقال ديمتري: "إني سكران الروح يا بيوتر إيليتش، ولكن كفى!".

ثم فتح أنبوبة الرصاص في أحد المسدسين وقبل أن يعبئها أمسك رصاصة بين إصبعيه أمام الشمعة، فقال له صاحبه: "لماذا تنظر إلى الرصاصة هكذا؟".

فقال له: "إذا اعتزمت أن تطلق رصاصة على رأسك، هل تنظر إليها أم لا؟، إنها ستدخل في رأسي، ولهذا انظر إليها، ولكن هذه حماقة!، وقد انتهت، يا عزيزي بيوتر إيليتش إن هذا كله عبث، أعطني رقعة من الورق!".

فأعطاه بيوتر إيليتش رقعة ورق، وتناول ديمتري قلمًا وكتب عليها سطرين، ثم طواها ووضعها في جيبه، ووضع المسدسين في علبتهما وأمسكها بيده، ثم نظر إلى بيوتر إيليتش مبتسمًا وقال: "والآن لنذهب!".

وعاد هذا يسأله: "إلى أين نذهب؟، ولكن انتظر، هل تعتزم حقًا أن تطلق هذه الرصاصة على رأسك؟".

فقال له: "لقد كنت أمزح!، إني أريد أن أعيش لأني أحب الحياة!، أتدري يا عزيزي كيف ينتحي الإنسان جانبًا؟".

– ماذا تعني بذلك؟.

– أعني ألا يقف الإنسان في طريق من يحبه، أو من يكرهه، وهذا الذي يجعل من أكرهها عزيزة علي!، ثم أقول لها ولصاحبها: "سيرافي طريقكما، بارككما الله!"، بينما أنا...

وسكت فلم يتم عبارته، ولما طلب إليه بيوتر أن يتم حديثه أجابه قائلًا: "كفى!، هيا بنا نخرج!".

فنظر بيوتر إيليتش إليه نظرة فاحصة وقال له: "حقًا، يجدر بي أن أغري أحدًا بأن يحول دون ذهابك إلى هناك، لماذا تذهب إلى موكرو؟".

– هناك امرأة!، والآن اسكت فقد علمت ما فيه الكفاية!.

– أصغ إلى، لقد أحببتك دائمًا برغم طباعك الهمجية، وأنا الآن قلق عليك!.

– شكرًا لك أيها الصديق، صدقت، إني همجي كما تقول، هذا ميشا قد عاد ودخل ميشا حاملًا في يده عددًا من أوراق البنكنوت أبدلها بالورقة ذات المائة روبل، وقال إن جميع من بدكان بلوتنيكوف هم الآن في شغل شاغل لتجهيز طلبات ديمتري، فأعطى هذا عشرة روبلات إلى بيوتر إيليتش وعشرة أخرى إلى الغلام الخادم، واحتج بيوتر على هذه الهبة السخية لخادمه قائلًا: "إنها عادة سيئة، ادخر لنفسك هذه الورقة فلعلك تحتاج إليها غدًا بعد أن تبعثر مالك!".

فقال له ديمتري: "لماذا لا تذهب معي إلى موكرو؟".

فأجاب بيوتر: "ما الذي يدعوني إلى ذلك؟".

فقال له ديمتري: "إذن دعنا نفتح زجاجة الآن ونشرب معًا نخب الحياة!، إني أريد أن أشرب معك، إني لم أشرب معك خمرًا قط، أليس كذلك؟".

فقال بيوتر: "إذن هيا بنا إلى حانة متروبوليس!"، ولكن ديمتري لم يوافق على ذلك وقال: "ليس عندي متسع من الوقت، فلنشرب معًا في الغرفة الخلفية بدكان بلوتنيكوف، ألا تريد أن أريك لغزًا؟".

وأخرج من جيبه الورقة التي كتبها عنده وأطلعه على ما فيها فإذا هو: "إني أقتص من نفسي لحياتي، وأقتص من حياتي لنفسي!".

فقال بيوتر إيليتش: "لابد أن أكلم أحدًا، سأذهب الآن!".

فقال له ديمتري: "لن تجد الوقت الكافي يا عزيزي، هيا نشرب معًا!".

وكان دكان بلوتنيكوف عند ركن الشارع لا يفصله سوى بيت واحد عن بيت بيوتر إيليتش، وهو أكبر دكان للبقالة في البلدة، ويملكه بعض التجار الأغنياء، وبه سلع كثيرة متنوعة منظمة تنظيمًا حسنًا حتى ليضارع أي محل مماثل في بطرسبورج، وكان به ثلاثة بائعين مساعدين وعاملان لحمل البضائع إلى المنازل.

* * *

وكانوا ينتظرون في الدكان مجيء ديمتري بصبر نافد، لأنهم لم ينسوا بعد ما ابتاعه منهم في المرة السالفة حين ذهب إلى موكرو وقد اشتهرت وقتئذ قصته بالبلدة كلها إذ ركب مع جروشنكا إلى موكرو وأنفق هناك ثلاثة آلاف روبل في أقل من ٢٤ ساعة! ثم عاد إلى البلدة مفلسًا!، وبقى الأهالي حينًا من الزمن يتندرون بما حدث منه إذ ذاك إذ أخد يوزع الشمبانيا على الفلاحين خشني الأيدي في المنطقة، كما أخذ يمنح الفلاحات أفخر الحلوى والفطائر!، وكانت هناك جماعة من الغجر معسكرة خارج البلدة فكان في سكره يدعو أفرادها إلى ولائم يغدق عليهم فيها بغير حساب!، على أن أحدًا من أهل البلدة لم يكن يستطيع أن يسخر منه أو يتندر عليه إلا في غيبته!.

ولما وصل ديمتري وبيوتر إيليتش إلى دكان البقال وجدا عربة مستعدة قد ربطت إلى ثلاثة جياد، ووقف الحوذي أندريا ينتظر عند مدخل المحل، وكان ديمتري قد كلفه ذلك إذ صادفه في طريقه إلى بيت بيوتر إيليتش وكان

الحوذي الذي ركب معه ديمتري وجروشنكا إلى موكرو في المرة السابقة واسمه (تيموفي) قد سبق بعربته مع جروشنكا ورسول حبيبها البولوني، وقال أندريا لديمتري: "إنهم لن يسبقونا في الوصول إلى موكرو إلا بساعة واحدة، لأني أعرف بطء عربة تيموفي!".

فقال له ديمتري: "سأعطيك خمسين روبلًا إذا وصلنا بعدهم بساعة واحدة!".

وأخذ ديمتري يذكر السلع التي يريدها من غير ترتيب، إذ كان مضطرب الفكر حتى ليبدأ جملة ثم ينسى أن يتمها!، ثم جلس مع صاحبه إلى مائدة يحتسيان بعض الخمر في خلال إعداد البضاعة، وكان بيوتر يعجب من إسرافه في تلك الطلبات وينصح له بالاقتصاد فيها ولكن بلا جدوى!.

وإنه ليتأهب أخيرًا لركوب العربة بعد أن وضعت البضاعة فيها، وإذا بالفتاة فنيا تبدو قادمة ثم تركع أمامه رافعة يديها وتتوسل إليه قائلة:

– يا ديمتري فيدوروفتش، يا سيدي العزيز، بالله لا تنل سيدتي بسوء، إنني أنا التي أفشيت سرها لك، ولا تقتل صاحبها كذلك، تذكر أنه كان حبيبها قبلك وأنه سيتزوجها، ولهذا عاد من سيبريا، لا تقتل أحدًا يا عزيزي ديمتري فيدوروفتش!

فأنهضها وقال لها: "لا تكوني حمقاء!، إني لن أؤذي أحدًا".

ثم صعد إلى العربة فأعمل الحوذي سوطه في الجياد، وقال ديمتري لصديقه: "وداعًا يا بيوتر إيليتش!، إن آخر دمعة عندي ستكون لك!".

قاتل أبيه!

تبعد موكرو عن بلدتنا أكثر من عشرين فرسخًا، ولكن الجياد جرت مسرعة لعلها تقطعها في ساعة وربع ساعة، وكان الجو صافيًا والهواء عليلًا فشعر ديمتري بانتعاش غير أن قلبه كان يضطرم شوقًا إلى حبيبته، ومن عجب أنه لم يشعر بالغيرة من حبيبها الأول الذي ظهر بغتة في حياتهما وكأنما انشقت عنه الأرض، ولعل ديمتري كان يغار لو أن منافسه غير ذلك الحبيب الأول، وهكذا أخذ يحدث نفسه: "لا مجال للشجار بيني وبينه!، لقد كان حبيبها الأول الذي لم تنسه بعد خمس سنوات، ولا شك أنها أحبته طول هذا الزمن، أما أنا فكنت دخيلًا، وإذن هو أحق بها، ويجب أن أفسح لهما الطريق!، ثم من أكون أنا الآن؟، لقد انتهى كل شيء!، حتى ولو لم يأت هذا الضابط!".

على أن الذكريات بقيت تلاحقه وتعذبه، وشعر باليأس والشقاء يغمران نفسه فلا يدعان مجالًا لأمل، وبدا له أنه كتب بيده (حكم الإعدام) على نفسه إذ كتب ما كتب في رقعة الورق التي يحملها في جيبه!.

وعاد يقول لنفسه: "إنها الآن معه، وسأرى كيف تكون مع حبيبها الأول، وهذا كل ما أريده!"، ولم يشعر نحوها قط من قبل بمثل هذا الحب الجارف الذي كان يملأ قلبه في تلك الساعة، ويغريه بأن يضحي كل شيء من أجلها، حتى لقد قال يحدث نفسه: "يجب أن أزول لكي تنعم هي وتسعد!".

وأخيرًا وصلت به العربة إلى فندق "بلاستونوف" في موكرو، وكان عند

مدخل البلدة، ونوافذه الست المطلة على الطريق تشع منها الأضواء، فأدرك ديمتري أن جروشنكا وصاحبها لم يناما بعد!.

واستقبله تريفون بوريسوفتش صاحب الفندق بالترحاب، إذ كان يعرف كرمه وسخاءه منذ نزل بفندقه في المرة السالفة.

فقال له ديمتري: "خبرني أولًا أين هي؟".

فأدرك الرجل قصده وقال له: "أجرافينا إلكسندروفنا؟، إنها هنا!".

فسأله ديمتري: "من معها؟" فأجاب صاحب الفندق:

– إنها مع بعض الأجانب، وأحدهم موظف بولوني كما يبدو من لهجته، وقد أرسل إليها من هنا عربة لتأتي بها، ومعه صديق له، وهما يرتديان ثيابًا مدنية!.

فسأله: "هل أقاما حفلة؟، وهل معهما مال كثير؟".

فأجاب الرجل: "حفلة متواضعة تدل على الفقر يا سيدي!".

فبدا الارتياح في وجه ديمتري وعاد يسأل صاحب الفندق: "أيوجد هنا آخرون الآن؟".

فأجاب: "يوجد سيدان من المدينة، عادا من تشرني: أحدهما شاب نسيت اسمه، والثاني يدعي مكسيموف كان في رحلة حج فيها إلى الدير!".

فقال له ديمتري: "خبرني يا تريفون بوريسوفتش، كيف حالها؟".

فقال تريفون:"لقد جاءت منذ وقت وجيز، وهي جالسة معهم الآن!".

فسأله: "هل يبدو عليها السرور؟، هل تضحك؟".

فأجاب قائلًا: "كلا!، إنها لا تضحك بل تجلس ؟؟؟، وقد تركتها وهي تمشط شعر الشاب!".

فسأله في لهفة: "البولوني... الضابط؟"، وسارع تريفون إلى الإجابة قائلًا بلهجة التأكيد:

–كلا!، إن هذا ليس بشاب، وليس بضابط، لست أعنيه وإنما أعني الشاب، لقد تذكرت اسمه الآن.. إنه يدعى كلجانوف!.

فقال ديمتري: "حسنًا!، سأرى بنفسي، هل يلعبون بالورق الآن؟".

فقال تريفون: "لعبوا حينًا ثم كفوا عن اللعب، وقد شربوا شايًا وطلب السيد البولوني خمرًا!".

فسأله: "وجماعة الغجر، أليسوا هنا؟".

فقال تريفون: "لقد أبعدتهم السلطات منذ حين، ولكن عندنا بعض اليهود ممن يدقون الصنوج ويعزفون على الكمان للفلاحين!".

فقال له: "إذن، ابعث في طلبهم!، وأحضر الفتيات ليرقصن مثل المرة السابقة، خصوصًا ماريا وستيبارينا وأرينا، سأدفع مائتي روبل للفرقة!".

فقال له صاحب الفندق وهو يبتسم: "أني بمثل هذا المبلغ أستطيع أن أجمع لك القرية كلها، وإن يكن الجميع نائمين الآن!، ولكن هل يستحق الفلاحون هنا، أو حتى الفتيات، كل هذا العطف منك يا سيد ديمتري فيدوروفتش؟، وما الفائدة من إعطاء فلاح خشن سيجارًا غاليًا؟، على أني

أستطيع أن أجيء لك ببناتي بغير مقابل، لقد أوين إلى فراشهن ولكني سأوقظهن بركلة من قدمي، إنك أعطيت الفلاحين في المدة الماضية شمبانيا ليشربوها، وهذا كثير!".

وكان تريفون بوريسوفتش برغم إخلاصه المزعوم لمتيا قد خبأ في المرة الماضية ست زجاجات شمبانيا، واختلس ورقة بنكنوت بمائة روبل كانت قد سقطت تحت المائدة!.

ثم قال له ديمتري: "حقًا، إنني وزعت عليهم في المرة الماضية زهاء ألف روبل، أتذكر ذلك؟".

فقال له تريفون: "إنك أنفقت في تلك الليلة ما لا يقل عن ثلاثة آلاف روبل!".

فقال ديمتري: "لقد جئت هذه المرة لأعيد الكرة!"، ثم أخرج من جيبه رزمة أوراق النقد وأراها له ثم قال: "بعد ساعة واحدة سيأتي النبيذ والحلوى والفطائر، وقد أحضرت معي بالعربة صندوقًا به زجاجات الشمبانيا فهيا افتحه وقدم الشمبانيا، ولابد من الفتيات خصوصًا ماريا!".

ثم عاد إلى العزبة وأخذ منها العلبة التي تحوي المسدسين، وأعطى الحوذي خمسة عشر روبلًا أجر الرحلة، ومنحه فوقها خمسين روبلًا ليشتري بها فودكا كما وعده، ومن عجب أن أندريا (الحوذي) قال له: "كلا يا سيدي!، لا أخذ إلا خمسة روبلات فقط فوق الأجر، ولا أقبل ما يزيد على ذلك، وليكن تريفون بوريسوفتش شاهدًا على ذلك!".

فدهش ديمتري وقال له: "ما الذي تخافه؟، ليكن ما تريد، ولتذهب إلى

الشيطان!، والآن يا تريفون بوريسوفتش، خذني إليهم في هدوء، إنني أريد أن أراهم أولًا من حيث لا يرونني!، أين هم؟، في الغرفة الزرقاء؟".

فنظر إليه صاحب الفندق خائفًا متسائلًا، ولكنه لم يسعه إلا أن يطيعه فقاده في الردهة، ثم فتح له قاعة مجاورة للقاعة التي بها النزلاء بحيث يراهم ديمتري منها من غير أن يروه، ولكنه لم يردد بصره فيهم وإنما نظر إليها وحدها، فخفق قلبه خفقانًا عنيفًا وأحس كأنما الدنيا أظلمت أمامه!.

كانت جروشنكا جالسة إلى المائدة على مقعد واطئ، بينما جلس الشاب الوسيم كلجانوف على أريكة بجانبها ويده في يدها، وكانت هي تضحك للشاب وتتفرس في وجهه، في حين بدا هو مغيظًا لا ينظر إليها، بل يتحدث بصوت مرتفع مع مكسيموف الجالس بالجانب الآخر من المائدة، أما الضابط البولوني فكان جالسًا مسندًا ظهره على الأريكة وفي فمه غليون يدخن فيه مستسلمًا لتفكير عميق حزين!، وكان قصير القامة، عريض الوجه أميل إلى البدانة، وصعد فيه ديمتري بصره لحظة ثم حاد به عنه وأحس بردًا يسري في جسده كله، ثم مضى قدمًا إلى الغرفة الزرقاء ليواجه القوم، وكانت جروشنكا أول من رآه فصاحت صيحة رعب، بينما سارع هو إلى المائدة وقال بصوت مرتفع:

– أيها السادة، لا تخافوا، إنني... لا تخشوا شيئًا!"، ثم التفت إلى جروشنكا وقال لها:

– لقد جئت أنا أيضًا، وسأمكث هنا حتى صباح غد، أتسمحون لي يا سادة بأن أمكث معكم حتى الصباح؟، إلى الصباح فقط، لآخر مرة، في هذه الغرفة؟

والتفت إلى الرجل القصير القامة الجالس على الأريكة، فرفع هذا الغليون من فمه وقال له: "إننا هنا في جلسة خاصة، وفي الفندق غرف أخرى!".

وصاح كلجانوف بغتة: "أهذا أنت يا ديمتري فيدوروفتش، اجلس هنا معنا، كيف أنت؟".

فقال له ديمتري: "إني مسرور لرؤيتك أيها الصديق العزيز!".

ومد يده إليه فوق المائدة مصافحًا إياه، فقال له كلجانوف ضاحكًا: "لا تضغط يدي هكذا أيها العزيز ديمتري فيدوروفتش!، لقد كدت تكسر أصابعي!".

وهنا قالت جروشنكا وهي تبتسم في استحياء: "إنه دائمًا هكذا!"، وكانت قد أدركت من النظر إلى ملامحه أنه لم يجيء ليثير شجارًا، على عكس ما توقعته لأول وهلة!

وحياه مكسيموف من الطرف الأيسر للمائدة، فهرع إليه وقال له: "أنت هنا أيضًا؟، إني سعيد لوجودك!".

ثم التفت إلى الرجل البولوني البادن وقال: "أيها السادة، لقد هرعت إلى هنا لأني أردت أن أقضي آخر يوم من حياتي بل آخر ساعة في هذه الغرفة بالذات!، وحيث كنت أنا أيضًا أتعبد لمليكتي، لا تخف أيها السيد، إنها آخر ليلة لي!، فهيا نشرب معًا نخب تفاهمنا، وسيحضرون النبيذ توًا، وقد أحضرت معي هذا (وأخرج من جيبه رزمة ورق النقد)، وأريد موسيقى وغناء ورقصًا ومرحًا كذي قبل، إن الحشرة الطفيلية سرعان ما تمضي بعيدًا ولن تسمعوا عنها شيئًا بعد ذلك!".

وكاد يختنق من التأثر وهو يقول ذلك، على حين كان البولوني ينظر إليه وإلى رزمة ورق البنكنوت ثم إلى جروشنكا، والحيرة بادية على ملامحه، ثم قال: "إذا كانت مليكتي تسمح..."، فقطعت جروشنكا قائلة: "ماذا تعني بكلمة مليكتي؟، إني لا يسعني إلا أن أضحك حين أسمعك تتكلم على هذا النحو، اجلس يا متيا، ماذا كنت تقول؟، بالله لا تزعجنا، إذا كنت لا تزعجنا فإني أسعد لرؤيتك!".

فقال لها: "معاذ الله أن أزعجك!، إني لن أقف في طريقك أبدًا!".

ثم جلس على مقعد وانفجر باكيًا بينما أدار وجهه ليخفي دموعه، فقالت له جروشنكا تؤنبه: "دعك من هذا، ما أعجبك! هكذا يزورني! إنه يتكلم أولًا من غير أن أفقه معنى لما يقوله، ثم يبكي، عيب عليك!، لماذا تبكي؟".

ثم قالت بتؤدة وكأنها تعني كل كلمة تقولها: "ليس هناك أي سبب يدعوك إلى البكاء!".

فقال ديمتري وهو لا يزال ينتحب: "لست أبكي، أسعد الله مساءكم!"، ثم استدار في مقعده وضحك بغتة ضحكة عصبية طويلة مفتعلة!، فقالت له جروشنكا بعطف: "حسنًا!، فلتكن هكذا مرحًا كعادتك!، إني مسرورة لمجيئك، نعم أنا مسرورة جدًا!، أسامع أنت يا متيا؟".

ثم وجهت كلامها للجماعة كلها قائلة: "إني أريد أن يبقى هنا معنا، أريد ذلك، وإذا ذهب فسأذهب أنا أيضًا!".

فقال صاحبها البولوني وهو يقبل يدها: "إن أمر مليكتي واجب الطاعة!".

والتفت إلى متيا قائلًا: "أرجو يا سيدي أن تجلس معنا!".

وأراد متيا أن يقول شيئًا لكن لسانه لم يطاوعه فاكتفى بأن قال: "هيا بنا نشرب!".

فقالت له جروشنكا: "لقد خفت أن يلقي خطابًا من جديد!، لقد كان جميلًا منك أن تحضر الشمبانيا معك، فإني أريد أن أشرب قليلًا منها، والأهم من ذلك أنك أتيت بنفسك، أحسبك أتيت للمرح؟، ضع نقودك في جيبك من أين أتيت بكل هذه النقود؟"، وكان متيا طول الوقت ممسكًا بورق النقد في قبضة يده، وكان الرجلان البولونيان لا يحيدان ببصرهما عنها حتى وضعها في جيبه وقد احمر وجهه، وفي تلك اللحظة دخل صاحب الفندق يحمل صينية عليها زجاجة شمبانيا مفتوحة وحولها كؤوس، فأخذ متيا الزجاجة ولكنه لشدة اضطرابه لم يدر ما يصنع بها فاختطفها منه كلجانوف وأفرغ ما فيها في الكؤوس، وصاح ديمتري بصاحب الفندق يقول: "هات زجاجة أخرى!"، واحتسى ما في كأسه من غير أن يقرعها بكأس البولوني فقد نسى أنه دعاه لشرب نخب التفاهم بينهما، وانمحت من ملامحه دلائل الحزن واليأس وحل محلها بشر كبشر الأطفال ووداعتهم، وصار ينظر إلى كل فرد بخجل واستسلام، ويضحك باستمرار ضحكته العصبية المفتعلة، وصار مثله كمثل كلب أخطأ فعوقب فغفر له، وكأنما نسى كل شيء، وانتقل بكرسيه إلى جانب جروشنكا وصار ينظر إليها نظرة ساذجة، وقد لفت الرجلان البولونيان نظره، فأما أولها القصير البادن صاحب جروشنكا فقد استرعى التفاته بلهجته البولونية وغليونه، أما الثاني فكان أصغر من الأول سنًا، وكان ينظر إلى الجميع نظرة تحد، ويصغى إلى حديثهم في ازدراء مكتوم، وكان على

عكس صديقه طويل القامة إلى حد يلفت النظر!

ولم يدرك معنى كلمات قالتها جروشنكا عن عمد، وإنما أدرك أنها تعطف عليه وتغفر له أخطاءه وأنها أجلسته بجانبها، فملأ ذلك قلبه جذلًا وأخذ يرقبها وهي ترشف الشمبانيا من كأسها!، على أنه عجب من الصمت الذي ساد الجميع فقال لهم:

– لماذا نجلس هنا هكذا أيها السادة؟ لماذا لا تفعلون شيئًا؟.

وكان كلجانوف يرقب مسلك متيا نحو جروشنكا، بعد أن درس صديقها البولوني عن قرب ثم لم يهتم به كثيرًا، وكان قد جاء إلى الفندق مع مكسيموف مصادفة، والتقى بالبولونيين لأول مرة في حياته، وكان يعرف جروشنكا من قبل وقد زارها مرة في بيتها مع أحد أصحابه، ولكنها لم تمل وقتئذ إليه، أما هنا فإنها كانت تنظر إليه نظرة ود وعطف، وكانت قبل مجيء متيا كثيرة الاهتمام به من غير أن يبادلها ذلك الشعور، وكان فتى لا تزيد سنه على عشرين عامًا، وسيم الوجه أزرق العينين!

وأخذوا يتكلمون عن الروس والبولونيين، ويروون بعض النوادر، ثم دعاهم ديمتري إلى اللعب بالورق، وجاء صاحب الفندق بورق من عنده، وخسر كلجانوف خمسين روبلًا كسبها منه البولونيان فكف عن اللعب، أما ديمتري فاستمر في الخسارة وهو في كل مرة يضاعف الرهان حتى بلغت خسارته مائتي روبل، فأراد أن يضع مائتي روبل أخرى على المنضدة ولكن كلجانوف وضع يده عليها قائلًا:

– كفى! لا أريد أن تلعب بعد ذلك، كفى ما خسرته حتى الآن!

وقالت له جروشنكا: "إنه على حق، كف عن اللعب يا متيا!".

فوقف البولونيان والغضب باد عليهما، وقال أكبرهما القصير القامة لكلجانوف: "أتمزح؟"، وقال له الآخر: "كيف تجرؤ على هذا؟!".

فصاحت بهما جروشنكا: "لا تصرخا هكذا أيها الديكان الروميان!".

وهنا خطر لديمتري خاطر فربت كتف البولوني القصير وقال له: "أريد أن أقول لك كلمتين على انفراد في الغرفة المجاورة، وستسر منهما كثيرًا!".

فوافق هذا على شرط أن يكون معه صاحبه فروبلفسكي، وعقب ديمتري قائلًا: "حسنًا!، إنه حارسك فيما يبدو، فليأت معك كما تشاء، بل أنا أريده أيضًا، هيا!".

وسألتهم جروشنكا حين رأتهم يخرجون من الغرفة: "إلى أين؟"، فقال لها متيا: "سنعود بعد لحظة!".

وكان بادي الجد واثقًا بنفسه، وقاد البولونيين إلى غرفة صغيرة إلى اليمين بها سريران ومنضدة عليها شمعة مضاءة، وجلس هو والبولوني القصير إلى المنضدة كل منهما تجاه الآخر بينما وقف فروبلفسكي بجانبهما ويداه خلف ظهره، ثم قال البولوني القصير لديمتري: "ماذا تريد؟".

فقال له: "معي نقود لك!، أتحب أن تحصل على ثلاثة آلاف روبل؟، خذ هذا المبلغ واذهب من هنا!".

ففتح الرجل فاه دهشة وتبادل مع فروبلفسكي نظرة وقال: "ثلاثة آلاف؟".

فقال له ديمتري: "نعم ثلاثة آلاف، إني أراك رجلًا أريبًا!، فخذ ثلاثة آلاف روبل واذهب إلى الشيطان، ومعك صاحبك هذا، بشرط أن تذهبا من هنا توًا وإلى الأبد، ها هو ذا الباب، يمكنكما أن تخرجا منه، ماذا لكما هنا؟. معطفان؟.. سأحضرهما لكما، وسآمر بإعداد جياد لكما، مع السلامة!".

وكان متيا ينتظر ما يجيبان به وهو مطمئن، ولم يلبث البولوني أن قال: "أين المبلغ؟".

فقال له: "سأعطيك سبعمائة روبل في الحال، ألا تثق بي؟، إني لا أقدر أن أعطيك الآلاف الثلاثة توًّا، فلو أني أعطيتك إياها فقد تعود غدًا، وفضلًا عن ذلك لست أملك ثلاثة آلاف في الوقت الحاضر، ولكنها عندي في البلدة، أقسم لك أنها عندي، مخبأة!".

فتظاهر البولوني فجأة بالإباء وقال: "يا للعار!"، وبصق على الأرض، وكذلك فعل زميله بان فروبلفسكي، فقال لهما ديمتري: "إنما تبديان جانب الإباء لأنكما تأملان أن تحصلا من جروشنكا على أكثر من ذلك، لستما إلا محتالين!".

فاحمر وجه البولوني القصير وقال: "هذه إهانة بالغة!".

وخرج من الغرفة لتوه كأنما لا يريد أن يسمع كلمة أخرى، ومضى البولوني الآخر في أثره وتبعهما متيا وهو بادي الاضطراب إذ كان يخشى جروشنكا، وما لبث البولوني القصير أن صاح: "يا أجريبينا، لقد أهنت إهانة بالغة!".

فصاحت به جروشنكا: "خاطبني باللغة الروسية!، إن اسمي هو أجرافينا أو جروشنكا وليس أجريبينا!، إني لا أريد أن أسمع منك كلمة بولونية أخرى!".

فقال البولوني في أنفة وكبرياء: "يا أجرافنيا، لقد جئت إلى هنا لكي أنسى الماضي وأصفح عن كل ما حدث حتى اليوم!".

فقفزت جروشنكا من مقعدها وقالت ثائرة: "تصفح؟!، أتيت لتصفح عني؟!".

فقال لها: "نعم، إني كريم النفس، ولكني دهشت حين رأيت عشاقك، وهذا السيد متيا قد عرض علي منذ لحظة في الغرفة الأخرى ثلاثة آلاف روبل لكي أرحل ولكني بصقت في وجهه!".

فصاحت جروشنكا تقول: "ماذا؟، عرض عليك مالًا من أجلي؟، هل هذا صحيح يا متيا؟، هل أنا أباع هكذا؟".

فقال متيا للبولوني: "إنها طاهرة ولم أكن قط عشيقها!".

فقاطعته جروشنكا حانقة: "كيف تجرؤ على أن تدافع عني لديه؟؟، لم أكن طاهرة حيالك بدافع الفضيلة، ولم أكن خائفة من كوزما، ولكني أردت أن أرفع رأسي حين أقابل هذا وأقول له إنه وغد، هل رفض المبلغ الذي عرضته عليه حقًا؟".

فقال ديمتري: "بل قبله!، ولكنه أراد أن يأخذ الآلاف الثلاثة توًّا، وأنا لا أقدر أن أعطيه الآن سوى سبعمائة روبل!".

فقالت: "لقد فهمت!، إنه سمع أني أملك ثروة فجاء ليتزوجني!".

وهنا قال البولوني: "يا أجربينا إني فارس نبيل، لقد جئت هنا لأجعل منك زوجة لي، ولكني وجدتك امرأة أخرى فاقدة الحياء!".

فصاحت قائلة: "أوه!، عد من حيث أتيت!، سآمر بإخراجك من هنا!، لقد كنت حمقاء إذ عذبت نفسي من أجلك خمس سنوات كاملات!، ولم يكن ذلك من أجلك ولكن كدري هو الذي سبب لي التعاسة، وليس هذا بصاحبي الأول مطلقًا! بل يكاد يكون أباه!، لقد كان صقرًا، أما هذا فأوزة، وكان يضحك ويغني لي، وأنا الحمقاء البلهاء كنت أبكي طول هذه السنوات الخمس!".

وجلست في مقعدها وغطت وجهها بيديها، وفي هذه اللحظة بدأت فرقة الفتيات تغني في الغرفة التي إلى اليسار، وكانت أغنية رقص بسيطة، فصاح فروبلفسكي بصاحب الفندق أن يطردهن توًّا، وكان هذا قد سمع جدلًا وصياحًا فجاء يستطلع خافية الأمر وقال له: "لماذا تصرخ هكذا؟، أتريد قطع رأسك؟".

فقال له فروبلفسكي: "أنت حيوان!"، وهنا بدا الغضب في وجه تريفون صاحب الفندق وقال له: "أنا حيوان؟، وبماذا كنت أنت وصاحبك البولوني الآخر تلعبان الآن؟، لقد أعطيتكما ورق لعب من عندي ولكنكما خبأتماه ولعبتما مع هؤلاء السادة بورق من عندكما عليه علامات خفية!، إني أستطيع أن أبعثكما إلى سيبريا لهذا السبب، لأن ورق اللعب المغشوش مثل ورق النقد الزائف!".

وهرول إلى الأريكة، فأخرج من تحت فرشها رزمة ورق اللعب وكانت لا تزال في غلافاتها، فأمسكها بيده وأخذ يعرضها على الحاضرين وهو يقول: "هذا ورق اللعب الذي قدمته من عندي، لم يستعمل قط، لقد رأيته يخفيه تحت فراش الأريكة ويضع ورقه بدلًا منه!، أنت غشاش ولست بسيد محترم!".

وهنا قال كلجانوف: "لقد رأيته بنفسي مرتين وهو يبدل ورقة بأخرى!".

فقالت جروشنكا: "يا للعار!، رباه!، لقد هبط إلى هذا الدرك!".

وعندئذ هز فروبلفسكي قبضة يده منذرًا جروشنكا وقال لها: "أنت أيتها العاهرة الساقطة!".

فانقض عليه متيا وأمسكه بكلتا يديه ورفعه في الهواء وحمله هكذا إلى الغرفة اليمنى التي كانا بها قبل لحظة، ثم عاد يقول: "لقد طرحته أرضًا، إن هذا الوغد لن يعود إلى هنا!".

وفتح الباب وقال للبولوني القصير القامة: "وأنت أيضًا، ألا تنضم إليه؟!".

وهنا قال له تريفون بوريسوفتش صاحب الفندق: "يا عزيزي ديمتري فيدوروفتش، ألا تسترد منهما أولًا نقودك التي كسباها منك في اللعب؟، لقد كانت سرقة لا لعبًا!".

فقال كلجانوف: "لا أريد أن أسترد منهما الخمسين روبلًا التي كسباها مني!".

وقال متيا: "وأنا أيضًا لا أريد المائتي روبل. ليحتفظ بهذا المبلغ عزاء له!".

فقالت له جروشنكا: "مرحى يا متيا!".

ومشى البولوني القصير صوب الباب في أنفة وكبرياء ثم وقف وقال لجروشنكا: "إذا كنت تريدين أن تأتي معي فهيا، وإلا فوداعًا!".

فأغلق متيا الباب وراءه بعنف، بينما قال له كلجانوف: "أوصده بالمفتاح!"، ولكن البولونيين كانا قد أوصداه من الداخل، فقالت جروشنكا: "هذا بديع، لقد نالا جزاءهما!".

وتلت ذلك مأدبة كان الكل فيها ضيفًا مكرمًا، وكانت جروشنكا أول من طلب خمرًا إذ قالت: "أريد أن أشرب حتى أثمل كما حدث في المرة الفائتة!، أتذكر يا متيا كيف تخادنا إذ ذاك؟".

وشعر ديمتري بالسعادة تدنو منه، ولكن جروشنكا كانت لا تفتأ تبعده عنها وقالت له: "اذهب وامرح، دعهم يرقصوا ويغنوا ويفرحوا مثل المرة السالفة!".

وسارع إلى إطاعتها، وكانت الفرقة في القاعة المجاورة، بينما الغرفة التي جلسوا بها حتى تلك الساعة صغيرة وقد قسمت بستائر من قطن، وكان بأحد القسمين سرير عليه فراش ووسائد، وجلست جروشنكا عند الباب تتفرج على الرقص والغناء، وقد اجتمعت الفتيات وحضرت فرقة الموسيقى، وجاءت العربة المنتظرة تحمل خمرًا وطعامًا، وهرع أهالي القرية رجالًا ونساء يتفرجون ويمرحون، وقد سرهم أن ينعموا بهذا المهرجان الذي شهدوا مثله

قبل شهر واحد، وتذكر متيا كثيرًا منهم فصار يحييهم ويعانقهم، وجعل يفتح زجاجات الخمر ويصب شرابًا لكل قادم وقادمة. على أن الفتيات آثرن الشمبانيا على النبيذ وغيره، بينما آثر الرجال شراب الروم والبراندي وغيرهما من الخمر الثقيلة، ووزع متيا الشوكولاتة على جميع الفتيات!

كان يبدو في أوج المرح والسعادة، ولعل الفلاحين لو طلبوا إليه نقودًا في تلك الساعة لأعطاهم كل ما معه، ولهذا كان تريفون بوريسوفتش لا يفارقه ليقيه هذا الإسراف في الكرم وكان قد عزم على السهر طول الليلة ولم يشرب من الخمر إلا كأسًا واحدة، وكان لا يفتأ يحول دون متيا وتوزيع الخمر الغالية والسيجار النفيس والنقود خاصة على الفلاحين كما فعل في المرة الماضية، وقد غاظه أن تشرب الفتيات شمبانيا ويأكلن الحلوى الغالية!.

وعزف كلجانوف حينًا عن الشراب ولكن متيا ألح عليه حتى شرب، وعندئذ تملكته نشوة وصار يمشي في الغرفة فرحًا طروبًا، وصاحبه مكسيموف لا يتركه لحظة، وبدأت جروشنكا تسكر كذلك، وأشارت إلى كلجانوف وقالت: "ما أبدعه من فتى طروب!"، وكأنما سر هذا ديمتري فسارع إلى تقبيل كلجانوف ومكسيموف!، لقد انتعشت آماله في تلك الساعة، وإن تكن جروشنكا لم تقل شيئًا بعد يبعث في نفسه الأمل، وإنما كانت تنظر إليه بين الفينة والفينة نظرة مودة وعطف، ثم أمسكت في النهاية يده وجذبته نحوها، وكانت جالسة على الكرسي الواطئ بجوار الباب، وقالت له: "كيف جئت إلى هنا؟!، إنني كنت في البداية خائفة منك!، إذن كنت تريد أن تتخلى له عني؟، هل هذا صحيح؟".

فقال لها: "لم أرد أن أقف حائلًا في سبيل سعادتك!".

فقالت له: "حسنًا!، الآن اذهب وامرح!، لا تبك، سأناديك مرة أخرى!".

وأبعدته عنها من جديد وجلست تستمع إلى الغناء وتتفرج على الرقص، بينما عيناها تتبعانه حيثما يذهب!.

وبعد ربع ساعة نادته مرة أخرى وأجلسته إلى جوارها وقالت له: "خبرني، كيف علمت بمجيئي إلى هنا؟".

فأخذ يقص عليها كيف علم بذلك وهو عابس مضطرب، فقالت له: "ماذا يكدرك الآن؟".

فقال لها: "لا شيء!، لكني تركت رجلًا مريضًا في البلدة، وبودي لو أبيع عشر سنوات من عمري في مقابل شفائه!".

فقالت له: "لا يهمك مرضه إلى هذا الحد!، إذن كنت عازمًا على قتل نفسك بالرصاص غدًا!، يا لك من فتى أحمق!، ولماذا؟، إني أحب المتهورين أمثالك!، أهكذا لا تبالي أي شيء من أجلي؟، هل كنت عازمًا حقًا على قتل نفسك غدًا؟، أنت أيها الأحمق؟، ولكن انتظر.. سأقول لك غدًا شيئًا يهمك، إنك قد تريد أن تسمعه مني اليوم، ولكن لا أريد أن أخبرك به اليوم، والآن اذهب وامرح!".

ثم نادته مرة أخرى، فلما جاء بادي الحيرة والقلق قالت له: "ما لي أراك حزينًا؟"، ونظرت إلى عينيه مليًا وقالت: "نعم أنت حزين!، ولم يفتني ذلك

وإن كنت تبدي المرح وتقبل الفلاحين وتصيح صيحات الطرب، كن مرحًا، إنني مرحة، ويجب أن تكون مرحًا مثلي، إني أحب إنسانًا هنا، أتدري من يكون؟، آه انظر إن الغلام قد غلبه النعاس!، لقد سكر المسكين!".

وكانت تعني كلجانوف، وكان قد ثمل فعلًا وغلبه النعاس وهو جالس على الأريكة، ولعله قد تولاه أيضًا الملل من مشاهدة رقص ساذج وتمثيل رديء، وكانت فتاتان قد ظهرتا في مظهر دبتين وفتاة أخرى تدعى ستيبادينا تسوقهما وبيدها عصا، وأخذتا تتدحرجان على الأرض بين ضحك المشاهدين، فقالت جروشنكا: "دعهم يضحكوا!، دعهم يستمتعوا ويسعدوا!".

وصحا كلجانوف من سباته فأخذ ينتقد التمثيل والغناء، ثم مال برأسه على وسادة فوق الأريكة فقالت جروشنكا: "انظر يا متيا ما أجمله!، لقد كنت أمشط شعره منذ برهة، إن شعره كالكتان!".

ومالت عليه في حنان فقبلت جبينه ففتح عينيه ووقف فجأة وقال: "أين مكسيموف؟" .

فضحكت جروشنكا وقالت: "إذن أنت لا تريد سواه!، امكث معي لحظة واذهب أنت يا متيا وأحضر له مكسيموف!".

وكان مكسيموف قد لزم الفتيات الراقصات لا يريد أن يفارقهن، وإنما كان يجري بين حين وآخر ليحتسي كأس نبيذ ثم يعود إليهن، وشرب كذلك فنجانين من الشيكولاتة الساخنة وكان وجهه قد احمر وأنفه قد أصبح قرمزي اللون، وأبى إلا أن يرقص هو كذلك فقالت جروشنكا لديمتري: "اذهب معه يا متيا وسأتفرج على الرقص من هنا!".

وقام كلجانوف وهو يقول: "سآتي أيضًا معك لأتفرج".

ورقص مكسيموف رقصة لم تثر إعجاب أحد سوى متيا فقبله وقدم له سيجارًا وحلوى وخمرًا، ثم شعر متيا بأن رأسه قد سخن حتى كاد ينفجر، فخرج إلى الشرفة المطلة على فناء النزل يستنشق الهواء، وأوى إلى ركن هناك وأمسك رأسه بين يديه، وتذكر فجأة عزمه على الانتحار غدًا فقال يحدث نفسه: "لماذا لا أطلق الرصاص على نفسي الآن؟، لماذا لا أحضر المسدسين وأنهي حياتي في هذا الركن المعتم القذر؟"، ووقف لحظة مترددًا، إنه قبل ساعات معدودة حين جاء إلى هذا الفندق كان العار يطارده والدم يلاحقه، أما الآن فالأمر أيسر عليه، ولم يعد هناك ما يجعل الموت أحب إليه من الحياة، فهذا هو ذلك الشبح المخيف، شبح حبيبها الأول الذي ظهر ليستأثر بها من دونه، قد استحال إلى دمية صغيرة مضحكة، بعد أن دخل غرفة نومه بالفندق وأغلقها عليه من الداخل!، وهذه هي جروشنكا نفسها تبدو خجلة من إيثارها ذلك الحبيب الأول عليه، وقد قرأ في عينيها ما يدل على ندمها وعلى أنها تحبه هو!، لكنه برغم كل أسباب السعادة التي هيئت له في الحياة ما زال يحس أنه لا يستطيع أن يعيش!، وهكذا عاد يحدث نفسه ويناجي ربه قائلًا: "رباه، أعد إلى الحياة ذلك الرجل الذي صرعته عند السياج!".

"أنقذني يارب من عاقبة فعلتي هذه!، إنك يارب تخلق المعجزات للمذنبين أمثالي!، وهناك عار آخر يلاحقني، فأعني يارب على أن أمحوه، على أن أعيد المال المسروق إلى صاحبته لكيلا يبقى من ذلك العار أثر إلا في نفسي!".

وبدا له إن أمانيه وأحلامه هذه مستحيلة التحقيق، فعاد اليأس يعصر قلبه، ولكنه فجأة لمح بارقة أمل وسط الظلمة المحيطة، فقفز من مكانه وجرى إليها، إلى جروشنكا مالكة فؤاده، أليست لحظة من حبها تعادل بقية الحياة كلها مهما يكن بها من عذاب وعار؟!، إذن يجب ألا يفكر إلا فيها، ويجب أن ينسى كل شيء سواها، وأن يعيش تلك الليلة لها، ليستمع إليها ويراها بجانبه!.

ولما دخل من الشرفة إلى الردهة رأى تريفون بوريسوفتش وعلى ملامحه دلائل الوجوم فقال له:

– ماذا هناك يا تريفون بوريسوفتش! هل كنت تبحث عني؟

فأجاب الرجل بارتباك: "ولماذا أبحث عنك يا سيدي؟ أين كنت؟".

فقال له: "خبرني أولًا لماذا يبدو عليك الكدر هكذا؟، ينبغي لك أن تأوى إلى فراشك، كم الساعة الآن؟".

فقال تريفون: "بعد الثالثة صباحًا على ما أظن".

فقال له ديمتري: "لا بأس!، لن نمكث إلا قليلًا!".

فقال صاحب الفندق: "بل أطيلوا الاحتفال قدر إمكانكم!".

ولم يفهم ديمتري سر اضطراب الرجل، ولم يكن لديه وقت لاستيضاح مثل هذا الأمر التافه، فتركه وذهب مسرعًا إلى الغرفة التي ترقص بها الفتيات، لكنه لم يجد جروشنكا هنا، ثم لم يجدها في الغرفة الزرقاء أيضًا، ولم يكن ثمة غير كلجانوف نائمًا فوق الأريكة، ونظر متيا وراء الستار فوجدها جالسة

فوق صندوق للملابس وقد وضعت رأسها وذراعيها على السرير، وراحت تبكي وتنتحب محاولة جهدها ألا يسمعها أحد!.

ولما رأته بعد هنيهة، أشارت إليه ليقترب منها، ثم أمسكت يده وضغطتها وقالت له:

– لقد كنت أحبه يا متيا كما تعلم!، ما أشد ما أحببته طول هذه السنوات الخمس!، ولكن أأحببته حقًا أم أحببت غضبي وحنقي؟، كلا إني لم أحبه بل كنت أحب الكدر!، كنت يومئذ لم أجاوز السابعة عشرة من عمري، وكان شفيقًا بي كثير المرح كما كان يغني لي، أما الآن، فقد صار إنسانًا آخر!، حتى وجهه قد تغير!، كان ينبغي لي ألا أعرفه!، لقد جئت إلى هنا بعربة تيموفي الحوذي وكنت طول الطريق أسائل نفسي كيف ألقاه؟ وماذا أقول له؟ وكيف أنظر إليه وينظر إلي؟، فلما رأيته إذا بي أشعر كأنما صب دلو ماء قذر فوقي!، لقد كلمني كما يكلم ناظر المدرسة تلميذًا، كان كلامًا جادًا صارمًا، وقابلني برزانة حتى كدت أصعق، ولم أدر ما أقوله، وحسبت أولًا أنه يخجل من الكلام أمام رفيقه البولوني العملاق، وجلست أحملق فيه وأسائل نفسي كيف لا أجد كلمة أقولها له؟!، لابد أن زوجته هي التي غيرته هكذا، إنك تعلم أنه هجرني لكي يتزوجها، آه يا متيا إني أخجل من نفسي!، إني ألعن تلك السنوات الخمس!.

ثم عادت إلى البكاء وهي لا تزال ممسكة يد ديمتري وقالت له: "لا تبعد عني يا متيا، أريد أن أقول لك كلمة!".

ورفعت رأسها نحوه وقالت همسًا: "أخبرني من هو الذي أحبه حقيقة؟،

إن هنا رجلًا أحبه، فمن هو هذا الرجل! يجب أن تخبرني من هو!".

وأشرق وجهها بابتسامة عذبة ولمع بريق في عينيها وسط الضوء الخافت ثم قالت:

– لقد طار صقر إلى هنا فسقط قلبي بين جنبي وقلت لنفسي: يا بلهاء، هذا هو الرجل الذي تحبينه، وهذا ما همس به قلبي توًا، لقد جئت فأشرق كل شيء، وساءلت نفسي: ما الذي يخشاه!، لأنك كنت خائفًا ولم تستطع الكلام، إنه لا يخشاهم، وهل أنت تخشى أحدًا؟، كلا!، إنه خائف مني أنا!، إذن قد أخبرتك فنيا كيف صحت بأليوشا من النافذة بأني قد أحببتك ساعة واحدة وإني ذاهبة إلى حبيب آخر؟، كيف خطر لي يا متيا أني أستطيع أن أحب رجلًا سواك؟، والآن أتصفح عني يا متيا؟ أتصفح عني أم لا؟ أتحبني يا متيا؟ .

وقامت فأمسكت كتفيه بيديها، وذهل هو وصار ينظر إلى وجهها وعينيها وابتسامتها، ثم أحاطها بذراعيه بقوة وقبلها بشغف، وعادت هي تقول له:

– أتغفر لي تعذيبي إياك؟، لقد عذبتك بدافع العناد وحده!، أتذكر كيف شربت مرة في بيتي ثم كسرت الكأس؟، إني أذكر ذلك وقد حطمت أنا اليوم كأسًا وشربت نخب قلبي الشرير!، يا متيا، يا صقري، لماذا لا تقبلني؟، لقد قبلني مرة ثم ها هو ذا ينظر ويستمع!، لماذا تصغى إلي!، قبلني، قبلني بشدة، هكذا!، إذا كنت تحب فهيا إليك الحب! سأكون أمة لك بقية حياتي، ما أجمل أن أكون أمة رقيقة لحبيبي! قبلني! اضربني! عذبني! افعل بي ما تشاء!،

وأنا أستحق الألم والعذاب!، لكن، انتظر يا متيا، يا حبيبي، سيكون ذلك فيما بعد!.

ودفعته عنها بعيدًا وهي تقول له: "اذهب يا متيا، وسآتي وأشرب نبيذًا فإني أريد أن أسكر، نعم سأسكر وأرقص، لابد لي من ذلك!".

وتخلصت منه واختفت وراء الستارة، فتبعها متيا وكأنه ثمل وهو يقول لنفسه: "أجل، ليكن ما يكون الآن، إن هذه للدقيقة توزن عندي بالعالم كله!".

واحتست جروشنكا كأس شمبانيا جرعة واحدة وصارت سكرى وجلست على الكرسي نفسه كذي قبل وعلى ثغرها ابتسامة وقد احمر خداها وبان بريق خاطف في عينيها وقالت له: "إني سكرى فلماذا لا تسكر أنت أيضًا؟".

فقال لها: "إني سكران بك أنت؟، ولكني سأسكر بالخمر أيضًا!".

وتجرع كأسًا أخرى، وما لبث حتى ثمل وصار كل شيء يدور أمام عينيه، وأخذ يمشي ويضحك ويخاطب كل إنسان ثم ذهب إليها وجلس بجانبها، وكانت تكثر من الكلام وتنادي كل شخص وتشير إلى فتيات الفرقة، وكلما أتت إليها واحدة منهن صارت تقبلها أو ترسم إشارة الصليب عليها، وكان (الشيخ الصغير) كما سمت مكسيموف يأتي إليها ويقبل يديها إصبعًا إصبعًا ثم يعود يرقص ويغني؟.

وبعدئذ قالت جروشنكا: "أريد أن أرقص!"، وأخرجت منديلًا أبيض راحت تلوح به، ولكنها تعثرت في مشيتها من السكر وقالت: "آسفة، سامحوني، خذني يا متيا بعيدًا من هنا!".

فأحاطها متيا بذراعيه وحملها إلى ما وراء الستارة وأرقدها على السرير وجعل يقبل ثغرها فقالت له:

– لا تلمسني!، لا تلمسني حتى أكون لك.، لقد قلت لك إني لك، ولكن لا تلمسني الآن، والجميع هنا، قريبون منا، ليس هنا! إن هذا مكان فظيع!.

فقال لها: "سمعًا وطاعة!، إني أعبدك، أجل إن هذا المكان فظيع، كريه!".

وركع إلى جانبها فقالت له: "أعلم أنك كريم النفس مع أنك وحش!، يجب أن نكون شيئًا محترمًا، ولنكن شريفين، طيبين، خذني من هنا بعيدًا، أسامع أنت؟، لا أريد أن نكون هنا، بل بعيدًا، بعيدًا؟".

فقال لها وهو يضمها إلى صدره! "أجل!، سآخذك وأهرب بك بعيدًا، آه، إني أبيع حياتي كلها بسنة واحدة إذا علمت عاقبة ذلك الدم!".

فدهشت جروشنكا وسألته: "أي دم؟" فأجاب قائلًا: "لا شيء يا عزيزتي!، إنك تريدين أن تكوني شريفة، أما أنا فإني لص، لقد سرقت مالًا من كاتيا، يا للعار!".

فقالت له: "من كاتيا؟، من تلك السيدة الصغيرة؟، كلا!، إنك لم تسرقه، أعده إليها، خذه من مالي، إن كل ما أملكه هو لك، وماذا يجدي المال؟، إننا سنبدده على أي حال، إن الناس الذين هم على شاكلتنا لا يبقون على مال!، والأجدر بنا أن نهاجر إلى الريف حيث نعمل بأيدينا!، نعم إني أريد أن أحفر الأرض بيدي، يجب أن نشتغل، أسامع أنت؟، لقد قال أليوشا ذلك، إني لا أريد أن أكون خليلتك، كلا!، بل سأكون أمة رقيقة لك،

وسأشتغل من أجلك، سنقصد معًا إلى تلك السيدة الصغيرة وننحني لها كي تصفح عنا ثم نذهب بعيدًا، وإذا لم تصفح عنا فإنا سنهاجر على أي حال!، خذ نقودها وأحبني، لا تحبها بعد الآن يا متيا، وإذا أنت أحببتها فسأخنقها بيدي!، وسأخرق عينيها بدبوس!".

فقال لها: "إني أحبك أنت ولا أحب سواك!، وسوف أحبك وأنا في سيبريا!".

فقالت له: "في سيبريا؟، لا بأس!، فلنهاجر إلى سيبريا إذا شئت، وسنشتغل هناك، في سيبريا جليد، وأنا أحب الحفر في الجلي، أسامع أنت؟، هناك جرس يدق، لقد جاء أناس!".

وأغمضت عينيها وغلبها النعاس فراحت في سبات عميق، وكان هناك حقًا جرس دق ثم سكت، بينما مال رأس ديمتري فوق صدره من غير أن يلحظ انقطاع صوت الجرس، ولا انقطاع الغناء عقب ذلك، لكنه أفاق بعد هنيهة واستغرب السكون العميق الذي ساد المكان كله بعد تلك الضجة، فحدث نفسه متسائلًا: ماذا جرى؟، هل نمت؟، نعم لقد نمت وكنت أحلم بأني راكب زحافة فوق الجليد، وبأن جرسها يدق!، وكنت مع شخص أحبه، معك أنت يا جروشنكا، وكنا ذاهبين بعيدًا.. بعيدًا... وأنا أحتضنك وأقبلك!".

ثم قبلها وقبل ثوبها وصدرها ويديها، وصحت هي بغتة وقالت له: "متيا... من هذا الذي ينظر إلينا؟".

وكان هناك حقًا شخص ينظر إليهما بعد أن أزاح الستار!، ولم يكن هذا

الشخص وحده، فقد لمح ديمتري وجوهًا أخرى، فنهض ومشى إلى الجانب الآخر من الستار حتى وقف كالضم أمام ذلك الشخص الذي كان ينظر إليه ويقترب منه!.

وشعر متيا برعدة تسري في جسده فقد رأى الغرفة ممتلئة بناس لم يكونوا بها من قبل وعرف من بينهم "ميهيل ماكاروفتش" حكمدار البوليس، وهو رجل شيخ طويل القامة بادن الجسم يرتدي معطفًا، كما عرف زميله النائب الصغير حسن الهندام الذي يبدو دائمًا وكأنه مصاب بالسل، وتذكر متيا أنه أراه مرة ساعة (كرونومتر) اشتراها بأربعمائة روبل، وزميله الثالث الشاب الذي يضع منظارًا على عينيه، إنه (قاضي التحقيق) الذي نقل إلى البلدة حديثًا، وإن كان هو قد نسى اسمه، وكان هناك أيضًا "مافريكي مافريكيفتش" مفتش البوليس الذي يعرفه حق المعرفة، كما كان هناك آخرون كثيرون قدموا مع هؤلاء، بينما وقف كلجانوف مع تريفون بوريسوفتش يتبادلان النظرات في صمت، ومن خلفهما في أقصى الغرفة اثنان من الفلاحين!

وصاح متيا بأعلى صوته: "لم هذا كله يا سادة؟"، ولكنه سرعان ما أردف قائلًا: "حسنًا!، لقد فهمت!".

وهنا اقترب منه الشاب ذو المنظار وقال له: "أرجو أن تأتي معنا، إلى هذه الأريكة، فإنا نريد منك إيضاحًا!".

فقال ديمتري: "الرجل الشيخ!، نعم الشيخ الذي سكبت دمه!، إني فاهم! ".

ثم ارتمى على أول مقعد وجده، فصاح به حكمدار البوليس يقول:

"أفاهم أنت أيها الوحش يا قاتل أبيك؟!، إن دم أبيك يصرخ متهمًا إياك!" بينما التفت النائب الشاب إلى الحكمدار وقال له: "هذا لا يجوز يا ميهيل ماكاروفتش!، دعني أنا أسأله!"، ولكن الحكمدار استمر يوجه إلى ديمتري نظراته النارية قائلًا له: "إن هذا لا يحتمل!، انظروا إليه، إنه ثمل في هذه الساعة من الليل، بصحبة امرأة سيئة السمعة، ودم أبيه على يديه!".

فقال له النائب: "أرجو أن تحكم عواطفك يا عزيزي ميهيل ماكاروفتش وإلا اضطررت إلى...". ولكن قاضي التحقيق لم يدعه يتم جملته إذ التفت إلى ديمتري وقال له بصوت صارم: "أيها الملازم السابق كارامازوف، إن واجبي يقتضيني أن أخبرك بأنك متهم بقتل أبيك فيدور بافلوفتش كارامازوف، وبأنك ارتكبت هذه الجريمة الليلة!".

وقال قاضي التحقيق كلامًا كثيرًا، أضاف النائب كلامًا آخر!، ولكن ديمتري كان يسمع من غير أن يعي شيئًا، وإنما كان يحملق فيهم جميعًا وهو في ذهول تام!

التحقيق الابتدائي

كانت مارفا إيجناتيفنا زوجة جريجوري الشيخ قد استيقظت فجأة من نومها الذي استغرقت فيه بتأثير العقار الذي تجرعته، وكان ذلك حين سمعت صرخة من سمردياكوف في إبان نوبة الصرع التي انتابته، فقامت وذهبت إلى غرفته، وقد وجدتها مظلمة لكنها كانت تسمع زفيره وشهيقه أثناء تشنجه، وأرادت أن توقظ زوجها، ولكنها تذكرت فجأة أنه لم يكن بجانبها في الفراش، فجرت تبحث عنه وتناديه، ولما لم يجبها أخذت تبحث عنه في الحديقة وإذا بها تسمع أنينًا فسارت على هديه، وعجبت إذ وجدت باب الحديقة مفتوحًا، وأخيرًا سمعت صوت زوجها وهو ينادي اسمها بصوت ضعيف، على أنها لم تجده عند أسفل السياج حيث ضربه ديمتري بيد الهاون، بل على مسافة عشرين خطوة من هناك، ولعله زحف حين أفاق من إغمائه ثم عاوده الإغماء مرارًا بعد ذلك، ولحظت لأول وهلة أنه غارق في دمه فصرخت بأعلى صوتها، وسمعت جريجوري يقول: "لقد قتل أباه!، لا تصرخي يا حمقاء، بل اجري، وائتيني بأحد!".

ولما رأت نافذة غرفة سيدها مفتوحة وضوء شمعة فيها، جرت إلى هناك وأخذت تنادي فيدور بافلوفتش، ثم نظرت من خلال النافذة فبدا لها منظر مخيف إذ كان سيدها راقدًا على ظهره بلا حراك فوق أرض الغرفة، وقد غطى الدم جلبابه وقميصه، فتولاها الفزع من هذا المنظر وذهبت توًا إلى جارتها ماريا كوندراتيفنا، وكانت هذه وابنتها نائمتين فأيقظتهما بصراخها وأخبرتهما

بما رأته، وتذكرت ماريا كوندراتيفنا أنها حوالي الساعة الثامنة من ذلك المساء سمعت أحدًا يصيح من الحديقة قائلًا: "قاتل أبيه!"، ولا شك أنه كان جريجوري، وأيقظت الصائد (فوما) الذي يسكن لدى ماريا وذهبوا جميعًا إلى الحديقة ولحظوا أن باب البيت كان مفتوحًا على مصراعيه مع أن فيدور بافلوفتش كان يوصده بنفسه كل ليلة ولم يكن يسمح لأحد حتى لجريجوري نفسه بأن يدخل بعد ذلك، ولما ذهبوا إلى جريجوري طلب إليهم إبلاغ البوليس بما حدث!.

وقد خف مفتش البوليس ومعه أربعة شهود إلى بيت فيدوربافلوفتش، وبدأ التحقيق على الفور، ثم جاء حكمدار البوليس وقاضي التحقيق ووكيل النيابة والطبيب الشرعي، واتضح أن فيدور بافلوفتش فارق الحياة وقد وجدت جمجمته محطمة، وبدا أن الأداة التي ارتكبت بها الجريمة قد تكون هي نفسها يد الهاون التي صرع بها جريجوري بعد حين، وقد وجدت تلك الأداة بعد إسعاف جريجوري بالعلاج وإدلائه بمعلوماته، إذ أخذوا يبحثون بمصباح في الحديقة وسرعان ما وجدوا يد الهاون في مكان ظاهر في درب من دروب الحديقة، ولم يوجد بغرفة فيدور بافلوفتش أية دلالة على عراك، غير أنهم وجدوا إلى جوار السرير فوق الأرض غلافًا كبيرًا كتب عليه "هدية ثلاثة آلاف روبل إلى ملاكي جروشنكا إذا جاءت"، وكانت على الغلاف ثلاثة أختام بالشمع الأحمر ولكنه كان ممزقًا وخاليًا من المال.

وقد اهتم النائب وقاضي التحقيق بما قاله لهما بيوتر إيليتش من أن ديمتري فيدوروفتش صارحه بعزمه على الانتحار قبل بزوغ الفجر، وبأنه عبأ مسدسيه وأخذهما معه لهذه الغرض، ولذا أسرعوا إلى موكرو ليقبضوا على

المجرم ويحققوا معه، وثار اهتمامهم لما علموه من أنه أخذ معه إلى موكرو مقادير كبيرة من الطعام والشراب، وأدركوا أنه إنما أراد أن يودع حياته هكذا قبل أن ينتحر!.

* * *

واستغرق البحث والتحقيق في بيت فيدور بافلوفتش زهاء ساعتين، على أنهم بعثوا مافريكي مافريكفتش ضابط البوليس الريفي إلى موكرو قبلهم، وكان هذا قد جاء إلى البلدة صباح اليوم نفسه ليقبض مرتبه، وقد أوصوه بألا يحدث ضجة حين يصل إلى موكرو، وأن يرقب المجرم دائمًا ولا يغفل عنه لحظة، وأن يعد الشهود والشرطة ويتخذ المعدات الأخرى اللازمة، وكان لا يعرف مافريكي مافريكفتش في موكرو أحد سوى تريفون بوريسوفتش صاحب الفندق، فأسر إليه بما جاء من أجله، ولذا كان الأخير واجمًا حين صادف ديمتري خارجًا من الشرفة، ثم جاء حكمدار البوليس وقاضي التحقيق والنائب وغيرهم في عربتين قبيل الساعة الرابعة صباحًا، ومكث الطبيب الشرعي بالبلدة ليفحص جثمان القتيل صباح اليوم التالي، وقد اهتم اهتمامًا خاصًا بحالة سمردياكوف وقال: "إن نوبات الصرع العنيفة هذه التي تستمر كل منها أربعًا وعشرين ساعة هي أمر نادر، فهي جديرة بالبحث العلمي!"، وكان من رأيه أن سمردياكوف قد ينتهي أجله بانتهاء تلك الليلة!

أما ديمتري فيدوروفتش فجلس ينظر إلى من حوله من المحققين وغيرهم وهو ذاهل لا يكاد يفقه ما يقولونه له، ثم صاح بغتة وهو يلوح بيديه:

– إنني بريء!، إنني بريء من ذلك الدم!، إنني لم أقتل أبي، صحيح أني كنت أريد أن أقتله ولكني لم أقتله!.

ولم يكد يقول ذلك حتى اندفعت جروشنكا من وراء الستار وارتمت على قدمي حكمدار البوليس وهي تبكي وقالت له:

– إن الذنب ذنبي أنا!، إني شريرة! أنا التي دفعته إلى ذلك، لقد عذبته وعذبت ذلك الشيخ المسكين الذي مات، إن الذنب ذنبي أنا فيما حدث!.

فصاح بها حكمدار البوليس قائلًا: "أجل إنه ذنبك!، أنت المجرمة الأولى، أنت يا عاهرة!".

ولكن النائب قاطعه وصاح به قائلًا: "هذا مخالف للقانون يا ميهيل ماكاروفتش!، إنك بهذا تفسد التحقيق!".

واستطردت جروشنكا تقول وهي لا تزال راكعة تبكي: "حاكموني معه، عاقبونا معًا، سأذهب معه ولو إلى الموت!".

فركع ديمتري إلى جانبها وقال لها: "جروشا! يا حياتي ودمي!، أيتها القديسة!"، ثم احتضنها وقال للمحققين: "لا تصدقوها، إنها بريئة من هذا الدم، بريئة من كل شيء!".

ثم قال: "أقسم يا سيدي، إني بريء من دم أبي!، لقد سفكت دم رجل آخر ولكني بريء من دم أبي، وأني لأبكي ذلك الرجل الذي قتلته، ولكني لا أكفر عن قتله بجريمة أخرى أنا بريء منها!، إنها تهمة شنعاء أيها السادة!،

ولكن من الذي قتل أبي؟، من الذي قتله؟، ترى من يكون قاتله ما دمت أنا لم أقتله؟، إن هذا عجيب! إن هذا محال!".

فقال له قاضي التحقيق: "صدقت، من الذي قتله إذا لم تكن أنت قد قتلته!".

ولكن إيبوليت كيريلوفتش النائب رمقه بنظرة ثم قال لمتيا: "لا تزعج نفسك بشأن الخادم الشيخ جريجوري فاسيليفتش، فإنه لم يمت وقد شفي مما أصابه، وسيعيش برغم الضربات العنيفة التي أصبته بها باعترافه واعترافك أو هذا ما يقوله الطبيب على الأقل!".

فأشرق وجه متيا ورفع يديه وقال: "أهو حي إذن؟، حمدًا لك يارب على هذه المعجزة التي تفضلت بها علي أنا المذنب العاصي!، لقد أجاب الله دعائي!".

ثم نظر حوله وقال لهم: "شكرًا لكم أيها السادة، لقد منحتموني حياة جديدة وضميرًا جديدًا، إن ذلك الشيخ جريجوري كان يحملني بين ذراعيه، وكان يحميني وأنا طفل في الثالثة من عمري، وكان أبًا لي حين هجرني الجميع!".

وأخذ ديمتري يضحك، وبدت في وجهه دلائل الثقة والأمل، ثم قال له: "إنك قاضي تحقيق بارع يا نيقولاي بارفنوفتش!، وسأساعدك الآن على أداء مهمتك!، إني أشعر الآن كأني خلقت خلقًا جديدًا، وأحسبني كان لي شرف لقائك عند قريبي ميوزوف، إني أيها السادة لا أدعي أني أقف معكم على قدم المساواة، بل أعرف طبعًا الصفة التي أجلس بها أمامكم الآن، وبالطبع

هناك ريبة شديدة تحوم حولي، خصوصًا إذا كان جريجوري قد شهد ضدي كما تقولون، ولكن ما دمت أعرف أني بريء فيمكننا إنهاء الأمر في دقيقة واحدة، أليس كذلك؟".

وكان يتكلم بسرعة وبشكل عصبي من غير أن يتوقف، فقال له نيقولاي بارفنوفتش:

– إذن نكتب الآن أنك تنفي التهمة عن نفسك نفيًا باتًّا؟!.

ومال المحقق على سكرتيره ليملي عليه، فقال متيا: "أتريد أن تكتب ذلك؟، إذن اكتبه، ولكن اكتب أيضًا أني أقر باضطراب سيرتي وبأني مذنب إذ ضربت ذلك الشيخ الطيب جريجوري!، وهناك في قرارة قلبي شيء أحمل تبعته أيضًا ولكن لا تكتبه (وهنا التفت إلى السكرتير) وتلك هي حياتي الخاصة التي لا تعنيكم أيها السادة، أما قتل أبي فأنا بريء منه، هذه فكرة نكراء!، وسأبرهن لكم على براءتي من هذه التهمة وستضحكون من اتهامكم إياي!".

فقال له نيقولاي بارفنوفتش: "لنعد إلى ما كنا بصدده، ما الذي غرس في قلبك ذلك البغض لأبيك؟، أحسبك قد قلت علنًا إن بغضك إياه قائم على الغيرة؟".

فقال ديمتري: "لم تكن الغيرة وحدها هي السبب!".

فسأله: "أكانت هناك خلافات على المال أيضًا؟"، فأجاب: "نعم يا سيدي".

فقال له النائب: "كان بينكما على ما أظن نزاع على ثلاثة آلاف روبل تعدها من ميراثك؟".

فصاح متيا بغضب: "ثلاثة آلاف؟!، بل أكثر من ستة آلاف وربما عشرة آلاف، وكنت أصارح كل إنسان بذلك، ولكني كنت قد قنعت بأن آخذ ثلاثة آلاف فقط، فقد كنت في حاجة شديدة إلى ثلاثة آلاف، ومن ثم كنت أحسب الآلاف الثلاثة التي يخفيها تحت وسادته ليهبها إلى جروشنكا، كأنها مالي المسلوب، أجل أيها السادة، لقد عددتها مالا أملكه!".

وهنا نظر النائب نظرة ذات معنى إلى قاضي التحقيق فقال هذا: "سنعود إلى هذه النقطة فيما بعد، وإنما اسمح لنا الآن أن نسجلها، لقد كنت تعد ذلك المال ملكًا لك، أليس كذلك؟".

فقال ديمتري: "نعم، سجلوا ذلك، إني أعرف وقائع أخرى ضدي ولكني لا أخشى شيئًا، وأنا أذكرها ولو كانت لغير صالحي، أتسمعون؟ أتدرون أنكم لا تعرفونني على حقيقتي؟، إنكم حيال رجل شريف، يقدر الشرف فوق كل شيء، رجل قد ارتكب خطايا عديدة ولكنه شريف في قرارة نفسه، ولا أدري كيف أعبر عن ذلك، إنه هو الذي فرض على الشقاء طول حياتي، فقد كنت دائمًا تواقًا لأن أكون شريفًا، كنت بعبارة أخرى ضحية الشعور بالشرف، أبحث عنه بمصباح ديوجينيس، ومع ذلك مكثت طول حياتي آتي أفعالًا قذرة، كشأننا جميعًا أيها السادة!، لقد أخطأت، أعني كشأني أنا وحدي!، معذرة أيها السادة، إن برأسي صداعًا، إنني لم أكن أطيق رؤيته فقد كان به شيء بغيض وقح، إذ كان يدوس كل ما هو مقدس ويسخر من كل شيء، أما الآن وقد مات فقد تبدل شعوري!".

فسأله النائب: "ماذا تعني بذلك؟"، فأجاب بقوله: "الواقع أن شعوري لم يتبدل نحوه، ولكني أتمنى لو لم أبغضه كل ذلك البغض!".

فسأله: "أتشعر بالندم؟"، فقال: "كلا!، لست نادمًا، لا تكتبوا ذلك، إني أنا نفسي لست من الخيرين فلم يكن من حقي إذن أن أشمئز منه لسوء سيرته، هذا ما أعنيه فاكتبوه!".

* * *

وكان يزداد حزنًا وعبوسًا كلما تقدم التحقيق، وفي هذه اللحظة وقعت مفاجأة، فإن جروشنكا وإن تكن قد أخرجت من الغرفة لم تذهب بعيدًا بل أدخلت الغرفة المجاورة وجلست فيها مع مكسيموف– وكان قد تولاه الخوف والحزن– وأخذت تبكي وتنتحب ثم قامت من مقعدها فجأة وبسطت ذراعيها وولولت واندفعت إلى حيث كان متيا قبل أن يتنبه الحاضرون إلى منعها، ولما سمع متيا صياحها ارتجف وقفز من مكانه وهرع للقائها، ولكن الحراس أمسكوا به وحالوا دون لقائه إياها، وبذل كل ما لديه من قوة ليفلت منهم حتى اجتمع عليه ثلاثة، أو أربعة، وفي الوقت نفسه أمسكها الحراس وسحبوها من الغرفة وهي لا تزال تصيح باكية، ثم جلس متيا في مقعده وقال للمحققين:

– ماذا تريدون منها؟، لماذا تعذبونها؟، إنها لم ترتكب إثمًا!.

فحاول المحققون تهدئته حتى إذا انقضت في ذلك حوالي عشر دقائق جاء ميهيل ماكاروفتش إلى الغرفة يقول: "لقد أبعدوها، وهي الآن في الطابق الأرضي، أتسمحون لي أيها السادة بأن أقول كلمة في حضوركم لهذا الرجل

التاعس؟"، ولما وافقوا قال للمتهم: "اصغ إلي يا ديمتري فيدوروفتش، يا عزيزي، لقد أخذت فتاتك أجرافينا إلكسندروفنا بنفسي إلى الطابق الأدنى وتركتها في رعاية بنات صاحب الفندق، ولم يفارقها ذلك الشيخ مكسيموف، وقد هدأت خاطرها، أسامع أنت؟، وبينت لها أن عليك أن تبرئ نفسك فلا ينبغي لها أن تعوقك أو تحزنك وإلا اضطربت وقلت في التحقيق ما لا ينبغي لك أن تقوله، وقد أدركت هي الموقف، وهي في الحق فتاة ذكية طيبة، وأرادت أن تقبل يدي وهي ترجو مني معاونتك، ثم بعثتني إليك لأبلغك ألا تقلق من أجلها، والآن يا عزيزي يجب أن أعود إليها لأطمئنها وأقول لها إنك هادئ غير قلق عليها، لقد أسأت بها الظن مع أنها فتاة طيبة، إني أقول لكم أيها السادة إنها رقيقة الحس ولم تأت ذنبًا!".

وكان حكمدار البوليس يقول ذلك والدمع يترقرق في عينيه، فقال له متيا: "إن لك قلب ملاك يا ميهيل ماكاروفتش، وإني شاكر لك ما فعلته لها، وسأكون هادئًا بل فرحًا كذلك، فقل لها ذلك وقل لها إني عما قليل سأضحك، ومتى انتهيت من كل هذا وصرت حرًا فإني سألحق بها فدعها تنتظر!".

ثم التفت إلى المحققين وقال: "الآن أيها السادة سأفتح لكم قلبي ولن أخفي عليكم شيئًا، فلنتم هذا الأمر على عجل وفي سرور، وسنضحك في النهاية، أليس كذلك؟ ولكن تلك المرأة أيها السادة هي مليكة قلبي، إنها ضوء حياتي، إنها قديستي! آه لو عرفتم! هل سمعتموها وهي تصيح قائلة: (سأذهب معك إلى الموت)؟ وماذا فعلت أنا السائل المعدم حتى أستحق مثل هذا الحب؟، كيف استأهل وحش مثلي له هذا الوجه الدميم مثل هذا الحب

الذي يجعلها لا تبالي أن تشركني في النفي؟، ألم تروا كيف ارتمت على أقدامكم منذ لحظة؟،كل ذلك وهي المرأة المتكبرة التي لم تأت ذنبًا! سامحوني أيها السادة، ولكن الآن ارتاح بالي!".

وقبع في مقعده وأخذ يبكي وقد غطى وجهه بيديه، ولكنها كانت دموع الفرح، وسرعان ما استعاد رباطة جأشه فسر المحققون لأنهم أدركوا أن التحقيق دخل في مرحلة جديدة، ثم قال لهم: "الآن أيها السادة أنا طوع أمركم!".

فقال له نيقولاي بارفنوفتش: "إنك لا تدري إلى أي حد تشجعنا باستعدادك للإجابة!، إن الثقة المتبادلة في مثل هذه القضايا تساعد كثيرًا، إذا كان المتهم يريد حقًا أن يدافع عن نفسه، ونحن من جانبنا لن نألو جهدًا لتمكينك من ذلك، ألست توافق على هذا يا ابوليت كيريلوفتش؟".

والتفت قاضي التحقيق إلى النائب فقال له هذا: "بالطبع!"، ثم واصل ديمتري كلامه فقال: "إذن دعوني أيها السادة أقص عليكم قصتي دون أن تقاطعوني، وسأحكي لكم كل شيء!".

فقال له النائب: "هذا بديع!، شكرًا لك، ولكن قبل أن نستمع إلى بيانك أريد أن أسألك عن واقعة صغيرة ذات أهمية لنا، وأعني الروبلات العشرة التي اقترضتها أمس من صديقك بيوتر إيليتش برهوتين برهن مسدسيك عنده حوالي الساعة الخامسة مساء".

فقال ديمتري: "لقد رهنتهما على عشرة روبلات، وهذا كل ما في الأمر، رهنتهما عند عودتي إلى البلدة".

فسأله: "تقول إنك عدت للبلدة، أكنت إذن قد رحلت منها؟".

فأجاب: "نعم، كنت قد قمت برحلة إلى الريف على مسافة أربعين فرسخًا، ألم تعلم ذلك؟".

فتبادل قاضي التحقيق والنائب نظرة، ثم قال الأخير لديمتري:

– ما رأيك لو بدأت حكايتك بوصف دقيق لكل ما فعلته أمس منذ الصباح؟، اسمح لنا أن نسألك مثلًا لماذا غادرت البلدة، ومتى رحلت وإلى أين رحلت، كل هذه الوقائع!.

فأخذ يقص عليهم كل ذلك حتى إذا أتم قصته أبرز المحقق له يد الهاون وقال له: "أتعرف هذه؟".

فضحك متيا في وجوم وقال: "نعم أعرفها!، دعني ألق نظرة على هذه الملعونة!".

فقال له: "لقد فاتك أن تذكرها لنا!"، فقال ديمتري: "ما كان لي أن أكتم نبأها عنكم، وإنما خانتني الذاكرة!".

فسأله: "ألا تبين لنا كيف تسلحت بها؟".

فذكر لهم كيف أخذ يد الهاون من المطبخ حين قابل فنيا في المرة الأولى، وهنا سأله النائب: "لكن ما هو الغرض الذي استهدفته حين تسلحت بمثل هذا السلاح؟".

فقال ديمتري: "لم يكن لي أي غرض!، لقد التقطتها وجريت، وهذا كل ما في الأمر!".

فعاد يسأله: "لكن المعقول أن يكون أخذها بهذه الطريقة لغرض خاص؟".

فبدا عليه الغضب وقال: "دعونا من هذه الملعونة الآن!".

فقال النائب: "لكن لابد لنا أن نعرف!"، فقال ديمتري: "إذن، يكفي أن تعرفوا أني أخذتها لكي أبعد بها الكلاب عني، لأن الظلام كان حالكًا!".

فسأله: "هل سبق لك أن أخذت معك سلاحًا عند الخروج في الظلام؟".

وكان قد نفد صبره فصاح قائلًا: "اكتبوا أني أخذتها لأقتل أبي فيدور بافلوفتش، بأن أضربه بها على رأسه!، أيرضيكم هذا أيها السادة؟، وهل اطمأنت به نفوسكم؟".

فقال له النائب: "إنك أدليت الآن بهذا الاعتراف لتبرمك بنا وبأسئلتنا التي تحسبها تافهة وهي مع ذلك ذات أهمية بالغة في نظرنا!".

فقال ديمتري: "حقًا أيها السادة، لقد أخذت يد الهاون هذه، ولست أدري لماذا أخذتها!".

ثم أخذ يقص عليهم كيف تسلق السياج إلى الحديقة، وكيف أعطى الإشارة التي علمه سمرديا كوف إياها ليشعر أباه بأن جروشنكا جاءت، وكيف أطل أبوه من النافذة، إلى أن أمسكه جريجوري من قدميه وهو يتسلق السور عائدًا فضربه بيد الهاون على أم رأسه وهنا سأله النائب: "حين جريت بعيدًا عن النافذة ألم تلحظ أن الباب المؤدي إلى الحديقة كان مفتوحًا؟".

فقال: "بل كان مغلقًا!، ولم يكن هناك من يفتحه!، ولكن انتظر يا

سيدي، أحسب أنه كان مفتوحًا، أجل لقد كان مفتوحًا، ولكن من الذي فتحه؟، هذا عجيب حقًا!".

فقال له النائب: "لقد كان الباب مفتوحًا، وقد ولجه قاتل أبيك حتى إذا ارتكب جريمته خرج من ذلك الباب نفسه!، إن هذا واضح وقد دلت المعاينة، ودل وضع الجثة على أن القاتل دخل من الباب لا من النافذة!".

* * *

فدهش متيا وقال: "لكن هذا محال!، إنني لم ألج ذلك الباب، إني موقن أن الباب كان مغلقًا طول الوقت الذي مكثته بالحديقة وكذلك حين جريت خارجًا منها، وإنما وقفت خارج النافذة ونظرت من خلالها، وهذا كل ما حدث، إني أذكر جيدًا كل ما كان حتى آخر لحظة، وإذا لم أكن أتذكره فإن هذا لا يغير الحقيقة، إني أعرف ذلك لأنه لم يكن أحد يعرف تلك الإشارات سواي وسوى سمردياكوف والشيخ الذي مات، وهو ما كان ليفتح الباب لأي إنسان لولا تلك الإشارات!".

فسأله النائب: "وما هي تلك الإشارات؟".

فأخذ يشرحها لهم قائلًا: "إن سمردياكوف الطاهي هو الذي أسر إلي بها".

فاهتم المحققون كثيرًا بهذه النقطة ودونوها في المحضر ثم قال له النائب: "إذا كان سمردياكوف يعرف تلك الإشارات وأنت تنفي عن نفسك كل تبعة عن مقتل أبيك فهل تعتقد أن سمردياكوف هو الذي أعطى تلك الإشارات ليغري أباك بفتح الباب ثم قتله؟".

فقال متيا ساخرًا: "إني أرى ما ترمي إليه يا حضرة النائب، إنك تحسبني سأفرح بهذا الفرض وسأتهم سمردياكوف بأنه القاتل، ولكنك مخطئ لأني لن أقول ذلك!".

فسأله: "ألا ترتاب فيه على الأقل؟"، فأجاب: "كلا!، لماذا أرتاب فيه؟!"، ثم أطرق قليلًا وقال: "إنني منذ البداية حين جئتم إلى هنا قد اتجه فكري إلى سمردياكوف وكنت طول الوقت أفكر فيه، ولكني أؤكد لكم براءته!".

فسأله: "ما الذي يجعلك تؤكد ذلك؟".

فأجاب: "لأن سمردياكوف جبان!، إنه الجبن مجسمًا يمشي على رجليه وكأن له قلب دجاجة، إنه حين كنت أكلمه كان يرتجف دائمًا خشية أن أقتله مع أني لم أرفع يدي عليه قط، لقد كان يرتمي على قدمي، وقد قبل هذا الحذاء الذي ألبسه متوسلًا إلي ألا أرعبه!، أتسمعون! وكنت أمنحه نقودًا، إنه لضعفه وجبنه وللصرع الذي يتملكه يكاد يهاب طفلًا في الثامنة من عمره، كلا أيها السادة، إن سمردياكوف لا يمكن أن يكون القاتل، ثم أنه لا يحب المال ولا يهتم به، وكان يرفض ما أمنحه إياه، ثم لأي غرض يقتل ذلك الشيخ؟، إنه قد يكون ابنه غير الشرعي كما يقول الناس، ألم تسمعوا بذلك؟".

فقال النائب: "لقد سمعنا به، ولكنك أنت أيضًا ابن أبيك ومع ذلك كنت تقول لكل إنسان إنك ستقتله!".

فقال ديمتري: "هذه طعنة دنيئة منكم!، لأني أنا نفسي الذي أخبرتكم

بذلك!، إني لم أرد قتل أبي بل لعلي كنت سأقتله فعلًا، وقد تطوعت لإخباركم بأني قبل ذلك كدت أقتله فعلًا، ولكن الواقع إني لم أقتله، لأن الملاك الذي يحرسني قد كفاني شر ذلك، وهذا الذي لا تدخلونه في حسبانكم، ولذا أعد هذا الاتهام دناءة منكم، ذلك لأني لم أقتل أبي، أتسمعون؟، إني لم أقتله!".

وكاد يختنق من الحنق وهو يقول ذلك، ثم قال: "ماذا قال لكم سمرديا كوف حين استجوبتموه؟".

فقال النائب: "لقد وجدناه في فراشه غائبًا عن الوعي من أثر نوبة الصرع، وقال لنا الطبيب الذي عاده أنه قد لا يعيش بعد هذه الليلة!".

فقال ديمتري: "ما دام الأمر كذلك فلابد أن الشيطان هو الذي قتل أبي!".

وأخذ المحققون يسألونه عن الدم الذي كان على يديه وجبهته وأكمامه فأجاب بأنه من أثر ضرب جريجوري بيد الهاون، ثم سألوه عن مصدر المال الكثير الذي حازه بغتة فأجاب قائلًا: "لا أريد أن أتحدث عن ذلك لأنه أمر يلوث شرفي، إن الإجابة عن سؤالكم هذا يعرضني لعار أشد من وصمة قتل أبي وسرقة ماله إذا كنت قد قتلته وسلبته ذلك المال، ولذا لا أقول لكم فرارًا من ذلك العار، ماذا أيها السادة؟، أتريدون أن تكتبوا هذا أيضًا في المحضر؟".

فقال له نيقولاي بارفنوفتش: "ألا يمكنك الآن أن تذكر لنا على الأقل مقدار المبلغ الذي كان معك حين زرت بريوتر إيليتش برهوتين؟".

فأجاب قائلًا: "لا يمكنني أن أقول شيئًا عن ذلك!".

ثم سألوه كيف جاء إلى موكرو، وماذا فعل طول الليلة، فذكر أنه اشترى من البقال بلوتنيكوف طعامًا وشرابًا بمبلغ ثلاثمائة روبل، كما أعاد إلى بريوتر إيليتش برهوتين الروبلات العشرة التي اقترضها منه، وأنفق في موكرو حتى تلك الساعة مائتي روبل.

وحسب المحقق هذه المبالغ كلها وما وجد معه ثم قال له: "إذن كان معك على الأقل ألف وخمسمائة روبل؟".

فقال: "أحسب ذلك!".

فقال له النائب: "لكن الشهود يؤكدون أنك كنت تحمل أكثر من هذا المبلغ، وأنت نفسك قلت ذلك؟".

فقال في غير اكتراث: "نعم قلت ذلك!".

ثم سألوه رأيه فيما شهد به جريجوري وأكده من أن باب البيت المؤدي إلى الحديقة كان مفتوحًا فقال: "هذا كذب صراح!، لابد أنه كان يهذي من أثر الضربة أو لعله يريد أن يفتري علي!".

وهنا باغته النائب بوضع ظرف كبير ممزق على المائدة وسأله: "أتعرف هذا؟".

فأجاب: "لابد أن يكون هو المظروف الذي كان يحوي ثلاثة آلاف روبل، إذا كان هذا هو المكتوب عليه، اسمحوا لي أن أقرأ؟، نعم إنه هو، هذه هي عبارة (إلى ملاكي)، وعبارة (ثلاثة آلاف روبل..)، وهما بخط أبي ولا شك!".

فقال له النائب: "لكننا لم نجد به أي شيء من تلك الآلاف الثلاثة حين وجدناه مطروحًا على الأرض إلى جوار السرير خلف الستارة!".

فذهل متيا وفكر لحظة ثم صاح بغتة: "إنه سمردياكوف!، إنه سمردياكوف هو الذي قتل أبي!، لقد سرق الثلاثة الآلاف! إنه هو وحده الذي كان يعرف أين يخبئ أبي هذا المظروف، لقد وضح الأمر وسمردياكوف هو القاتل!".

فقال النائب: "لكنك أنت أيضًا كنت تعلم بوجود هذا المظروف وأنه مخبأ تحت الوسادة".

* * *

فقال: "كلا!، إني لم أكن أعلم ذلك، ولم أر هذا المظروف قط من قبل، وإنما سمعت به من سمردياكوف، وهو الوحيد الذي كان يعرف أين يخبئه الرجل العجوز!".

فقال له النائب: "لكنك قلت لنا بنفسك إن هذا المظروف كان تحت الوسادة".

وقال له قاضي التحقيق: "إن قولك هذا مدون بالمحضر!".

فقال ديمتري: "هذا هراء!، إني لم أدر قط أنه كان تحت الوسادة، ولعله لم يكن تحتها مطلقًا!، وإنما خمنت ذلك تخمينًا، وماذا قال سمردياكوف؟، هل سألتموه أين كان المظروف؟، وماذا قال؟، هذا هو المهم، وإنما قلت لكم إنه تحت الوسادة دون وعي مني، إنكم تعرفون أن الإنسان قد يقول شيئًا وهو

لا يعنيه، لم يعلم أحد بمكان هذا الظرف سوى سمرديا كوف وهو لم يخبرني بمكانه قط!، لا شك في أنه هو القاتل!، ولابد أن أقتله بينما كنت أنا أجري بعيدًا وبينما كان جريجوري فاقد الوعي، إن الأمر واضح الآن، لقد أعطى الإشارة ففتح أبي الباب لأنه لا يعرف الإشارة سوى سمرديا كوف، وأبي ما كان ليفتح لأحد!".

فقال له النائب: "لكنك تنسى الظروف، لم تكن هناك حاجة لإشارة ما دام الباب كان مفتوحًا من قبل حين كنت أنت في الحديقة!".

فقال ديمتري في تساؤل: "لعنة الله على هذا الباب!، إنه كابوس! إن الله نفسه ضدي!".

فقال له النائب بلهجة المنتصر: "أرأيت؟، يمكنك أن تحكم بنفسك يا ديمتري فيدوروفتش!، إن لدينا الآن دليلًا هو الباب المفتوح الذي جريت منه، ولدينا كذلك ما يعد دليلًا آخر وهو سكوتك المطلق عن تبيان المورد الذي أخذت منه المال الذي ظهر بيدك بغتة بعد ثلاث ساعات من اقتراضك عشرة روبلات برهن مسدسيك!".

فصاح متيا بغتة: "حسنًا!، إذن أفشي لكم سري!، سأقول لكم من أين حصلت على هذا المال!".

فقال له النائب: "ثق يا ديمتري فيدوروفتش بأنك إذا أدليت باعتراف كامل صريح في هذه اللحظة فإن ذلك قد يفيد قضيتك كثيرًا فيما بعد وربما...".

ولكن النائب غمز قاضي التحقيق بقدمه تحت المائدة فلم يتم جملته، بينما تكلم ديمتري فقال:

– لا بأس أيها السادة!، سأدلي لكم باعتراف كامل، إن ذلك المال هو مالي أنا! فدهش المحققون وسأل نيقولاي بارفنتش: "كيف ذلك؟، ألم تكن في الساعة الخامسة من اليوم نفسه قد اقترضت عشرة روبلات باعترافك؟".

فقال ديمتري: "دعكم من الساعة الخامسة ومن اعترافي، إن هذا كله لا شأن له بما أقوله الآن عن أن ذلك المال هو مالي الخاص، لقد كان ألفًا وخمسمائة روبل، وكان معي طول الوقت، هنا فوق صدري، حيث حفظته في كيس، وحملته معي منذ شهر، يا للعار والشنار!".

فسأله النائب: "ممن استوليت عليه؟"، فأجاب ديمتري قائلًا: "بل اسألني ممن سرقته؟، إني أعد نفسي قد سرقته حقًا، ولكني أوثر تعبيرك بأني استوليت عليه، وإن كنت قد سرقته بصفة نهائية ليلة أمس!".

فتساءل النائب: "ليلة أمس؟، ألم تقل الآن إنك كنت تحمله على صدرك منذ شهر؟!".

فقال ديمتري: "نعم، ولكنى لم أحصل عليه من أبي!، اطمئنوا من هذه الوجهة، إني لم أسرقه من أبي ولكن منها! دعوني أنبئكم من غير أن تقاطعوني، إن الأمر عسير على كما تعلمون، منذ شهر بعثت في طلبي خطيبتي السابقة كاترينا إيفانوفنا، أتعرفونها؟ نعم أنتم تعرفونها!، إنها إنسانة نبيلة بل هي النبل نفسه!، ولكنها كانت تبغضني من زمن بعيد وهي على حق، لقد أدركت أنها تبغضني منذ أول يوم، منذ تلك الليلة في مسكني، ولكن كفى!، إنكم لستم

أهلا لأن تعلموا ذلك، ولا حاجة بي إلى إخباركم به، ويكفي أن أقول لكم إنها بعثت في طلبي منذ شهر وسلمتني ثلاثة آلاف روبل لأرسلها إلى أختها وإحدى قريباتها في موسكو، وكانت لا تقدر أن ترسلها بنفسها!، وكان ذلك في تلك الفترة الخطيرة من حياتي حين بدأت أحب أخرى، تلك الجالسة الآن في الطابق الأرضي، أعني جروشنكا، وقد جئت بها إلى هنا في موكرو وأنفقت في يومين اثنين نصف ذلك المبلغ، أما النصف الآخر فقد أبقيته معي، في كيس حول عنقي وكأنه قفل، ولكني أخرجته أمس من مخبئه وأنفقته، وما بقى منه لا يعدو ثمان مائة روبل هي في حوزتكم الآن !".

فقاطعه نيفولاي بارفنوفتش قائلاً: "كيف ذلك؟، إنك حين جئت إلى هنا في المرة الماضية أنفقت ثلاثة روبل لا ألفاً وخمسمائة، وكل إنسان يعرف ذلك".

فقال ديمتري: "من الذي يعرف ما أنفقته وقتئذ؟، على عد أحد النقود؟ هل تركت أحداً يحصيها؟".

فقال له النائب: "لقد قلت أنت لكل إنسان إنك أنفقت إذ ذاك ثلاثة آلاف روبل!".

فقال ديمتري: "نعم قلت ذلك لأهالي البلدة كلها، وهنا أيضاً في موكرو كان الناس جميعاً! يعتقدون أني أنفقت ثلاثة آلف روبل!، ولكن الواقع أني أنفقت ألفاً وخمسمائة فقط، أما الألف والخمسمائة الباقية فقد حفظتها في كيس صغير علقته بعنقي وهكذا حصلت أمس على المال!".

فغمغم نيفولاي بارفنوفتش قائلاً: "هذا عجيب!".

وقال النائي لديمتري: "هل أخبرت أحداً قبل الآن بأنك كنت تحمل ألفاً وخمسمائة روبل في كيس معلق بعنقك؟"، فأجاب هذا على الفور: "كلا!، لم أخبر أحداً بذلك!" .

فسأله: "ولماذا كتمت هذا السر؟، الواقع أن كونك قد استحوذت على ثلاثة آلاف روبل من مال الغير بقصد إعادتها هو في اعتقادي عمل من أعمال الطيش، ولكنه لا يعد عاراً بالشكل الذي تصوره، إن كثيراً من الناس قد تحدثوا بالثلاثة الآلاف التي أخذتها من كاترينا ايفانوفنا، وأنا نفسي قد سمعت بهذه الحكاية، وهذا ميهيل ما كاروفتش يعلم بها أيضًا، وهناك دلائل على أنك قد اعترفت لبعض الناس بأن ذلك المال يخص كاترينا إيفانوفنا، ومن ثم يحق لي أن أدهش الآن إذ كتمت سر الألف والخمسمائة التي تقول إنها كانت معلقة بعنقك، والتي يبدو أنك تحيط سرها بكثير من الذعر!، وعسير علينا أن نعتقد بأن اعترافك بها هو في نظرك مأساة مفجعة!، لقد قلت منذ برهة إنك تؤثر النفي إلى سيبريا على أن تفشى ذلك السر!" .

وأمسك النائب عن الكلام إذا قد بلغ الغيظ منه مبلغه فقال له ديمتري:

- ليس العار في تلك الألف والخمسمائة ولكن في كوني قد احتفظت بها جانيًا، لقد اؤتمنت على ثلاثة آلاف روبل، فافرضوا أني أنفقتها كلها في رحلة متعة ومرح، وأني أذهب بعد ذلك إلى من ائتمنتني عليها واعترف لها بذلك؟، إن هذا مناف للشرف!، إنه جبن وعار!، إنني أكون حيواناً لا يقدر ضبط نزعته!، ومع ذلك لست لصاً!، لقد بددت ذلك المبلغ ولكني لم أسرقه !، ثم هناك الفرض الأخير وهو أني لم أنفق الثلاثة الآلاف

كلها ولكن نصفها فقط، ثم أذهب بالنصف الباقي إلى صاحبة المال وأقول لها: (يا كاتيا، خذي هذا المبلغ الآن، إنني وغد ولا يؤتمن، فقد بددت نصف المال الذي أعطنيه وأخشى أن أبدد نصفه الآخر)، إنني في هذه الحالة أكون سلافاً حقاً ولكني لا أعد لصاً وإلا لما أعدت إليها نص مالها، بل كانت في هذه الحالة تؤمن بأني سوف أبذل قصارى جهدي لأدفع لها النصف الآخر، أجل عندئذ كانت تعرف أني قد أكون وغداً ولكني لست بلص!".

فابتسم النائب ابتسامة باردة وقال: "صحيح أن هناك فرقاً بين الحالتين ولكنه غير جوهري كما تظن!".

فقال ديمتري: "بل هناك فرق جوهري، فإن كل إنسان يمكن أن يكون وغداً، بل لعل كل إنسان هو وغد، ولكن كل إنسان لصًّا !، إني لا أعرف كيف أحدد الفروق بين الاثنين، ولكني أعتقد أن اللص أدنأ من الوغد، اسمعوا: لقد حملت الألف والخمسمائة حول عنقي شهراً كاملاً وأنا في كل يوم أعتزم الذهاب بها إليها فلا تطاوعني إرادتي!".

وتلا ذلك سؤال الشهود، فأكد صاحب الفندق أن ديمتري فيدوروفتش قد أنفق في المرة السالفة حين نزل فتدقه مع جروشنكا ما لا يقل عن ثلاثة آلاف روبل، وسئل بذلك مكسيموف وغيره من الحاضرين، وأخيراً جاء دور جروشنكا بوصفها شاهدة، وقد خاف نيفولاي بارفنوفتش أثر ظهورها في المتهم له بالهدوء، وجاءت بصحبة ميهيل ما كاروفتش وكانت متجهمة الوجه هادئة، وقد التفعت بشالها الفاخر إذ بدأت تشعر بالبرد، وأثر مظهرها في

الجميع حتى لقد أقر نيقولاي بارفنوفتش فيما بعد بأنها في الحق فاتنة!، وكان قد رآها من قبل وحسبها ليست أكثر من غانية ريفية، فدهش إذ رآها في تلك الساعة لا تقل في شيء عن بنات الطبقة الراقية!.

ولما دخلت الغرفة رمقت متيا بنظرة قصيرة فبان عليه القلق، ولكن هدوءها سرعان ما بعث في نفسه السكينة، وسألها المحقق عن نوع علاقتها مع الكابتن المتقاعد ديمتري فيدوروفتش كارامازوف فأجابت في حزم وهدوء:

- إنه أحد معارفي، وكان يزورني بهذه الصفة في الشهر الماضي!.

وأجابت عن أسئلة أخرى بأنها وإن تكن قد حسبته في بعض الأحيان جذاباً، لم تحبه حقاً، وإنما خلبت لبه كما خلبت لب أبيع عناداً منها وتسلية، كما ذكرت أنها لحظت شدة غيرته من أبيه ومن كل رجل آخر، فكان ذلك من أسباب لهوها، وأقرت بأنها لم تعتزم قط الذهاب إلي فيدور بافلوفتش وإنما كانت تسخر منه، ثم قال: "لم أكن أفكر في أحد منهما طول هذا الشهر، إذ كنت أنتظر رجلاً آخر كان قد أخطأ نحوي، ولكن ما أحسبكم بحاجة لأن تسألوا عن ذلك، ولن أجيب إذا سألتم، لأنه شأني الخاص بي".

فترك نيفولاي بارفنوفتش هذه الناحية العاطفية من الموضوع ومضى قدماً إلى النقطة الجوهرية منه المتعلقة بالثلاثة آلاف روبل، فأكدت جروشنكا ما قاله غيرها من الشهود من أن متيا أنفق فعلاً ثلاثة آلاف روبل في زيارته السابقة لموكرو، وهي لم تعد المبلغ بنفسها ولكنها سمعت متيا نفسه يقول إنه ثلاثة آلاف.

فسألها المحقق: "هل قال لك ذلك وحدك أو أمام غيرك من الناس؟".

فأجابت: "سمعته يقول للناس ثم قاله لي فيما بيني وبينه".

فسألتها: "هل أخبرك وحدك مرة واحدة أو عدة مرات؟".

فأجابت بأنه أخبرها به مراراً، واهتم النائب ايبوليت كريلوفتش بهذه النقطة، ثم دلت أقوال جروشنكا على أنها كانت تعرف مصدر تلك الآلاف الثلاثة وأنه ديمتري فيدوروفتش قد أخذها من كاترينا إيفانوفنا، ثم قال لها النائب:

- ألم تسمعي منه قط أن المبلغ الذي أنفقه هنا في المرة السابقة لم يكن ثلاثة آلاف روبل بل نصفه وأنه ادخر نصفه الآخر للمستقبل؟.

فأجابت بأنها لم تسمع منه ذلك قط، وزادت على هذا أنه صارحها مراراً بأنه لم يعد يملك درهماً، وكان دائماً يأمل في الحصول على مال من أبيه!.

فسألها: "ألم يقل لك عرضاً أو في حالة غضب إنه يعتزم قتل أبيه؟".

فتأوهت جروشنكا وقال: "أظن أني سمعت ذلك منه مرات في حالة هياجه!".

فسألها: "أكنت تصدقين أنه سيقتل أباه؟".

فقالت بجزم: "إني لم أحمل ذلك محمل الجد قط فأني واثقة من نبله!".

وهنا صاح متيا قائلاً: "اسمحوا لي أيها السادة أن أقول كلمة واحدة لأجرافينا إلكسندروفنا في حضوركم"، ولما سمح له المحقق وقف وقال لها: "يا أجرافينا إلكسندروفنا، ثقى بالله وبي، إنني برئ من دم أبي!".

ثم جلس في مكانه علي حين رسمت جروشنكا بأصبعها إشارة الصليب وقالت: "حمداً لك يا رب!".

ثم التفتت إلى نيقولاي بارفنوفتش وقالت له: "مادام قد قال ذلك فيجب أن تصدقه، إني أعرفه حق المعرفة، قد يقول أي شيء سخرية منه أو عناداً، ولكنه لا يخدع أحداً بما لا يقره ضميره، لقد قال حقاً فصدقوه !"

فقال لها متيا: "شكراً لك!، لقد بعثت في نفسي الشجاعة!".

ولما سئلت عن المبلغ الذي أنفقه في هذه الرحلة إلى موكرو وأجابت بأنها لا تعرف قدره ولكنها سمعته يقول لكل إنسان إن معه ثلاثة آلاف روبل، وقد قال لها إنه سرق هذا المبلغ من كاترينا ايفانوفنا فاعترضت قائلة له: "إنه لم يسرقه وإنه ينبغي له أن يعيده إليها غداً!".

وعندئذ سألها النائب: "أتعنين المبلغ الذي أنفقه أمس أم المبلغ الذي أنفقه في زيارته السابقة لمركرو؟".

فأجابت بأنها فهمت أنه المبلغ الذي أنفقه منذ شهر!.

وبعد ذلك سمح لها بالانصراف وصرح لها نيقولاي بارفنوفتش بأنها تستطيع أن تعود تواً إلى البلدة، وأنه على استعداد لأن يقدم لها أية مساعدة كعربة مثلاً، فقالت:

- شكرًا، سأعود مع هذا الشيخ (مكسيموف) وسأركب معه العربة التي جئت بها، ولكن اسمحوا لى أن أمكث في الطابق الأرضي حتى أعلم ما تقررونه بشأن ديمتري فيدوروفتش!.

وبهذا انتهى سماع الشهود وخرجت جروشنكا من الغرفة، ومكث متيا وقد أصبح أكثر طمأنينة من قبل، ثم روجع المحضر الذي كتب، وسمع لميتا بأن يستريح قليلاً فرقد على صندوق كبير في ركن الغرفة بجانب الستار، وسرعان ما غلبه النعاس، ولما استيقظ بعد حين وجد سادة تحت رأسه فتساءل من الذي وضعها ؟، ولكنه لم يدر من هو ذو القلب الرحيم الذي أشفق عليه وهو نائم، ولعله "كرتير" نيقولاي بارفنوفتش أو لعله أحد الشهود من الفلاحين!.

ولما وقع المحضر تلاه نيقولاي بارفنوفتش على المتهم وفيه بيان التهمة ومواد القانون التي يحاكم بها، وكان متيا يصغي إليه ويهز كتفيه ثم قال:

لست ألومكم أيها السادة، وأنا مستعد، ولم يبق شيء يعمل هنا على ما أظن!، فأخبره نيقولاي بارفنوفتش برفق بأنه سيصحبه مافريكي مافريكفيتش ضابط البوليس الريفي، وعندئذ قال متيا موجهاً خطابه لجميع الحاضرين:

- مهلًا أيها السادة، إننا قساة القلوب، إننا وحوش، إننا كلنا الأصل في بكاء الآباء والأمهات والأطفال الرضع، ولكني أنا أدنى الجميع فقد أقسمت لأصلحن من سيرتي، ومع ذلك كنت كل يوم لا أتوب عن السوء، والآن أدرك أن من كان مثلي يحتاج إلى ضربة من القدر توقظه من غفلته، لأني تركت إلى نفسي لما صحوت أبداً!؟، وأنا الآن راض عن عذاب الاتهام وما يجلبه على من عار أمام الناس، فأني أريد أن أتألم لكي أتطهر بالألم!، على أني أقول لكم للمرة الأخيرة: إني برئ من دم أبي!

ثم طلب اليهود ديمتري أن يرى جروشنكا لحظة أمامهم، فجئ به، وكان الوداع بينهما قصير المدى فقد حنت له رأسها وقالت:

– لقد قلت لك إنني لك وسوف أكون لك، وسأتبعك إلى أين يبعثونك، وداعاً، إنك برئ وإن كنت قد جلبت لنفسك الخراب!

فارتعشت شفتاه ودمعت عيناه وقال لها: "سامحيني يا جروشنكا!، لقد جلبت لك أيضاً الخراب بحبي لك!".

عاد إيفان من موسكو بعد خمسة أيام من مصرع أبيه، ومن ثم لم يشترك في جنازته التي احتفل بتشييعها قبل عودته، وكان سبب تأخره هذا أن أخاه أليوشا لم يكن يعرف عنوانه في موسكو، وقد لجأ في ذلك إلى كاترينا إيفانوفنا لكنها كانت أيضاً لا تعرف عنوانه، وأبرقت إلى أختها وعمتها هناك لعله زارها عقب وصوله، غير أنه لم يزرها إلا بعد أربعة أيام فعلم منهما بالحادث.

وكان أليوشا أول من لقيه في البلدة، وقد عجب إيفان إذ وجده على عكس أهالي البلدة جميعاً، يؤمن ببراءة أخيه ديمتري من دم أبيه، ويوقن بأن سمر دياكوف هو القاتل، ولما قابل إيفان حكمدار البوليس والنائب ووقف على تفاصيل التحقيق زاد عجباً من اليوشا، ونسب إيمانه ببراءة متيا إلى حبه الأخوي له!.

والواقع أن إيفان كان يكره أخاه ديمتري، وإن يكن في الوقت نفسه يعطف عليه عطفاً ممزوجاً بالاحتقار، ومع ذلك زاره في السجن يوم وصوله إلى البلدة، وأكد حديثه معه اعتقاده بجرمه، فقد تكلم ميتا معه كلاماً عنيفًا لا ارتباط بين أجزائه، واتهم سمر دياكوف بأنه القاتل، على أن أهم ما دار حوله كلامه هو الآلاف الثلاثة التي سرقت من أبيه، فقد أخذ يقول مراراً وتكراراً: "إن هذا المال مالي، ولو أني سرقته لكان لي الحق فيه!"، وأبدي ازدراءه للتهم الموجهة ضده، وسخر من شهادة جريجوري بأنه وجد الباب مفتوحاً.

وكان إيفان خلال سفره بالقطار من موسكو إلى البلدة، قد أخذ يفكر في سمر دياكوف وحديثه الأخير معه ليلة سفره، فقد بدا له كثير من هذا الحديث مريباً باعثاً على الحيرة، ولكنه حين أدلى بأقواله لقاضي التحقيق لم يشر قط إلى ذلك الحديث، فقد أرجأ ذلك حتى يلقى سمر دياكوف، ثم قابل بعد ذلك الدكتور هرز نشوب والدكتور فارفنسكي في المستشفى، فأكدا له أن نوبة الصرع التي أصابت سمر دياكوف ليلة الحادث كانت نوبة حقيقة غير مفتعلة، وأنها كانت شديدة إلى حد الخطر على حياته ولم يشف منها إلا بعد العلاج والعناية الشديدة، ومع هذا فإن عقله قد يصاب من جرائها بنقص مؤقت أو دائم!.

وعلى أثر ذلك زار ايفان سمر دياكوف في المستشفى، ولم يكن معه في الغرفة سوى مريض آخر هو تاجر مصاب بالاستسقاء ويكاد يكون في دور النزع، ولذا لم يكن هناك عائق دون أن يتكلم الاثنان في حرية، فقال له ايفان: "أتستطيع أن تتحدث معي؟، إني لن أجهدك!".

فرد سمر دياكوف قائلاً بصوت ضعيف: "نعم... متى عدت من السفر؟" .

فقال ايفان: "عدت اليوم فقط، فرأيت النكبة التي حلت بنا!" .

فتأوه سمر دياكوف وقال له: "إن كل الدلائل كانت تنبئ بوقوعها!" .

فسأله: "لكن كيف تنبأت لنفسك بنوبة الصرع، أعني كيف استطعت أن تتنبأ بموعدها وبالموضع الذي ستدهمك فيه؟".

فسأله سمر دياكوف: "هل قلت أنت ذلك في التحقيق؟".

فأجاب قائلاً: "لم أقله بعد، ولكن سوف أقوله بالتأكيد!، والآن عليك أن تفسر كثيراً مما أشكل علي ولن أدعك تخدعني!".

فقال له سمر دياكوف في صوت متقطع: "ولماذا أخدعك؟، أني أضع كل ثقتي فيك!".

فقال له إيفان: "إن المريض بالصرع لا يمكن أن يتنبأ بنوباته سلفاً، ولكنك تنبأت بيوم النوبة بل بساعة حدوثها وبأنها ستجيئك في طريقك إلى القبور!".

فقال سمر دياكوف: "إني أذهب إلى القبو مراراً كل يوم، وإذا كان الإنسان لا يمكنه أن يتنبأ بموعد النوبة فإنه مع ذلك قد يشعر شعوراً خفياً بقرب حدوثها!".

فقال له: "ولكنه لا يقدر أن يحدد اليوم والساعة!".

فقال سمر دياكوف: "تستطيع أن تسأل الأطباء لتتحقق من أن النوبة التي أصبت بها كانت نوبة حقيقية!".

فسأله: "ومسألة تحديدك القبو بالذات، بماذا تفسرها؟".

فأجاب: "إنني حين ذهبت إلى القبو كان خوفي شديداً، لأني خشيت أن تسافر وتتركني فلا أجد أحداً يحميني!، وكنت أفكر في نوبة الصرع وأخاف أن تنتابني، وقد قلت ذلك للمحققين وذكرت لهم أيضاً حديثي معك عند باب الحديقة، ولكني طبعًا لم أقل لهم كل كلمة من الحديث الذي جرى بيني وبينك!".

فسأله إيفان: "أقلت لهم إنك يمكنك أن تصطنع نوبات الصرع؟".

فلما أجاب بالنفي سأله: "لماذا أردت مني أن أسافر إلى تشر ماشنيا؟".

فقال سمر دياكوف: "لأن موسكو بعيدة!، أما تشر ماشنيا فقريبة من هنا!".

فقال له إيفان: "أنت كاذب!، لقد عرضت علي أن أسافر، ونصحت لي بأن أبعد عن الشر!"، فقال سمر دياكوف: "كان ذلك من فرط إخلاصي لك، فقد توقعت حدوث شر في البيت فأردت أن أنبهك إليه لكي تصر على البقاء حتى تحمي أباك!".

فقال إيفان: "لكنك لم تقل ذلك لي، فماذا منعك أن تصرح به؟!".

فقال سمر دياكوف: "كيف كان يمكنني أن أصارحك بذلك؟، إن الخوف وحده هو الذي حفزني وقتئذ إلى الكلام، ثم أنني خشيت أن أغضبك إذا طلبت منك أن تمكث في البلدة، كنت أدرك أن ديمتري سيقتحم البيت ويستحوذ على ذلك المبلغ لأنه يعده ملكاً له، ولكن من الذي كان يتصور أن الأمر سينتهي إلى القتل؟. لقد كنت أحسب أنه سيقنع بأخذ الثلاثة الآلاف روبل التي كانت في ظرف تحت الحشية التي على سرير السيد، ولكنه قتله، فهل كان يمكنني أن أتوقع ذلك؟"

فقال له إيفان: "إذا كنت لم أتوقع أنه سيقتل أباه، فكيف كان يمكنني أنا أن أتوقعه وأمكث بالبيت ولا أسافر؟، إنك تناقض نفسك!".

فقال له سمر دياكوف: "كان يمكنك أن تستنتج ذلك من توسلي إليك

أن تسافر إلى تشر ماشنيا بدلاً من موسكو، فقد انبعث ذلك عن رغبتي في أن تكون قريباً من البلدة، وعندئذ كان ديمتري يشعر بوجودك على مقربة من البلدة فلا يتمادى في تهوره، وإذا حدث شيء فإنك كنت تأتي وشيكاً فتحميني أيضاً، لأني نبأتك بمرض جريجوري، وبخوفي من أن تدهمني نوبة الصرع".

وكان إيفان يستمع إليه ويقول لنفسه: "إنه يقول كلاماً يدل على سلامة التفكير فكيف زعيم الدكتور (هز نشتوب) أنه قد يصاب في عقله؟"، ثم قال له: "أراك تعمد إلى المكر يا سمر دياكوف!".

فرد هذا قائلاً في بساطة: "لقد حسبت وقتئذ أنك فهمت ما أرمي إليه، وأنك لذلك بادرت إلى السفر لتبعد عن الشر!".

فقال له إيفان: "أتظن أن كل إنسان جبان مثلك؟، لقد كان ينبغي أن أدرك ذلك، أتذكر ما قلته لي ليلة سفري عن مزايا التحدث مع شخص أريب؟!" .

فقال له سمر دياكوف: "إنني حين قلت ذلك كنت أقصد مدحك لا لومك ولكنك لم تفهم قصدي!".

فسأله: "على أي شيء تلومني؟".

فأجاب قائلاً: "على أنك اعتزمت السفر تاركاً أباك للقدر بعد أن تبينت الشر المحيط به، تاركاً إياي أيضاً مع أني ربما أتهم بسرقة الثلاثة آلاف روبل!".

فقال له إيفان وقد اشتد غضبه: "لعنة الله عليك!، إني وقتئذ لم أفكر

في شيء سوى أن الشر يختمر في نفسك!، صحيح أن ديمتري لم يكن بعيداً عليه أن يقتل أباه، ولكن من المحال أن يسرق فليس ذلك من سجيته، وهل أنبأت المحقق بتلك الإشارات التي كنت متفقاً عليها مع أبي وأفشيت سرها لديمتري؟".

فقال له سمر دياكوف: "أخبرته بكل شيء!".

ففكر إيفان هنيهة ثم عاد يسأله: "لماذا ذكرت لي ليلة سفري أن باستطاعتك أن تفتعل نوبة صرع؟".

فقال: "كان ذلك عن سذاجة مني!، على أني لم أفتعل قط نوبة صر طول حياتي، وإنما قلت لك ذلك بباعث التفاخر!.

وهنا قال له إيفان: "إن أخي يتهمك بقتل أبي، وسرقة الثلاثة آلاف روبل!" .

فرد سمر دياكوف قائلاً: "وهل له مخرج سوى أن يتهمني! ولكن من يصدقه؟، إن البراهين كلها آخذ بخناقة؟، وقد شهد جريجوري فاسيليفتش بأنه رأي الباب مفتوحاً؟، أما أنا فلو أنني كنت اعتزمت قتل السيد لما أديت سلفا ببرهان ضجي!، أم تراني من الحمق بحيث أضع في يدك دليلاً ضدي كهذا وأنت ابن السيد الذي اعتزمت قتله!، إنك إن ذكرت ذلك للنائب ولنيقولاي بارفنوفتش فإنك إنما تنفي كل تهمة عني لأن أي مجرم لا يمكن أن يتهم نفسه سلفاً!".

ففكر إيفان هنيهة ثم قال: "صدقت!، إني لا أتهمك، بل بالعكس أشكر لك توضيح الموقف لي فقد ارتاح بالي من هذه الناحية، ولك الآن أن تطمئن

فأني لن أذكر للمحققين شيئاً عن كونك تستطيع افتعال نوبة صرع!".

فقال له سمر دياكوف: "إذا كنت لن تذكر ذلك للمحققين فإني أنا من جانبي لن أذكر لهم شيئاً عن حديثنا عند باب الحديقة!".

وهكذا خرج ايفان من عنده وقد أيقن أنه ليس القاتل، ولم يبق لديه شك في أن أخاه ديمتري هو الذي قتل أباه!، على أن هذه المسألة لم تكن وحدها ما يشغل بال إيفان بعد أن عاد من موسكو، فقد كان هناك أيضاً غرامة بكاترينا إيفانوفنا، وقد زاده البعاد قوة، وتاق لأن يراها فتوجه إليها على أثر مغادرته المستشفى، وما لبث الحديث بينهما أن تطرق إلى مقتل أبيه واتهام ديمتري به، ومن عجب أنه وجدها موقنة بجرم ديمتري، وقد أبرزت له خطاباً منه كتبه على رقعة ورق قذرة وهو سكران في حانة وأرسله إليها في اليوم السابق لمقتل أبيه، ونصع كما يلي:

"إلى كاتيا الرهيبة، غداً أحصل على مال وأعيد إليك الثلاثة الآلاف روبل، وداعاً أيتها المرأة الخانقة ووداعًا أيضًا لحبي، لنضع نهاية لما بيننا، غدًا سأبذل جهدي لأحصل على هذا المبلغ، وإذا لم يتسن لي أن أقترضه فأني أعدك وعداً شريفاً بأن أذهب إلى أبي وأحطم رأسه وأخذ المبلغ من تحت فراشه، ولست أبالي أن أنفى على سيبريا من أجل هذا المبلغ، ولكني سأعيده إليك على أي حال".

ولما قرأ إيفان هذا الخطاب لم يبق بنفسه ذرة شك في أن أخاه هو القاتل، وفي الأيام التالية علم سمر دياكوف قد اشتد به المرض وكان قد نقل إلى بيت ماريا كوندراتيفنا جارته التي أحب ابنتها، ففتحت هذه الباب لايفان وقالت له:

– إن سمر دياكوف عازف عن الكلام، ولهذا يحسن ألا تطول زيارتك حتى لا يجهده الكلام.

وقد وجده جالساً على أريكته، وأمامه منضدة، وعجب من التغير الذي اعتراه فقد بدا متعباً كأنه لم ينم ليالي متوالية، فقال له إيفان: "لن أمكث معك كثيراً، ولكني جئت لأسألك بعض أسئلة!".

فرد سمر دياكوف في صوت واهن: "إلى متى تزعجني بأسئلتك؟، إنك قلق لأن المحاكمة تبدأ غداً، ولكن اطمئن فلن تمسك بسوء!".

فتساءل إيفان في دهشة: "لكن ماذا في المحاكمة يمكن أن أخشاه؟".

فقال سمر دياكوف: "لن أقول شيئاً عنك لأنه لا يوجد دليل ضدك!، إن يديك ترتعشان، ولكن اطمئن وعد إلى البيت آمنًا، فإنك لست أنت الذي قتلته!".

فاشتدت دهشة إيفان وتملكه الحنق حتى أمسكه من كتفيه وقال له: "قل لي كل شيء أيها الثعبان!"، ولكن سمر دياكوف لم يرهبه وقال له همساً: "مادمت تصر على أن تعلم، فاعلم أنك أنت الذي قتلت أباك!".

فجلس إيفان على كرسي وفكر هنيهة ثم قال له: "أتعني أني سافرت ولم أمكث لكي أحميه؟"، فقال له سمر دياكوف: "إنك تفهم ما أعنيه حق الفهم!"، ولكن ايفان رد قائلاً:"كلا! كل ما أفهمه هو أن بعقلك دخلاً؟".

فقال سمر دياكوف: "ما جدوى هذا الخداع الذي نتبادله؟، إنك أنت

الذي قتلت أباك!، ولم أكن أنا إلا أداة في يدك، وما فعلت سوى أن نفذت أمرك!".

فغاص الدم من وجه ايفان وقال له: "إذن أنت قتلته؟"، فنظر إليه سمر دياكوف مندهشاً وقال له: "أتعني أنك حقاً لا تعلم؟، يخيل إليّ أنك الآن شبح من الأشباح!".

فقال له إيفان: "لابد أنك تكذب الآن!، إنك لن تقتله ولكنك تريد أن تسخر مني!"، وكان سمر دياكوف يمعن فيه النظر وهو يحسب أنه يعلم الحقيقة كلها، ثم فكر لحظة وقال له: "انتظر قليلاً"، وسحب قدمه اليسرى من تحت المنضدة، وكان لابساً خفاً وجوارب طويلة بيضاء، وأدخل يده بين قدمه اليسرى وجوربها ثم أخرج من أسفل الجورب حزمة من ورق النقد وقال له: "انظر!"، وكانت ثلاث ربطات من ورق النقد من فئة مائة روبل، ثم قال لإيفان: "هاك الثلاثة الآلاف روبل، لست بحاجة لأن تعدها، هيا خذها!".

فارتاع إيفان، ورأى سمر دياكوف دلائل الرعب في ملامحه فقال له: "أحقاً لم تكن تدري حتى الآن؟!".

فقال إيفان: "كلا!، بل كنت أعتقد أن أخي المسكين هو القاتل!، ويحك!، هل قتلته وحدك أم بمعاونة ديمتري؟".

فقال سمر دياكوف: "قتلته بمعاونتك أنت وحدك!، أما ديمتري فهو بريئ!".

فقال له: "حسناً يا سمر دياكوف!، لنتكلم عني فيما بعد، ولكن لماذا أرتجف هكذا؟، لكأني لا أقدر على الكلام!".

فعقب سمر دياكوف قائلاً: "إنك كنت من قبل جريئاً يا سيد ايفان!، لقد قلت لي فيما سلف: إن كل شيء مشروع، ألا تشرب شيئاً من شراب الليمون؟، سأطلبه لك تواً، ولكن على أن أخفي هذا المبلغ أولاً!"، وسارع إلى وضع كتاب على ورق النقد، ثم أراد أن ينادي ربة البيت لتجئ بشراب الليمون، ولكن إيفان قال له: "لن أشرب شيئاً، تكلم.. أرجو منك أن تتكلم، قل لي كل شيء!".

فتأوه سمر دياكوف وقال له: "أتريد أن تعرف كيف تم الأمر!، لقد تم تبعاً لما قلته لي!".

فقال له: "دع الآن ما قلته لك، واذكر لي تفصيل ما حدث، ولا تنس شيئاً!".

فقال سمر دياكوف: "لقد سافرت أنت يا سيد إيفان فانتابتني نوبة صرع، نوبة مفتعلة طبعاً!، فقد هبطت على قدمي إلى أسفل السلم، ورقدت على ظهري بهدوء وعندئذ صرخت وجعلت أتشنج حتى جاءوا إلي وحملوني!".

فقال له إيفان: "حسناً!، وقد مكثت بعد ذلك تمثل دور المريض، أليس كذلك؟" .

فقال سمر دياكوف: "كلا!، بل إني في اليوم التالي، قبل أن ينقلوني إلى المستشفى، أصابتني نوبة صرع حقيقية!، وكانت أعنف من أية نوبة سابقة حتى لقد مكثت من أثرها يومين بلا وعي!" .

فقال له إيفان: "حسناً!، ثم ماذا بعد ذلك؟"، فواصل سمر دياكوف اعترافه قائلاً:

في الليل كنت أئن في هدوء، ومكث بعد ذلك أنتظر مجيء ديمتري، فقد أيقنت أنه سيأتي إلى البيت متسلقاً السور بعد أن يعلم بمرضى ويعوزه من يراقب الطريق!، ولو أنه لم يأت لما حدث شيء!، لأني ما كنت لأفعل شيء في هذه الحالة!، وكنت أنتظر منه أن يقتل أباه لأني كنت متأكداً من ذلك، فإن كل شيء كان معداً، فهو قد وقف على الإشارات الخفية، وكان الشك والسخط اللذان بنفسه كافينن لدفعه إلى قتل أبيه!.

وهنا تساءل إيفان قائلاً: "لكنه لو انه قتل أباه لأخذ المبلغ، ولما استفدت أنت شيئاً!".

فقال سمر دياكوف: "إنه ما كان ليجد الثلاثة الآلاف بأي حال، لقد قلت له إنها تحت حشية السرير، ولكن هذا لم يكن صحيحاً!، والحقيقة أنها كانت مخبأة في صندوق الأيقونات، ولم يكن هو يعرف ذلك، وعلى هذا لو أنه قتل أباه ثم لم يجد المبلغ فهو عندئذ إما أن يهرب سريعاً من غير أن يحدث صوتاً، وإما أن يقبض عليه عندئذ كنت في صباح الغد أذهب إلى الصندوق وآخذ المبلغ من خلف الأيقونات، وكان ذلك ينسب إلى ديمتري!".

فتساءل إيفان مرة أخرى: "لكنه قد لا يقبله بل يكتفي مثلاً بضربه وطرحه أرضاً كما فعل في المرة السابقة؟".

فقال سمر دياكوف: "في هذه الحالة ما كنت أجرؤ على أخذ المبلغ، وما كان يحدث شيء، ولكني قدرت أن سيضربه حتى يفقده وعيه وعندئذ كنت آخذ المال ثم أقول لفيدور بافلوفتش إن ديمتري قد سرقه!".

وسكت سمر ديا كوف إذ كان قد بلغ منه الإعياء، ولكن إيفان حثه على مواصلة الكلام، فمضى يقول:

ـ ماذا بقي لكي أقوله؟، لقد كنت راقدا هناك وسمعت السيد يصيح، وكان جريجورى قد قام وخرج ثم صرخ بغتة وبعدئذ ساد السكون وعم الظلام، فمكث برهة انتظر وقلبي يدق دقا سريعاً، ثم قمت وخرجت فرأيت النافذة مفتوحة فانتحيت ناحية لأرى هل لا يزال حيا؟، فرأيته يمشى في الغرفة ويتنهد وعندئذ ذهب إلى النافذة وعرفته بنفسي فصاح قائلا (لقد كان هنا.. وهرب)، وهو يعنى بذلك ديمتري، ثم قال :(لقد قتل جريجورى)، وأشار بيده إلى الركن الذي سقط فيه جريجورى بالحديقة فتوجهت إليه حيث وجدته غارقا في دمه دون وعى بالقرب من البئر، وأدركت أن ديمتري فيدور وفتش كان هناك حقا، فعدت إلى النافذة وقلت للسيد من خلالها: (أنها هنا.. لقد جاءت أجرفينا إلكسندروفنا وتريد إن تدخل)، ففرح كما يفرح الأطفال وقال: (أين هي؟)، فقلت له : (أنها واقفة هناك، افتح الباب)، لكنه نظر إلي من خلال النافذة وهو بين مصدق ومكذب، وكأنه يخشى إن يفتح الباب، وسرني إن أراه خائفا منى، ثم خطر لي أن أقرع أمامه على إطار النافذة بتلك الإشارات المتفق عليها دلالة على قدوم جروشنكا، وما إن فعلت ذلك حتى جرى وفتح الباب ووددت لو دخل لكنه وقف في طريقي سائلا (أين هي؟)، وكان جسمه كله يرتجف، وكادت قدماي تخذلاني إذ خفت إلا يدعني ادخل أو يصرخ أو يأتي مارفا أو يحدث أي شيء مفاجئ، ولكنني واجهته بوجه شاحب وقلت له: (إنها هناك!، تحت النافذة، كيف لا تراها؟)، فقال لي: (أحضرها إذن، أحضرها)، فقلت له : (إنها خائفة!، لقد

أفزعتها الضجة التي حدثت، وهى الآن مختبئة بين الشجر، نادها بنفسك)، فأخذ يصيح قائلا، (جروشنكا.. يا جروشنكا هل أنت هنا؟)، ومع صياحه لم يطل من النافذة وكأنه لا يريد إن يبتعد عنى إذ كان في خوف شديد، وبلغ من خوفه انه لم يشأ إن يدير ظهره لي، فذهبت إلى النافذة وأطللت منها وقلت له: (ها هي ذي وراء تلك الشجرة تضحك منك، ألا تراها؟)، فصدق ذلك وزادت رعدته واطل من النافذة، وعندئذ أمسكت بثقاله الورق التي فوق المنضدة، أتذكرها يا سيد إيفا ؟، إنها تزن نحو ثلاثة أرطال، ثم رفعتها وضربته بطرفها على أم رأسه مرة فثانية فثالثة، حتى أيقنت أنها قد حطمت جمجمته !، ثم مسحت ثقالة الورق وأعدتها إلى مكانها وذهبت إلى الصندوق الذي خلف الإيقونات، فأخذت منه الثلاثة ألاف روبل وألقيت الظرف التي كانت بت على الأرض، وبعد ذلك خرجت إلى الحديقة وانأ أرتجف، وقصدت إلى شجرة التفاح وبها فجوة كما تذكر، وكنت قد وضعت بها من قبل خرقة وقطعة ورق لهذا الغرض، وهناك خبأت المبلغ أكثر من أسبوعين، ولم اخذ هالا بعد إن غادرت المستشفى، وبعد إخفاء المبلغ عدت إلى فراشي وجعلت أفكر، فقلت احدث نفسي: (إذا كان جريجورى فاسيليفتش قد قتل فأن مركزي يسوء، أما إذا كان لم يمت فأنه سيشهد بأنه رأى ديمتري فيدور وفتش هنا وبذلك يثبت انه هو الذي قتل أباه وسرق المال)، ثم أخذت أتأوه بصوت مرتفع حتى أيقظت مارفا من نومها فجاءت إلى غير أنها لما لم تجد زوجها جريجورى خرجت تبحث عنه في الحديقة حتى سمعت أنينه وطرق اذنى صراخها فاطمأننت!.

وسكت سمرديا كوف مرة أخرى، فقال له ايفان:

ـ اصغ إلي، هناك أسئلة عديدة أردت إن أوجهها إليك ولكنى نسيتها الآن، لقد اضطربت الأمور في ذهني، لماذا رميت الظرف على الأرض بعد إن أخذت المال منه ؟، أعنى لماذا لم تأخذ الظرف أيضا؟.

فقال سمرديا كوف: "فعلت ذلك لسبب جوهري.. فالذي يفتح الظرف هكذا لا يمكن إن يكون قد رآه مثلى حين وضع فيه ورق النقد وختم عليه، أما ديمتري فيدور وفتش فانه لم يعلم بذلك المظروف وما يحويه إلا سماعًا فإذا وجده بعد قتل أبيه فالمعقول أن يغمد إلى فتحه ليتحقق وجود المال فيه!".

وهنا سأله إيفان قائلا: "ولكن كيف فكرت في كل ذلك في تلك اللحظة؟".

فأجاب قائلا: "كلا سيد إيفان!، إن مثل هذه الأمور تحتاج إلى تفكير طويل وتدبير سابق!.

فصالح ايفان قائلا: "لقد عاونك الشيطان!، إنك لست أبله بل أنت أمكر مما كنت أظن!".

ثم وقف وقد بلغ به الألم مبلغه وقال له: "اسمع أيها المخلوق الناعس الحقير!، إذا كنت لم أقتلك الآن فذلك لأنى لا أريد أن أبقي عليك حتى تدلى باعترافاتك غدا في المحكمة، والله يعلم أنى قد أكون مجرما مثلك، وقد تكون قمت بنفسي رغبة خفية في أن يموت أبى، ولكني أقسم ما كنت مذنبًا كما توهمت ولم اقصد قط أن أحرضك، وأيًّا كان الأمر فإني سأشهد غدًا ضد نفسي في المحكمة، لقد صح عزمي على ذلك، وسأقول كل شيء،

وسنكون نحن الاثنين معا هناك، ومهما تقله ضدي فأنى سأواجهه لأنى لا أخشاك، ولكن لا بد إن تعترف، يجب إن تعترف!".

فقال له سمردياكوف في هدوء:" إني أرى أنك مريض فإن عينيك ظاهرتان الصفرة"، فلم يعبأ إيفان بهذا القول ومضى يقول: سنذهب غدا إلى المحكمة!".

فقال له سمردياكوف: "كلا!، لن يحدث شيء من ذلك!، وأنت أيضا لن تذهب ولن تشهد ضد نفسك!"

فقال له: "إنك لا تفهمني!".

فرد سمردياكوف قائلا: "إنك ستخجل من أن تقول الحقيقة كلها!، ثم إن ذلك لن يجدي نفعا لأنى سأنفي أني ذكرت لك أية كلمة مما تزعمه، وأنك إما أن تكون مريضًا وإما أنك تريد تضحية نفسك لتبرئة أخيك".

فقال له ايفان بحنق شديد: "إنى أقول لك مرة أخرى: "إن السبب الوحيد الذي يحول بيني وبين قتلك الآن هو حاجتي إلى اعترافك غدا في المحكمة!"، فرد سمردياكوف قائلا في عناد: "إذا اقتلني الآن!، على أنك لا تجرؤ على قتلي وأنت الذي أعهدك شجاعًا!".

فلم يرد عليه إيفان، وانصرف على الفور، ثم فكر في أن يتوجه إلى النائب ويخبره بما دار بينه وبين سمردياكوف ولكنه آثر الانتظار إلى غدٍ ليدلي بكل ما عنده أمام المحكمة!.

ولما أوى إلى غرفته جلس على أريكة قد تملكه دوار شديد، وأعد خادمه

شايا له ولكنه لم يشربه إذ غلبه الشعور بالإعياء واليأس وبدأ النوم يغالبه ومشى في الغرفة ليبعد النوم عنه، وخيل إليه انه يهذى ولكنه لم يكن وقتئذ يفكر في مرضه، ثم عاد فجلس وأدار بصره في أرجاء الغرفة كأنه يبحث عن شيء ما، ثم استقر بصره أخيرًا على نقطة واحدة، فوق الأريكة المواجهة له، وبقى يحدق فيها بينما ملامح وجه وانتفاضات بدنه تدل على ما يعانيه من قلق واضطراب وعذاب!.

حديث مع الشيطان

كان ايفان قد استشار طبيبًا خاصًّا استقدمته كاترينا منذ حين من موسكو، فقرر هذا الطبيب انه يعاني من الاضطرابات في المخ ثم قال له: "ربما يحدث لك تهيؤات عصبية ويجب أن تستوثق من أنها كذلك، وأخشى أن تسوء حالتك إذا لم تبادر إلى العلاج".

ولكن إيفان لم يستمع لنصيحة هذا الطبيب ولم يلزمه فراشه بل حسب انه بصحة جيدة ما دام قادر على الذهاب والمجيء!.

وهكذا كان شاعرا بهذيانه وهو جالس في غرفته محدقًا في تلك النقطة على الأريكة المواجهة له!، وقد خيل إليه إن هناك شخصا يجلس على تلك الأريكة وان كان لا يدرى كيف دخل إلى الغرفة، واستمر حينا يتأمله غير مصدق عينيه، ثم تحقق وجوده إمامه، وتبين انه في نحو الخمسين من عمره، طويل القامة ممتلئ الجسم يتخلل الشيب شعره له لحية صغيرة ومدببة، يرتدى بذلة غالية لكنها قديمة، يبدو عليه إجمالا انه روسي افتقر بعد غنى، وانه يحاول التظاهر بالوداعة وان كانت ملامح وجهه لا تدل على ذلك تماما!، ثم شرع الرجل يتكلم فقال لايفان:

- معذرة ! إني أريد أن أذكرك، لقد فاتك أن تسأل سمرديا كوف عن كاترينا إيفانوفنا؟.

فرد إيفان قائلا: "نعم، لا بأس، إلى غد، ولكن لماذا تتدخل أنت في شئوني الخاصة؟، كأني بك تريد أن أعتقد أني ما كنت لأذكر كاترينا لولا أن ذكرتني بها !".

فابتسم الزائر قائلا بلطف وقال له: "تستطيع ألا تصدق ذلك؟، ولماذا تصدق شيئا لا تريده؟، ثم إن البراهين لا تساعد على التصديق والإيمان، خصوصا البراهين المادية، لأن توماس قد آمن، لا لأنه رأى المسيح يوم ولكن لأنه أراد أن يؤمن قبل أن يرى، انظر مثلا إلى الذين يستحضرون الأرواح إني مشغوف بهم، ولكنى أعجب من إنهم يحسبون أنفسهم يخدمون قضية الدين لأن الشياطين تريهم قرونها وفى هذا دليل مادى على وجود عالم أخر!، أليس عجبًا أن يكون وجود الشيطان دليلا على وجود الله ؟، إني أريد أن انضم إلى جمعية من أصحاب المثل العليا لا تزعم المعارضة فيها، وسأقول فيها أني واقعي ولكني لست ماديا!".

ثم اخذ الزائر بعد ذلك في الضحك فوقف إيفان فجأة وقال له: "يبدو أننى أهذي!، بل الحقيقة أني أهذي، فقل ما شئت من هراء فإنك لن تثير غضبى كما أثرته في المرة الماضية. ولكنى اشعر بشيء من الخجل واري دان اذرع هذه الغرفة روحا وجيئة، إني أحيانا لا أراك ولا أسمع صوتك كما سمعته في أخر مرة زرتني فيها، لكني أحسب دائمًا أني أنا الذي أثرثر لا أنت!، ولا ادري أكنت في المرة الماضية أحلم أم أني رأيتك حقا؟!.

سأبلل فوطة وأضعها على رأسي ولعلك عندئذ تختفي في الهواء!".

ومضى إيفان إلى ركن بالغرفة وتناول فوطة مبللة بالماء ووضعها على رأسه، ثم أخذ يمشي في الغرفة فقال له الزائر: "يسرني أن تعاملني هكذا بغير كلفة!".

فضحك إيفان وقال له: "يا أحمق، أتظنني سأحتفي بك وأتبع معك

المراسم؟، إني الآن حسن المزاج وإن كنت أشعر بصداع في قمة رأسي، ولكنني أرجوا ألا تكلمني في الفلسفة كما كلمتني في المرة الماضية، بل قل شيئا مسليًا، إنك من أقاربي الفقراء فماذا لو عمدت إلى القيل والقال؟، إنك لكابوس ولكني لا أخافك بل سأتغلب عليك ولن يزج بي في مستشفى المجاذيب!".

فابتسم الزائر الغريب وقال له: "جميل منك أن تعدني من أقربك الفقراء!، وماذا أكون فوق الأرض إن لم أكن كذلك ؟، ولهذه المناسبة أراك قد شرعت تحسبني شيئا حقيقيا لا خيالا من خيالاتك كما قلت لي في زيارتي السابقة، أليس كذلك؟".

فصاح به إيفا نفى حنق: "إني لم أحسبك شيئا حقيقيا قط، إنك أكذوبة!، إنك شبح !، غير أني لا أدري كيف أسحقك وأخلص منك، ولعلى لابد أن أتألم بك مدة من الزمن، إنك من تهيؤات مرضي، ولست إلا تجسدًا لجانب مني، تجسدًا لأسوء أفكاري وأسخف مشاعري، ومن هذه الناحية أراك سبب تسلية لي لولا أني لا أملك وقتًا أضيعه معك!".

فرد عليه قائلا: "حسنا!، أنت الآن أكثر تأدبًا معي، وأنا أعرف السبب، إنه القرار العظيم الذي اتخذته لنفسك!".

فصاح به ايفان: "لا تحدثني عن ذلك"، لكن محدثه واصل كلامه قائلا:

- إني أدرك موقفك، إنه موقف نبيل، فأنت تريد أن تنجي أخاك بتضحية نفسك! فصاح به إيفان حانقًا: "اسكت وإلا ركلتك بقدمي!"، ولم يسكت محدثه بل مضى يقول: إذا ركلتني كان ذلك دليلا على إيمانك بأني شيء

حقيقي، فإن الناس لا يركلون الأشباح!، وإذا تركنا الخداع جانبًا فإني لا يضرني أن تؤنبني قليلا إذا شئت، وان يكن خير لك كان تتأدب معي!".

فضحك إيفان وقال له:" إني إذن أؤنبك إنما أؤنب نفسي!، فأنت أنا ولكن بوجه أخر !، وأنت إنما تقول ما يدور بخلدي ولا تستطيع أن تقول شيئًا آخر!".

- إذا كنت أحاكيك في طريقة تفكيرك فان هذه شهادة حسنة لي.

- إنك إنما تختار أسوأ أفكاري وأكثرها حماقة!، حقًّا إنك لشديد الحمق وأنا لا أقدر أن أجاريك في ذلك، كلا!، لا أقدر أن أجاريك!، فماذا ينبغي لي إن أفعل؟

- يا صديقي العزيز، إني أريد أن أسلك معك مسلك السادة المهذبين وأن تعاملني على هذا الأساس، صحيح أنى فقير لكني لست أقول أني جد شريف، ولكن من البديهيات التي يؤمن بها المجتمع أنى ملاك سقط، وأنا حقا لا أتصور كيف كنت ملاكًا! وإذا كنته حقا فلا بد أن ذلك كان منذ زمن بعيد حتى لا يضرني أني قد نسيته!، على أني الآن أهنأ بسمعتي كشخص مهذب وأعيش كما أستطيع، محاولًا قدر إمكاني أن أكسب رضا الناس، وأني أحب الناس حبًّا صادقًا وإن افتروا علي الكذب!، وهنا حين أمكث معك بين الفنية والأخرى تتخذ حياتي شكلًا واقعيًّا وهو ما يسرني أكثر من أي شيء آخر، فإني مثلك أقاسي الكثير من التخيلات ولهذا أحب الواقعية التي فوق الأرض، إني أطوف حالمًا وأنا أحب أن أحلم، وفضلا عن ذلك أراني فوق الأرض أؤمن بالخرافات، بالله لا تضحك !، إنى اتخذ لنفسي هنا كل

عاداتكم ومن ثم صرت شغوفا بارتياد الحمامات العامة حيث أستحم بالبخار مع التجار والقساوسة، والحلم الذي كان يراودني هو أن أتجسد بصفة نهائية في شكل زوجة تاجر بادنة الجسم، وإن أؤمن بكل ما تعتقده، إن مثلى الأعلى هو أن أصلي مع المصلين غيري في إيمان خالص بسيط، وعندئذ تنتهي آلامي، وأنا أحب أيضا أن أعالج، ولقد انتشر الجدري في الربيع فذهبت إلى مستشفى للقطاء حيث طعمت وفرحت بذلك فرحا شديدا، وقد تبرعت بعشرة روبلات للقضية السلافية، ولكن مالي أراك لا تصغي إلي؟، أتدري أنك معتل الصحة هذا المساء؟، أني أعرف أنك استشرت ذلك الطبيب أمس فماذا قال عن صحتك؟

- يا أحمق!

- أتعود إلى شتمي؟، إني لم أسألك بدافع الشفقة، ولك ألا تجيب إذا شئت، والآن هذا إنذار قد عاودني الروماتيزم!

- يا أحمق!

ـ إنك لا تفتأ تقول هذه الكلمة، على أنى قد قاسيت كثيرًا من الروماتيزم في السنة الماضية ولا أزال أذكر ذلك!.

– وهل يصاب الشيطان بالروماتيزم؟

– ولم لا ما دمت أتجسد أحيانًا، إني أتجسد وأتحمل النتائج، استمع إلي قد يرى الإنسان أحيانًا في أحلامه، خصوصا خلال كابوس يصيبه من عسر الهضم او غيره، قد يرى رؤيا فنية أو واقعة حقيقية معقدة، أو جملة من الحوادث يأخذ بعضها بخناق بعض، بشكل لم يبتكر مثله تولستوى، غير أن

هذه الأحلام لا يراها الكتاب ولكن يراها أحيانًا أناس عاديون كالموظفين والصحفيين والقساوسة، وهذه معضلة لا يمكن تفسيرها.

وقد اعترف لي أحد الساسة بأن أحسن آرائه قد طرقت خاطره وهو نائم، وهذه حالك الآن فإني وإن أكن من تهيؤاتك فإني مع ذلك كابوس أقول لك أشياء لم تخطر ببالك قط، وعلى ذلك لست أكرر أفكار، ومع هذا ما أنا إلا كابوسك ولا شيء أكثر من ذلك!

- أنت كاذب، وغايتك أن تقنعني بأن لك وجودًا قائمًا بذاته وأنك لست كابوسًا، ولكنك مع هذا تؤكد الآن أنك لست إلا حلمًا من الأحلام. خبرني... أتعتزم المكث طويلا هنا؟. ألا تذهب؟".
- إن أعصابك مضطربة، وأنت تغضب منى لإصابتي بالبرد مع أن ذلك حدث بشكل طبيعي، فقد كنت ذاهبًا إلى مأدبة دبلوماسية في دار سيدة من الطبقة الراقية في بطرسبورج وكانت تقصد أن تكسب لنفسها نفوذًا في الوزارة، وكنت مرتديًا بذلة المساء وربطة عنق بيضاء وقفازين، مع أني كنت حيث يعلم الله، وكان علي أن أطير في الفضاء لأصل إلى أرضكم وطبعًا لم يستغرق ذلك سوى لحظة، ولكنك تعلم أن شعاع الشمس يستغرق ثماني دقائق ليصل إلى الأرض، فتصور أني كنت لابسًا بذلة مسائية وصديرية مفتوحة، إن الأرواح لا تبرد ولكنها إذا تجسدت، وبالاختصار لم أفكر في ذلك وطرت في فضاء الأنير، وفي الماء الذي فوق القبة الزرقاء حيث درجة البرد ١٥٠ درجة تحت الصفر، إنك تعرف اللعبة التي يلعبها البنات القرويات إذ يدعون شخصًا متهورًا لأن

يلعق بلطة درجة برودتها ٣٠ تحت الصفر فلا يلبث لسانه حتى يتجمد فيزيل الأحمق جلد لسانه فيدمي، ولكن هذا في برودة درجتها ٣٠ فقط فما بالك بدرجة ١٥٠؟، وددت لو كانت هناك بلطة.. فقاطعه إيفان قائلا: "وهل يمكن أن توجد بلطة هناك؟ وماذا كنت تفعل بها؟".

- ماذا يقول مآل بلطة في الفضاء؟، لو أنها سقطت لطارت حول الكرة الأرضية من غير أن تدري لذلك سببًا كالنجم الذي يدور حول سيار، وعندئذ كان الفلكيون يسجلون شروقها وغروبها!

- يا لك من أحمق غبي!، تكلم كلامًا معقولًا وإلا لن أصغى عليك، إنك تحاول أن تقنعني بوجودك ولكني لا أريد أن أعتقد ذلك!

- إني لا أقول سوى الحقيقة!، ولكن الحقيقة لا تسر!، إني أرى أنك تتوقع مني شيئًا عظيمًا، ولكن لا اقدر أن أعطيك إلا ما في طاقتي!

- لا تدخل بنا في الفلسفة أيها الحمار!

- كيف أكلم كفى الفلسفة وجنبي الأيمن قد فقد الحس وصرت أئن وأتوجع؟

- دعني وحدي إنك تثقل على عقلي كأنك كابوس ثقيل!، لقد ضقت ذرعًا بك وسأفعل أي شيء للخلاص منك!

- إنك غاضب علي لأني لم أظهر لك في وهج أحمر ومصحوبًا بالرعد والبرق ولي جناحان محروقان، ولكن ظهرت لكفي شكل متواضع، وقد جرح ذلك شعورك المرهف وكبرياؤك، وكأنك تقول لنفسك: (كيف

يظهر مثل هذا الشيطان المبتذل لرجل عظيم مثلي!)، لقد فكرت حين اعتزمت المجيء إليك في أن أظهر إليك في شكل جنرال متقاعد من القوقاز وعلى معطفه وساد الأسد والشمس، ولكني خفت أن تضربني لأني لا أحمل وسام النجم بدلًا من ذلك الوسام، إنك لا تفتأ تتهمني بأني أحمق، وأنا لا ازعم أنى ندل كفى الذكاء، إن مفستوفوليس كان يقول لفاوست أنه يحب الشر ولكنه كان يفعل الخير، فليقل ما يشاء، أما أنا فلعلي الوحيد بين الخلق الذى يحب الصدق ويرغب في الخير حقا!

وهنا نفد صبر إيفان فصاح بمحدثه: "اسكت وإلا قتلتك!".

فابتسم الشيطان ساخرًا وقال له: "كلا!، سأظل أتكلم، فقد جئت إليك لا لأحظى بفرصة الكلام، آه، إنى أحب أحلام أصدقائي من الشباب الذين تزخر نفوسهم بحب الحياة، إنك في الربيع الماضي حين عزمت على الانتقال إلى هذه البلدة، كتبت تقول: (هناك قوم جديدون يريدون هدم كل شيء وقد يبدؤون بأكل لحوم البشر).

إن أولئك القوم الذين ذكرتهم حمقى وأغبياء، وأنا أقرر أنه لا داعي لهدم شيء، وانه ليس علينا ألا نهدم فكرة الله في الإنسان، ومتى تم ذلك صار الناس ينكرون الله، وسيأتي هذا العهد أسوة بالعهود الجيولوجية – فإن التفكير القديم سينهار من تلقاء نفسه من غير حاجة إلى أكل لحوم البشر، وسينهار معه الاعتبارات الخلقية العتيقة ويبدأ كل شيء من جديد، عندئذ يتحد الناس ليأخذوا من الحياة كل ما تقدر أن تعطيهم من سرور وسعادة،

وعندئذ يرتفع الإنسان بقوة كبرياء جبارة ويظهر الإنسان– الإله، ويمد الإنسان في غزوه للطبيعة ساعة بعد ساعة بقوة إرادته وتمكنه من العلم، فيستمد من ذلك فرحًا ساميًا يعوضه عن أحلامه القديمة ومسرات الجنة، وسوف يعلم كل إنسان انه سينتهي به الأجل فيقبل الموت في كبرياء ورزانة كما لو كان إلهاً، وستعلمه كبرياؤه عدم التبرم لأن الحياة مؤقتة، وسيحب أخاه الإنسان غير منتظر جزاء على ذلك، وسيكون الحب بمقدار فترة من الحياة ولكن الشعور بذلك سيزيده قوة وغزارة بدل أن يتبدد الآن في أحلام الحب بعد الموت!".

واستمر الشيطان في حديثه وإيفان جالس ينظر إلى الأرض وقد وضع يديه على أذنيه كيلا يسمع، ولكنه شعر فجأة برعدة تسري في جسده، ثم استطرد الشيطان فقال:

- إن المسألة الآن أيها المفكر الشاب هي هل في الإمكان أن يأتي مثل هذا العصر؟، في نفسه يحول دون مجيء هذا العصر إلا بعد ألف سنة. وكل إنسان يعرف الحقيقة يمكنه من الآن أن يكيف حياته كيف يشاء، على تلك المبادئ الجديدة، وبهذا المعنى يكون كل شيء مشروعاً له، وفضلاً عن ذلك إذا لم يأت ذلك العصر أبداً، فإنه مادام لا يوجد إله ولا خلود على أي حال، فإن الإنسان الجديد قد يصبح الإنسان الإله ولو كان فرداً واحداً في العالم كله، ومتى ارتقى إلى مركزه الجديد فإن من اليسير عليه أن يتخطى جميع حدود المقاييس الخلقية القديمة التي كانت للإنسان الرقيق، إذا تطلب الأمر ذلك، فإنه ليس هناك قانون يقيد الإله، وحيثما يوجد الإله يكن

المكان مقدساً، وحيثما أقف يكن المكان في الطليعة، إن كل شيء مشروع وهذه نهاية كل شيء، وهذا كله جميل، ولكنك إذا أردت الخداع فلماذا تطلب مبرراً خلقياً لخداعك؟، ولكن هكذا الروسي الحديث، فلا يقدر أن يغش من غير مبرر خلقي، إنه شديد التعلق بالصدق".

وجعل الزائر يتكلم وقد غرته فصاحته فصار يرفع من صوته، غير أنه لم يتم كلامه فقد اختطف إيفان بغتة كوباً فوق المائدة وقذفه به، فقال الزائر وهو ينفض عن نفسه نقط الشاي المسكوب:

- هذه حماقة!، لقد تذكر محبرة مارتن لوتر! إنه يحسبني حلماً ومع ذلك يقذف الحلم بأكواب الزجاج!، إنك في هذا أشبه بالنساء، لقد أيقنت أنك كنت تسمعني رغم وضعك يديك على أذنيك!

وفي هذه اللحظة سمع قرع شديد على النافذة فقفز إيفان من فوق مقعده بينما قال له محدثه:

- أسامع أنت؟، إنه أخوك أليوشا جاء يحمل إليك أهم الأنباء وأعجبها!، إني أراهن على ذلك!.

فقال له إيفان: "أنا أعرف أنه أليوشا، فقد شعرت أنه قادم، وهو بالطبع لا يأتي إلا لداع، إنه بالطبع يحمل إليّ أنباء!.

- إذن افتح له، افتح! هناك عاصفة ثلجية وهو أخوك، أيدري سيدي كم الساعة الآن؟، لا يليق بنا في مثل هذه الساعة أن ندع كلبًا واقفًا بالباب!.

واستمر القرع على النافذة، وأراد إيفان أن يهرع إليها ولكنه شعر كأنه يديه وقدميه مقيدة!، ثم ذهب إلى النافذة وفتحها فرأى أليوشا وسأله: "ماذا تريد؟"، فقال أليوشا: "إن سمردياكوف شنق نفسه منذ ساعة، وترك ورقة كتب عليها: (إني قضي على حياتي بيدي وبمحض رغبتي ولا تقع تبعة ذلك على أحد)، فذهبت من فوري إلى قسم البوليس وأبلغته النبأ، ثم جئت إلى هنا لأخبرك..".

فقال له إيفان: "أنصفت إذ أتيت إلى!، لقد كنت أعرف إنه شنق نفسه!".

فسأله: "ممن علمت؟"، فأجاب: "لا أدري!، ولكني كنت أعلم!، علمت منه هو، ذلك الملعون الذي هرب عند قدومك، ومن عجب أن يخاف حمامة مثلك! "، ففزع أليوشا وقال له: "بالله أجلس هنا على الأريكة!، إنك تهذي!، ضع رأسك على الوسادة هكذا!، أأضع لك فوطة مبلله على رأسك؟".

ثم قام وأحضر فوطة نظيفة مطوية من الخزانة، فقام إيفان مندهشاً وقال:

- منذ ساعة واحدة أخذت هذه الفوطة نفسها من الخزانة وبللتها ووضعتها حو رأسي ثم رميتها هنا، فكيف جفت وطويت؟، لم يكن هناك فوطة غيرها!

فصاح إيفان بغتة: "كلا!، إنه لم يكن حلماً رأيته بل كان هنا، كان جالساً على الأريكة ثم هرب حين قرعت أنت النافذة! إنه ليس إبليس، إنه شيطان بسيط تافه"، فقام أليوشا وبلل الفوطة ووضعها حول رأس أخيه، ثم قال هذا وقد أصبح ثرثاراً:

"إني خائف على كاترينا إيفانوفنا غداً!، إنها ستنبذني غداً وتسحقني بقدميها!، أحسبها تعتقد أني أورد متيا مورد الهلاك لكي أستأثر بها، قد تحسب ذلك ولكن لن يكون الأمر كما تتوهم، غداً يرفع لي صليب الاستشهاد لا المشنقة"

فقال له أليوشا بعطف: "كفى يا أخ، استرح ولا تتكلم".

ثم أرقده أليوشا على سريره وساعده في خلع ملابسه وألبسه ثياب النوم ومكث بجوار السرير حتى نام، وكان أليوشا يفكر فيما سمعه منه وسط هذيانه فأدرك أنه قد عزم على إنقاذ ديمتري بتضحية نفسه، وأدرك ما به من مرض فقال: "إنه ضميره النقي وعزمه على هذه التضحية النبيلة"، ثم فكر وقال لنفسه: "ولكن الآن وقد مات سمرديا كوف لن يصدق أحد شهادة إيفان! "

أمام القضاء

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي بدأت محاكمة ديمتري كارامازوف في محكمة الإقليم، وكانت القضية موضع اهتمام الناس جميعًا ومدار حديثهم، وقد وفد على بلدتنا كثيرون من عاصمة الإقليم وغيرها، حتى ومن موسكو وبطرسبورج، وكان بينهم محامون وسيدات وشخصيات بارزة، وقد انهال الجميع على تذاكر دخول المحكمة، وأعد مكان خاص خلف منصة القضاة الثلاثة للصفوة المختارة، وكانت نسبة كبيرة من الجمهور لا تقل عن النصف من السيدات، وقد وفد عدد كبير من المحامين من أرجاء البلاد.

وقد ازدحمت المحكمة وفاضت بالجمهور قبل حضور القضاة بوقت طويل، ومحكمة بلدتنا تحوي أحسن قاعة في المدينة إذ كانت فسيحة عالية ملائمة للصوت، وكان إلى يمين منصة القضاء منضدة وصفان من الكراسي أعدت للمحلفين، وإلى اليسار مكان المتهم ومحاميه، وفي وسط المحكمة، بالقرب من القضاة، منضدة عليها الأدلة المادية، وقد وضع فوقها الثوب الحريري الأبيض الذي كان يرتديه فيدور بافلوفتش وقد تلوث بالدم، وإلى جانبها يد الهاون النحاسية التي قيل إنها أداة الجريمة، وكذلك قميص متيا وعلى كمه دم، ومعطفه، وقد ظهرت فوق جيبه بقع من الدم حيث كان يضع منديله، ثم هذا المنديل وقد جمد من الدم وصار أصفر اللون، ثم مسدس متيا الذي كان قد عبأه بالرصاص أمام برهوتين تمهيداً للانتحار ثم

استله منه تريفور بوريسوفتش صاحب الفندق في موكرو، دون أن يدري، ثم الرف الذي كانت به ثلاثة آلاف روبل معدة لجروشنكا إذا جاءت، والشريط الأحمر الضيق الذي ربط به، وأشياء أخرى لا أذكرها!

وعلى مسافة قريبة كانت مقاعد الجمهور في القاعة، ووضع أمام الحاجز بضعة كراسي ليجلس عليها الشهود، وجاء القضاة في الساعة العاشرة، ودخل النائب في أثرهم، وكان الرئيس رجلا بادناً قصير القامة في نحو الخمسين من عمره وقد وخط الشيب رأسه، ولفت النائب وغيره نظري لشحوب وجوههم، وخيل إلي أن النائب قد نحل جسمه عما رأيته قبل يومين!، وبدأ الرئيس بأن سأل: "هل جميع المحلفين حاضرون؟".

وإني لأذكر أولئك المحلفين الاثني عشر، وكان منهم أربعة من صغار الموظفين بالبلدة، واثنان من التجار، وستة من الفلاحين والصناع، وأخيراً فتح الرئيس دعوى مقتل فيدور بافلوفتش، ولست أذكر كيف وصفه ولكن الحاجب أمر بأن يجيء بالمتهم وظهر متيا في المحكمة فاشرأبت إليه الأعناق وساد الصمت، وكان أنيق الملابس وقد علمت فيما بعد أنه كان قد طلب إلى حائكه في موسكو– وكان يعرف مقاسه– أن يحيك له بذلة له بذلة أنيقة لهذه المناسبة!، وكان يلبس أيضا قفازاً نفيسا من الجلد الأسود، وقد دخل قاعة المحكمة بخطى طويلة ناظراً أمامه في جمود وفي الوقت نفسه دخل محاميه الشهير فتيو كوفتش فسمعت غمغمة في القاعة.

وكان بعض الشهود غائبين، ومنهم مثلا مدام هولا كوف ومكسيموف اللذان اعتذرا لمرضهما، وسمرديا كوف الذي مات فجأة وقدم بذلك تقرير

من البوليس، وقد أجدث نبأ انتحار سمرديا كوف همسا في المحكمة إذ كان كثير من الحاضرين لم يعلموا به قبل ذلك على أن الذي لفت أنظار الحاضرين هو صياح متيا بغتة عند تلاوة ذلك النبأ: "لقد كان كلبًا ومات ميتة كلب!"، فهرع إليه محاميه وأنذره الرئيس اتخاذ تدابير صارمة إذا خالف النظام مرة أخرى، ثم تليت عريضة الاتهام وكانت أقرب إلى الإيجاز، وسأل الرئيس متيا: "يا سجين... هل تقر بأنك مذنب؟".

فقام متيا من مقعده وقال: "أقر بأني مذنب من حيث السكر والعربدة والكسل، لقد كنت أود لو أكون رجلا شريفًا بقية العمر وإذا بالقدر يوجه إلى هذه الضربة، ولكني بريء من قتل ذلك الشيخ الذي هو عدوي وأبي، لا لا، إني بريء من سرقته! وما كان يمكنني أن أسرق، إن ديمتري كارامازوف وغد ولكنه ليس لصا!"، وكانت النساء مطمئنات إلى أن الحكم سيصدر بالبراءة رغم كل شيء!، وكن يقلن: "نعم إنه مذنب ولكنه سيبرأ بدافع الإنسانية وطبقاً للآراء الحديثة السائدة الآن".

وهذا الذي دفعهن إلى التراحم في المحكمة إلى ذلك الحد، أما الرجال فقد همهم النزال بين النائب وبين المحامي الشهير فتيو كوفتش، وكانوا يتساءلون ماذا يقدر هذا المحامي أن يفعله حيال الوقائع الدامغة؟، ولكن فتيوكوفتش بقي لغزاً حتى بدأ مرافعته، وكان بعض ذوي الخبرة في القضاء يتوقعون أن له خطة يخفيها، وأنه يرمي إلى هدف معين من المحال التكهن به، وكانت ثقته بنفسه لا حد لها، ولم يكد يقضي في البلدة ثلاثة أيام حتى كان قد درس القضية بجميع تفاصيلها، وقد أعجب به الناس وهو يهزم جميع شهود الإثبات ويربكهم ويطعن سمعتهم حتى لا تبقى لشهادتهم قيم، ومما يستحق الذكر أن جريجوري دخل قاعة المحكمة

رزيناً هادئاً من غير أن يرهب جلال القضاء أو كثرة الجمهور، وقد أدلى بشهادته مطمئناً وكأنه يحدث زوجته مارفا ولكن بمزيد من الاحترام، ولم يناقض نفسه قط في شهادته، وقد سأله النائب عن تفاصيل الحياة في أسرة كارامازوف فرسمها للمحكمة بلونها القاتم من غير تزويق أو تنميق، ومع احترامه لذكرى سيده الذي مات، شهد بأنه كان ظالماً لولده متيا (ديمتري) وبأنه لم يرب أبناءه كما ينبغي، وقال عن متيا: "لقد غبنه أبوه في ميراثه من أمه ذلك ولم يكن ذلك عدلا"، وسأل النائب جميع الشهود، وفيهم إيفان وألكسي: هل القتيل استحل لنفسه جانبًا من ميراث ديمتري من أمه؟، فأجابوا جميعا بالإيجاب من غير أن يدلوا ببرهان قاطع، وقد ذكر جريجوري كيف هجم ديمتري على أبيه وضربه وطرحه أرضا منذرًا بأن يعود إليه ليقتله وكان لهذه القصة أثر سيئ في المحكمة، كما ذكر أنه ليس غاضبا على متيا لأنه لطمه على وجهه وأوقعه على الأرض إذ ذاك، بل هو قد غفر له ذلك من زمن بعيد، وقال عن سمردياكوف: "إنه كان شابا ذا مقدرة ولكنه كان مغروراً غبيا، وإن فيدور بافلوفتش هو الذي غرس في قلبه بذور الإلحاد"، ولكنه شهد لسمردياكوف بالأمانة الناصعة، وذكر كيف أنه عثر يوما على نقود للسيد في فناء للسيد في فناء الدار فلم يخفها ولكن أعادها إليه فمنحه قطعة نقد ذهبية جزاء له، ووثق بأمانته منذ ذلك، وأصر كل الإصرار على أن الباب المؤدي إلى الحديقة كان مفتوحًا، وسئل عدة أسئلة لا يمكنني تذكرها.

وأخيرًا شرع محامي المتهم يوجه أسئلته إليه، وكان أول سؤال له عن الظرف الذي كان مفروضاً أن فيدور بافلوقتش وضع به ثلاثة آلاف روبل لشخص معين فسأله:

– ألم تر هذا الظرف وأنت الذي مكثت عدة سنوات على أوثق صلة بسيدك؟

فأجاب جريجوري بأنه لم ير الظرف ولم يسمع بما حواه من مال وإذا بكل إنسان يتحدث عنه، وكان فتيوكوفتش قد وجه سؤاله هذا إلى كل شاهد، وكان جواب الجميع أنهم لم يروا ذلك الظرف، وإن سمعوا به، وقد لحظ الجميع اهتمام المحامي بهذه النقطة، ثم قال قتيو كوفتش فجأة:

– اسمحوا لي أن أسأل الشاهد سؤالًا، ما هو ذلك البلسم الذي ظهر من التحقيق الابتدائي أنك استخدمته لشفاء ما بك من آلام؟.

فنظر جريجوري إليه برهة ثم قال: "كان به زعفران".

– لا شيء غير الزعفران؟ ألا تذكر أنه مركب من عناصر أخرى؟.

– أجل، كان به أيضاً حزنبل!

– وربما كان به فلفل أيضاً؟

– أجل.

– وربما عناصر أخرى كذلك، وهل كانت كل هذه العناصر مذابة في فودكا؟

– كلا بل في الكحول!

وهنا ضحك الجمهور فقال المحامي: "أرأيت؟ كانت مذابة في الكحول، وبعد أندهن بها ظهرك شربت بقية ما في الزجاجة وأنت تدعو دعاء خاصاً لا يعرفه غير زوجتك؟".

- أجل.
- وهل شربت كثيراً، مثلا مقدار كأس أم كأسين؟
- مقدار قدح ونصف قدح.

وهنا صاح به المحامي قائلا: "إن قدحاً ونصف قدح من الكحول هو مقدار يجعلك ترى باب الجنة نفسه مفتوحاً لا باب البيت فقط!".

فضجت القاعة بالضحك وتحرك الرئيس في مقعده، ثم قال المحامي للشاهد:

- أواثق أنت أنك كنت صحوك حين رأيت الباب مفتوحا؟
- كنت على قدميّ!
- هذا ليس دليلًا على أنك كنت في صحوك!

وضحك الجمهور مرة أخرى!، واستطرد المحامي يسأله:

- هل لو سألك أحد في تلك اللحظة سؤالًا أكنت تجيبه؟، مثلا لو سألك عن السنة التي نحن فيها؟
- لا أدري.
- أتعرف السنة الجارية؟

فبدت عليه الحيرة واتضح أنه لا يعرف السنة فعلا...

وانتهت أسئلته لجريجوري وكانت كافية للتشكيك في قيمة شهادته مادام الدواء الذي تجرعه كان يكفي لأن يريه باب الجنة مفتوحاً، ومادام لا

يعرف السنة الجارية!، والتفت الرئيس إلى المتهم يسأله: "هل لك أي تعقيب على ما قاله ذلك الشاهد؟".

فصاح متيا بصوت مرتفع: "إن كل ما قاله صحيح فيما عدا أن الباب كان مفتوحاً، وأنا أشكر له عنايته بي صغيراً وصفحه عني إذ ضربته!، لقد كان هذا الشيخ شريفا دائما، وكان إخلاصه لأبي يقوّم بإخلاص سبعمائة كلب!"، وكذلك كان المحامي بارعاً في مناقشة راكتين حين أدلى بشهادته، وكان راكتين من شهود الإثبات الرئيسيين الذين علق النائب أهمية بالغة على شهادتهم، وقد بدأ أنه يعرف كل شيء وأنه كان في كل مكان وتحدث مع كل أحد، وكان يعرف دقائق عن حياة فيدور بافلوفتش وجميع آل كارامازوف، أما المظروف فإنه لم يسمع به إلا من متيا نفسه، وذكر حركات متيا وسكناته ومشاجراته بالحانة، ولكنه لم يعرف شيئا عن حقيقة ميراثه من أمه، وقال مثل غيره من الشهود كلاماً عاماً عن ذلك، وقد نسب الجريمة إلى العادات التي استقرت في النفوس من أثر عبودية طال عليها الزمن وسوء حال البلاد، وسمحت له المحكمة بشيء من الإفاضة في الكلام، وكانت هذه أول فرصة أتيحت له ليظهر مقدرته فانتهزها ولفت الأنظار إلى نفسه، وكان النائب يعلم أن هذا الشاهد يعد مقالا لإحدى الصحف عن هذه القضية، وسنرى فيما بعد كيف اقتبس فقرات من هذا المقال فدل ذلك على أنه اطلع عليه من قبل، وكانت الصورة التي رسمها راكتين لديمتري صورة معتمة سوأت مركزه كمتهم، وقد حاز إعجاب الجمهور باستقلاق آرائه وسموها حتى لقد صفق له مرتين أو ثلاثاً حين تكلم عن العبودية وسوء الأحوال في روسيا.

غير أنه ارتكب خطأً بسيطاً إذ تحدث بإزدراء عن جروشنكا ووصفها

بأنها "خليلة سمسوتوف" واستغل الدفاع هذا الخطأ فسأله المحامي: "لقد قررت منذ لحظة أنك على صلة وثيقة بمدام سفيتلوف، واتضح أن هذا اسم أسرة جروشنكا وقد سمعته أول مرة في الجلسة".

فأحمر وجهه وقال: "إني لا أحمل تبعة معارفي، وأنا شاب، وهل يعد الإنسان مسئولا عن كل من يصادقه؟".

فقال المحامي: "صدقت!، ولكن نمى إلى أن مدام سفيتلوف كانت منذ شهرين تقريبًا تواقة لأن تعرف الشاب ألكسي كارامازوف، وأنها وعدت بأن تعطيك خمسة وعشرين روبلًا إذا جئت به إليها وهو بثياب الكهنوت، وأنك قمت بهذه المهمة ليلة وقوع الجريمة التي تنظر المحكمة قضيتها اليوم، فهل أحضرت ألكسي كارامازوف إلى مدام سفيتلوف وقبضت منها خمسة وعشرين روبلا أجراً لك على ذلك؟، هذا ما أريد أن أعرفه".

فقال راكتين: "لقد كان ذلك على سبيل المزاح!، ولا أرى له أهمية الآن!، وكان في نيتي أن أعيد إليها هذا المبلغ! ".

- معنى ذلك إنك أخذت منها المبلغ ولكنك لم تعده إليها؟.

- هذا لا يهم، إني أرفض الإجابة عن مثل هذه الأسئلة!.

وهنا تدخل الرئيس، ولكن المحامي قال: "لا حاجة بي لأن أوجه أسئلة أخرى إلى الشاهد!"، وهكذا ترك راكتين منصة الشهود وقد نقص قدره عند الجمهور، ونظر إليه فتيو كوفتش نظرة ساخرة وكأنه يقول: "هذا نموذج لذوي الآراء العالية الذين يتهمون موكلي! ".

ولما سأل رئيس المحكمة المتهم عما قد يعقب به على ما قاله الشاهد وقف متيا وصاح: "إنه حتى بعد القبض على جعل يزورني ويقترض مني نقوداً، إنه وصولي نهاز للفرص! ".

ومضى فتيو كوفتش يبهر الناس بإطلاعه على كل دقائق الموضوع، ومن ذلك مثلا ما حدث حين أدلى تريفور بوريسوفتش بشهادته، وكانت شديدة الأضرار بالمتهم، فقد أخذ يحسب على أصابعه المبالغ التي أنفقها متيا في زيارته الأولى لموكرو ويقول إنها لا تقل عن ثلاثة آلاف روبل، وذكر سخاءه على الفتيات الغجريات وعلى الفلاحين إذ كان يعطي كلًّا منهم خمسة وعشرين روبلا مرة واحدة مع أن أحدهم كان يعد نفسه سعيداً لو أتيح له أن يلتقط نصف روبل من عرض الطريق، ثم قال: "ما أكثر الأموال التي سرقت منه!، وإذا سرق أحد مالًا فإنه لا يوقع إيصالًا عن المال المسروق، وكيف كان يمكن القبض على السارق على حين يبعثر صاحب المال ماله؟، إن فلاحينا لصوص كما تعلمون، ثم معاملته للفتيات الفلاحات!لقد امتلأن غروراً بذلك مع أنهن فقيرات"، وقد تذكر كل أبواب الإنفاق وجمع جملتها كلها، وهكذا ظهر أن ما قاله المتهم من أنه ادخر نصف المبلغ ووضعه جانباً هو أمر غير معقول، وقال الشاهد: "لقد رأيت بعيني ثلاثة آلاف روبل في يده وكأنها روبل واحدة في نظره، وأحسبني أعرف كيف أقدر قيمة مبلغ حين أراه!"، ولما انتهت شهادته ذكره المحامي بأنه قبل شهر تقريباً، وفي إبان زيارة متيا الأولى لموكرو سقطت منه وهو سكران ورقة نقد بمائة روبل، فعثر عليها الحوذي تيموفي وفلاح يدعى أكيم وسلماها إليه هو لكي يسلمها إلى ديمتري كارامازوف، ثم سأله: "هل سلمتها إليه؟"، وقد أنكر الشاهد هذه الواقعة

أولًا، فجيء بتيموفي وأكيم وشهدا بوقوعها، وعندئذ اضطر تريفون بوريسوفتش أن يعترف بها، ولكنه أكد أنه أعاد ذلك المبلغ إلى ديمتري كارامازوف ولكنه كان مخموراً فلعله لم يتذكر أنه تسلمها منه، وكان ذلك وحده كافياً للارتياب في شهادة هذا الشاهد الخطر!

وكذلك استطاع المحامي تجريح الشاهدين البولنديين واستشهد بكالجانوف وبصاحب الفندق على أنهما كانا يغشان في لعب الورق!

ثم لم يترك شاهداً من شهود الإثبات الآخرين إلا وجه إليه أسئلة وكشف عن وقائع جرحته وجعلت شهادته أهلا للارتياب!

كذلك كانت شهادة الأطباء قليلة النفع للمتهم، واتضح فيما بعد أن المحامي فتيو كوفتش لم يكن يعلق كبير أهمية عليها، وإنما عمد إلى طلب أقوالهم بناء على إلحاح كاترينا إيفانوفنا، وكانت قد بعثت في طلب ذلك الطبيب الشهير من موسكو، وأدرك المحامي أن المتهم لن يخسر شيئا إذا أدلوا بأقوالهم وقد يكسب بعض الشيء.

وقد صرح الدكتور هرزنشتول في المحكمة بأن المتهم مضطرب العقل وأن هذا أمر واضح، ولا تدل عليه فعاله في الماضي فحسب بل تصرفاته المالية كذلك، ولما سئل عما يعنيه بذلك أجاب بأن مظهره يلفت النظر، فقد دخل قاعة المحكمة بخطى عسكرية وهو لا ينظر إلا أمامه، مع أن من الطبيعي أن ينظر إلى اليسار حيث تجلس السيدات، وهو شديد التعلق بالجنس اللطيف، فكان لابد أن يهتم برأيهن فيه، ولما جاء دور الطبيب الأخصائي الوافد من موسكو ذكر أنه يحسب أن حالة المتهم العقلية شاذة للدرجة القصوى، وقال

كلاما فنيًّا كثيرًا عن الأمراض العقلية، واستنتج من الوقائع أن بعقل المتهم دخلا منذ أيام عديدة قبل القبض عليه، وأن تصرفاته كانت غير اختيارية وإن كان في وعيه وشعوره، ثم شخص مرضه العقلي بأنه (مانيا) أي هوسه قد تؤدي إلى جنون مطبق.

ثم قال ساخراً: "أما عما قاله الدكتور هرزنشتوب من أن المتهم كان ينتظر منه أن ينظر إلى ناحية السيدات حين دخل قاعة المحكمة، بدل أن ينظر أمامه، فإني أرى أن هذا الرأي لا يقوم على أساس سليم، صحيح أنه من غير الطبيعي أن ينظر أمامه حين دخل وأن ذلك يدل على شذوذ في حالته العقلية، ولكن كان الطبيعي أن ينظر إل اليمين لا إي اليسار فقد جلس إلى اليمين محاميه الذي عقد عليه آماله والذي يتوقف عليه مستقبل حياته"، ثم جاء تصريح الدكتور فارفنسكي فكان ختام هذه المهزلة، فقد قال أنه يرى أن المتهم سليم العقل، ثم أشار إلى ما ذكره زميلاه عن نظر المتهم إلى الأمام حين دخل قاعة المحكمة وكان منتظر أن ينظر إلى اليسار أو إلى اليمين، وعلق على ذلك بقوله: "إن هذا أمر طبيعي يدل على أن المتهم بكامل عقله، لأنه نظر إلى حيث جلس القضاة الذين يتوقف مستقبل حياته على الحكم الذي يصدرونه!"، وعندئذ صاح متيا من مقعده: "مرحى يا دكتور، هذا هو الواقع!".

على أن الدكتور هرز نشتوب حين استدعى بعد ذلك بوصفه شاهداً أدلى بأقوال في صال المتهم، فقد أقام بالبلدة منذ سنوات طويلة وعرف أسرة كارامازوف منذ زمن بعيد، وقد بدأ شهادته بذكر وقائع تفيد الاتهام كثيراً تذكر بغتة وقال: "غير أن هذا الشاب البائس كان يمكن أن تتخذ حياته

مجرى آخر لو أنه لقي قلباً رحيما في طفولته وبعد طفولته، ومع هذا كان غلاماً ذكياً مرهف الحس، وإني لأذكره حين كان غلاماً صغيراً وقد أهمله أبوه في فناء الدار الخلفي فكان يروح ويأتي في ثياب مهلهلة حافي القدمين!"، وهنا كان لصوته رنة عطف وحنان استرعت التفاف المحامي فتيو كوفتش، ثم استطرد الشاهد قائلا: "نعم، كنت شاباً وقتئذ، كنت في الخامسة والأربعين من عمري حديث العهد بهذه البلدة، وقد شعرت بالأسف على هذا الغلام فقلت لنفسي لماذا لا أشتري له رطلًا من البندق، ولم يكن أحد قد اشتر له بندقاً من قبل، وذهبت إليه ورفعت إصبعي وأخذت أردد أمامه باللغة الألمانية كلمات: الأب، ثم الابن ثم الروح القدس، وهو يرددها بعدي، ثم أعطيته البندق، ففرح به كثيراً، وبعد يومين اتفق أن مررت أمام الدار فوجدته وإذا به يعي العبارتين الأوليين وقد نسى كلمة الروح القدس فذكرته بها، وبعد ذلك أبعد عن البلدة ولم أعد أراه، ولكن بعد مضي ثلاث وعشرين سنة كنت جالساً صباح يوم في عيادتي وقد أصبحت شيخاً أشيب الشعر وإذا بشاب مشرق الوجه يدخل فلم أعرفه ولكنه رفع أصبعه وقال باللغة الألمانية: "الأب والابن والروح القدس، لقد عدت تواً إلى البلدة فجئت أشكر لك رطل البندق لأني لم يعطني أحد بندقاً في صغري سواك، وعندئذ تذكرت الغلام الصغير الحافي القدمين وبلغ مني التأثر مبلغه وقلت له: "أنت شاب يقدر الجميل لأنك مكثت طول هذه السنين تذكر رطل البندق"، وقبلته وباركته وبكيت بالرغم مني وضحك وهو يذرف الدمع، ذلك لأن الروسي كثيراً ما يضحك حين ينبغي له أن يبكي، ولكنه بكى، وقد رأيته بعيني، والآن واأسفاه!".

وهنا صاح متيا بغتة: "أنا أبكي الآن أيها القديس الألماني!".

وأيا كان الأمر فقد أحدثت هذه القصة أثراً طيباً في الجمهور، على أن أكبر الأثر كان لشهادة كاترينا إيفانوفنا وسأذكرها فيما بعد، والواقع أنه بعد صرف الشهود الذين طلبهم الدفاع بدا أن الحظ مال إلى جانب متيا مما أدهش محاميه نفسه، ولكن قبل أن تستدعي كاترينا ايفانونفنا، أدلى أليوشا بشهادته فذكر واقعة كانت دليلاً قويًّا ضد نقطة رئيسية من نقط الاتهام والدفاع كليهما كانا يوجهان أسئلتهما إليه برفق وعطف، وبدا أن سمعته الطيبة قد سبقته إلى المحكمة، وقد أدلى بشهادته في تواضع وحذر وقال رداً على سؤاله: "إن متيا أخي عنيف الطبع، يجري وراء عواطفه ولكنه ذو شرف وإباء وكرم، وقد يضحى نفسه لغيره حين يتطلب الأمر ذلك منه، وقد كان في الوقت الأخير في موقف لا يحتمل من جراء حبه لجروشنكا ومنافسة أبيه له في ذلك الحب، ولهذا استنكر في ازدراء فكرة قتله أباه ليسرق ثلاثة آلاف روبل وإن كان هذا المبلغ هو شغله الشاغل إذ كان ينظر إيه على أنه جزء من ميراثه عن أمه فصار تثور ثائرته كلما تحدث عنه!".

ولما سأله النائب عن التنافس بين جروشنكا وكاترينا ايفانوفنا، أجاب إجابة مبهمة ثم رفض الإجابة عن سؤال أو سؤالين.

ثم سأل النائب: "هل أخبرك أخوك بأنه اعتزم قتل أبيه؟ يمكنك أن ترفض الإجابة إذا شئت".

فأجاب أليوشا: " إنه لم يقل ذلك بطريق مباشرة، وإنما كان يتحدث عن بغضه لأبينا وخوفه من أنه ربما يقتله في حالة غضب!".

- وهل صدقته؟.

- أحسبني قد صدقته ولكني لم أشك قط في أن شعوراً أسمى في قراره نفسه سوف ينجيه من ذلك في اللحظة الأخيرة، وهذا ما حدث فعلا لأنه لم يقتل أبانا!.

فارتاع النائب من هذا القول ورد عليه قائلا: "أعتقد أنك تقول ذلك مؤمنا به وغير مدفوع بحبك لأخيك التاعس، على أن رأيك في الأمر كله معروف لنا من التحقيق الابتدائي ولا أخفي عليك أنه رأي يخالف أقوال جميع الشهود التي استمعت إليها النيابة، ولذا أرى لزاماً على أن أطلب إليك شرح الدواعي التي جعلتك تؤمن ببراءة أخيك وإدانة شخص آخر شهدت ضده في التحقيق الابتدائي!"

فقال أليوشا بهدوء: "إنما أجبت عن سؤال وجه إلي في التحقيق الابتدائي، ولم أتهم سمرديا كوف من تلقاء نفسي، وإنما دفعني إلى اتهامه ما سمعته من أخي، إني أؤمن إيماناً تاما ببراءة أخي، وإذا لم يكن هو القاتل فإذن يكون.... ".

فأتم النائب عبارته قائلا: "سمرديا كوف؟، ولماذا سمرديا كوف بالذات؟، ما الذي يجعلك تؤمن هذا الإيمان العميق ببراءة أخيك؟".

- إني لا يسعني إلا أن أصدقه، إني أعرف أنه لا يكذبني القول أبدًا، وقد دلني ملامح وجهه على أنه قال الحق!.

- من ملامح وجهه فقط؟، أهذا كل الدليل الذي عندك؟.

- ليس عندي دليل آخر!.

- وهل لديك أي دليل على إدانة سمردياكوف سوى أقوال أخيك وتعبيرات وجهه؟.

- كلا، ليس لدي أي دليل آخر!.

وانتهت أسئلة النيابة عند هذا الحد، وقد خيبت شهادة أليوشا الأمل المعقود عليها بين الجمهور فقد دار همس قبل المحاكمة بأن سمردياكوف هو القاتل، وبأن أليوشا قد أعد أدلة قوية ضده وإذا به لا يمسك دليلا سوى حبه لأخيه!.

غير أن المحامي فتيو كوفتش بدأ استجوابه فسأله عن الظرف الذي أخبره فيه أخوه ببغضه لوالده، فأجاب بأن ذلك كان في آخر لقاء لهما قبل الكارثة، عندئذ ذكر أليوشا أمراً قد نسيه طوال الوقت وقال:

- إني أذكر الآن مسألة بسيطة كنت قد نسيتها إذ لم تكن واضحة لي كما هي الآن، في ذلك المساء حين كنت أتحدث مع متيا تحت الشجرة قبل ذهابي إلى الدير، ضرب ميتا مراراً على الجزء الأعلى من صدره مؤكداً أن لديه الوسيلة لاستعادة شرفه وأنها في ذلك الموضع، وقد حسبت وقتئذ أنه يعني أن تلك الوسيلة في قلبه وأنه سيجد في قلبه قوة لإنقاذ نفسه من عار يرتقبه ولا يجرؤ على ذكره لي، كما ظننا وقتئذ أنه يتكلم عن أبيه وأنه يخشى أن يخطر له اتخاذ العنف معه، ولكن الواقع أنه أشار إلى نقطة معينة فوق صدره وأذكر أنه خطر لي وقتئذ أن موضع القلب ليس في ذلك الجانب من

الصدر، وبدت لي سخافة فكرتي هذه، أما الآن فإني موقن بأنه كان يقصد ذلك الكيس الصغير المعلق بعنقه والذي يحوي الألف والخمسمائة روبل!

وعندئذ صاح متيا من مكانه: "هذا ما كنت أعنيه تماما، صحيح يا أليوشا لقد ضربت بيدي على موضع ذلك الكيس فوق صدري!"، فأسكت المحامي متيا، واستطرد أليوشا فشرح رأيه قائلا: "إن ذلك العار كان على الأرجح ماثلا في ذلك المبلغ الذي كان يمكنه أن يعيده إلى كاترينا ايفانوفنا بوصفه نصف الدين الذي لها عنده، ولكنه لم يعده بل اعتزم إنفاقه لغرض آخر وهو الفرار مع جروشنكا إذا رضيت، هذه هي الحقيقة، ولقد ذكر أخي وقتئذ كلمة (نصف العار) وكررها فقد كان يمكنه أن يحرر نفسه من نصف العار بإعادة نصف المبلغ إلى صاحبته، ولكنه ما كان يستطيع ذلك مع ما به من ضعف إرادة!".

وهنا سأله فتيو كوفتش: "هل تذكر تماما أنه ضرب بيده على ذلك المكان من صدره؟".

- أذكر ذلك بكل وضوح.

وهنا تدخل النائب فسأل أليوشا: " أأشار المتهم إلى نقطة معينة أن أنه ضرب صدره بقبضة يده فقط؟".

- لم يكن ذلك بقبضة يده بل أشار بأصابعه إلى موضع في أعلى الصدر!، لا أدري كيف نسيت ذلك ولم أذكره إلا الآن!، وعندئذ سأل الرئيس المتهم عن رأيه في شهادة هذا الشاهد فأجاب

بتوكيد ما ورد فيها وأنه كان يشير إلى الألف والخمسمائة روبل التي كانت على صدره، ليدفع بها نصف العار الذي لحقه بتبديد نصف مال كاتيا"، ثم وجه كلامه إلى أليوشا قائلا: " لقد أصبت يا أليوشا، شكراً لك!".

وهكذا انتهت شهادة أليوشا وقد دلت على أن ذلك الكيس الذي يحوي ألفاً وخمسمائة روبل كان موجوداً فعلا ولم يكن أكذوبة اخترعها المتهم!.

ثم استدعيت كاترينا ايفانوفنا للإدلاء بشهادتها، وما إن دخلت قاعة المحكمة حتى أمسكت السيدات بالنظارات المقربة، وأما الرجال فقد اشرأبت أعناقهم لرؤيتها، وشحب وجه متيا حتى عاد كوجوه الموتى، وكانت مرتدية ثيابا سوداء، ومضت في تواضع وخجل ولكن كانت عيناها تشعان ببريق العزم، وكانت في الحق جميلة فاتنة، وكان صوتها رقيقاً ولكنه كان واضحاً يسمع في أرجاء القاعة، وقد استجوبها رئيس المحكمة في رفق واحترام متفاديا بعض النقاط مراعيا شفاءها، على أنها أجابت في حزم بأنها كانت مخطوبة للمتهم حتى هجرها من تلقاء نفسه، ولما سئلت عن الثلاثة الآلاف روبل التي سلمتها إليه كي يرسلها إلى بعض أقاربها في موسكو، أجابت قائلة: "إني لم أعطه ذلك المبلغ لكي يرسله إلى موسكو حقا، بل شعرت بأنه يعوزه المال فاحتلت بذلك لإقراضه إياه بهذه الطريقة ولهذا قلت له حينذاك: "ينبغي أن ترسله في مدى شهر إذا أمكن ذلك، ولم يكن ثمة داع لأن يزعج نفسه بشأن هذا الدين"، ولن أكرر هنا الأسئلة التي وجهت إليها وأجوبتها عليها وإنما أذكر زبدة شهادتها.

قالت: "لقد كنت موقنة أنه سوف يرسل هذا المبلغ إلى موسكو حين يحصل على مال من أبيه، وأنا لم أشك قط في شرفه ونزاهته في كل ما يتعلق بالمال، وقد كان على ثقة من حصوله على المال من أبيه وتحدث معي مراراً بهذا الشأن، وكنت أعلم أنه في نزاع مع أبيه إذ كان يعتقد دائما أنه ظالمة، ولست أذكر أنه قال أمامي ما يشتم منه تهديد لوالده ولو أنه جاء إلى لأرحت باله من ناحية ذلك المبلغ المشئوم، ولكنه كان قد انقطع عن زيارتي وأنا كنت في موقف... لا يسمح لي باستدعائه..."

وسكتت لحظة ثم استطردت قائلة بعزم ظاهر: "وليس لي حق في أن أطالبه بذلك الدين فإني مدينة له بفضل كبير قبل ذلك المبلغ، إذ عاونني يوما بأكثر منه، وقد أخذته منه في وقت كنت لا آمل فيه أن أوفي بديني!"، وكان في لهجتها رنة تحد ظاهر، فبدأ فتيو كوفتش استجوابها، وسألها:

– أحدث ذلك هنا في البلدة أم عند ابتداء التعارف بينكما؟

وقد كان لكاترينا ايفانوفنا دخل في استدعاء هذا المحامي من بطرسبورج ولكنها كتمت عنه سر الخمسة الآلاف التي تسلمتها من متيا وكونها قد سجدت له وقتئذ، ولعلها هي نفسها لم تكن تدري حتى اللحظة الأخيرة أتفشى سر ذلك الحادث في المحكمة أم لا؟

ثم قالت رداً على سؤال المحامي: "لن أنسى تلك اللحظات ما حييت" ثم جعلت تسرد ذلك الحادث الذي سبق أن أسر به متيا إلى أليوشا، وكيف سجدت له شاكرة، أجل ذكرت كل شيء وذكرت الحرج الذي طلب إلى أختها أن تبعثها إليه إذا أرادت أن تحصل منه على ذلك المبلغ، بل كتمت

ذلك في نبل وشهامة، ولم تخجل من أن تبدو كأنها ذهبت إلى الضابط الشاب بدافع من نفسها لكي تستجديه ذلك المبلغ معتمدة على شيء ما!، لقد كان ذلك منها تضحية هائلة جعلتني أرتجف وأنا أصغي إليها!، وساد الصمت قاعة المحكمة حتى لا تفوت السامعين كلمة واحدة، لقد كان شيئاً لم يسبق له مثيل! ولمن ضحت سمعتها إلى هذا الحد؟، لذلك الرجل الذي خدعها وأهانها لكي تنقذه من ورطته وتحدث في نفوس القضاة والمحلفين أثراً طيباً ينفعه!

على أنه حين انتشرت القصة في البلدة بعد ذلك تساءل الكثيرون هل قنع الضابط الشاب من تلك الفتاة الحسناء بانحنائها له حتى الأرض؟!، وقيل إنها حين أدلت بشهادتها بهذا الشأن قد حذفت جانباً منها، على أن السيدات الوقورات في بلدتنا، قلن رداً على ذلك: "حتى إن كانت لم تخف شيئاً وكانت الحقيقة كما ذكرتها تماما فليس مما يشرف فتاة أن تسلك مثل ذلك المسلك ولو كان لإنقاذ أبيها!".

لعل كاترينا إيفانوفنا قد توقعت مثل هذا التعقيب، ولكنها مع ذلك أزمعت أمرها على أن تقول للمحكمة كل شيء، وبديهي أن كل التعلقات الخبيثة على الموضوع لم تذكر إلا فيما بعد، أما وقت الإدلاء بها في المحكمة فقد كان لها أثر بالغ، وأنصت القضاة والمحامون في احترام إلى كاترينا وهي تذكر اعترافها الرهيب، ولم يجرؤ النائب أن يوجه إليها أي سؤال، أما المحامي فيتوكوفتش فقد حني رأسه احتراماً لها وبدت عليه دلائل الظفر فقد كسب المتهم كثيراً من تلك الشهادة، وأما متيا فقفز من مقعده ثم جلس ثانية وغطى وجهه بيديه حتى إذا أتمت كلامها قال لها وهو ينتحب: "لقد قضيت علي

يا كاتيا!"، ثم بقيت كاترينا في قاعة المحكمة وجلست في مقعدها وكانت شاحبة الوجه غاضة الطرف، ولحظ الذين كانوا إلى جوارها أنها كانت ترتجف كأنها بها حمى!

وبعد ذلك استدعيت جروشنكا للإدلاء بشهادتها، وكانت هي أيضًا في ثياب سوداء، ومضت إلى منصة الشهود بخطاها الناعمة التي تشبه خطى القطط، تنظر إلى الرئيس ولا تحيد ببصرها إلى يمين أو شمال، وكانت بارعة السن ليس بوجهها شحوب، ولكن يبدو عليها العزم والتحدي والعناد، وكان في نفسها شيء من الخجل لا تلبث حتى تتغلب عليه، ولذا كان صوتها يعلو وينخفض حسب أحاسيسها، ولما سئلت عن علاقتها بفيدور بافلوفتش أجابت قائله: "لقد كان ذلك كله عبثًا، على أن الذنب ذنبي فقد كنت أسخر من الأب والابن كليهما، فأنا التي وصلت بهما إلى هذه النهاية!".

وذكر أيضًا اسم سامسونوف فقالت بلهجة التحدي:

– إن علاقتي به لا تعنى أحدًا سواي!، لقد انتشلني من وهدة الفاقة حين أنكرتني أسرتي!".

وذكرت جروشنكا أنها لم تر الظرف الذي قيل إنه كان يحوى ثلاثة آلاف روبل معدة لها، ولكنها سمعت به ثم قالت: "كان ذلك حماقة جعلتني أضحك، وما كان أي مبلغ من المال ليغريني بالذهاب إلى ذلك الشيخ".

وسئلت ممن سمعت بذلك الأمر؟ فأجابت: "من ذلك الوغد المسمى سمردياكوف الذي قتل سيده ثم شنق نفسه في الليلة الماضية".

ولما سئلت عما يدعوها إلى اتهامه بالقتل، اتضح أنها لا تملك دليلا على

اتهامه وقالت: "إن ديمتري فيدورفتش قال لي ذلك حين زرته في السجن، ويمكنكم أن تصدقوه، إن المرأة التي وقفت بيني وبينه قد قضت عليه، إنها الأصل في كل ما حدث".

ولما سئلت عن المرأة التي تعنيها قالت: "أعني السيدة الصغيرة كاترينا إيفانوفنا الجالسة هناك، لقد بعثت في طلبي وقدمت لي حلوى وحاولت أن تخلب لي، إنها امرأة بلا حياء"، وهنا نهرها الرئيس بشدة وأمرها بأن تهذب من كلامها، ولكن الغيرة كانت قد ألهبت لسانها فلم تبال ما تقول!.

ثم سألها النائب: "حين كنت مع المتهم في موكرو وقبض عليه سمعك كل إنسان وأنت تصيحين قائلة: (إن الذئب ذنبي، سنرحل إلى سيبريا معًا)، فهل كنت وقتئذ تعتقدين أنه قتل أباه؟".

فقالت: "لست أذكر ما كنت أعتقده في تلك الساعة، إن كل إنسان كان يصيح قائلا إنه قتل أباه، فشعرت بأنه إذا كان قد قتله حقا فإن الذنب ذنبي، غير أنه لما ذكر لي أنه برئ من دم أبيه صدقته وأنا لا أزال أصدقه الآن وسأصدقه دائما، إنه ليس بالرجل الذي يكذب"، ".. وسبق ديمتري من قفص الاتهام إلى السجن، بينما كانت جروشنكا تصرخ مولولة"، ثم بدأ فتيو كوفتش يوجه أسئلته إليها، فسألها عن راكتين وعن الخمسة والعشرين روبلا التي أعطته إياها لكي يحضر إليها ألكسي فيدوروفتش فأجابت بازدراء:

– كان يأتي إلى دائما لطلب نقود، وكان يأخذ منى ثلاثين روبلًا على الأقل في الشهر لينفقها على الكماليات لأنه في الواقع لديه ما يكفيه.

– وما الذي جعلك تغدقين عليه هكذا؟

– إنه ابن خالتي، ولكنه كان يرجوني دائما ألا أخبر أحدًا بصلة القرابة التي بيننا إذ كان يخجل منها!.

وكان ذلك مفاجأة للجميع، فإن أحدًا في البلدة لم يكن يعلم بتلك الصلة التي بينهم، حتى متيا لم يكن يعلم بها، وقد سمع راكتين ذلك وهو قابع في مجلسه فعلت وجهه زرقة العار والخجل، وكانت جروشنكا قبل أن تأتي إلى المحكمة قد علمت بأن راكتين شهد ضد متيا فأغضبها ذلك وعزمت على الانتقام منه، وهكذا ضاع الأثر الباقي من أقوال راكتين عن العواطف النبيلة ومن تنديده بالعبودية والفوضى السياسية في روسيا.

وقد سر المحامي من هذا التصريح الذي أدلت به جروشنكا وكأن القدر حرك به لسانها لتجريح ذلك الشاهد الخطر، ولم يستغرق استجوابها وقتًا طويلا، على أنها أحدثت في الجمهور أثرًا سيئًا فقد رمقتها مئات الأعين شزرًا، وكان متيا صامتًا طول إدلائها بشهادتها وكأنما أصبح حجرًا لا حس به!، ثم استعد إيفان للشهادة، وكان قد استدعى قبل أليوشا للإدلاء بشهادته ولكن أرجئ سماع أقواله لمرضه أو لنوبة اعترته كما قيل، ولم يكد أحد يلحظ دخوله حين جاء فإن شهادة المرأتين المتنافستين في حب المتهم كانت استحوذت على شعور الجمهور!، ودخل ايفان يمشى على مهل وقد حنى رأسه كمن تشغله الأحزان، وكان أنيق الثياب ولكن وجهه كان أشبه بوجوه الموتى لا تكاد تنم ملامحه عن الحياة، وعيناه قد فقدتا بريقهما وكان ينظر حوله في ذهول!، وقال له الرئيس: "لا ضرورة لحلف اليمين، في إمكانك أن تجيب عن الأسئلة أو ترفض الإجابة، ولكن عليك أن تدلى بشهادتك بما يمليه عليك ضميرك".

وأصغى إيفان إليه مليًا ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة وقال بصوت مرتفع: "حسنًا وماذا أيضًا؟".

فاستغرب الجميع منظره وقال له الرئيس: "لعلك ما زلت مريضًا؟".

فقال له إيفان:"لا تزعج نفسك بأمري يا حضرة الرئيس فإني بخير حال وسأقول لكم شيئًا شائقًا!".

فنظر إليه الرئيس بارتياب وقال: "هل لديك شيء خاص تريد أن تقوله؟".

فخفض ايفان من بصره وقال له: "كلا!، ليس عندي شيء خاص أقوله!".

ثم أخذوا يوجهون إليه أسئلة وهو يجيب باقتضاب واشمئزاز، وإن تكن إجاباته سيمة ثم قال: "لست أدرى شيئا عن العلاقات المالية التي كانت بين أبينا وديمتري، ولم أهتم بذلك قط، وقد علمت من سمرديا كوف بأمر ذلك الظرف الذي يحوى ثلاثة آلاف روبل".

وكف عن الكلام فجأة ثم حدق في الرئيس قائلا: "دعني أذهب فإني مريض!".

وهم بالخروج قبل أن يؤذن له، ولكنه بعد أن خطا بضع خطوات عاد فقال للرئيس:

– إنني مثل البنت الفلاحة، فأنا أقف شاهدًا إذا شئت ولا أقف إذا لم أشأ!، لقد أرادوا أن يضعوا عليها زعفرانا لكى تذهب إلي الكنيسة ويعقد

قرانها فقالت لهم: (سأقف إذا شئت ولن أقف إذا لم أشأ)، ألم تسمع بتلك القصة يا سيدي؟".

فقال له الرئيس: "ماذا تعني بذلك؟".

فأخرج من جيبه رزمة من ورق النقد وقال: "هذا هو المال الذي كان في المظروف، والذي قتل أبي من أجله".

وأشار إلى المنضدة التي وضع المظروف عليها، بينما تناول الحاجب منه ورق النقد وسلمه إلى الرئيس، ثم استطرد ايفان قائلا: "لقد تسلمتها من سمردياكوف، القاتل، أمس.

وكنت معه قبل أن يشنق نفسه. إنه هو، لا أخي، الذي قتل أبانا، لقد قتلته وانا الذي حرضته على قتله، ومن ذا الذي لا يتمني موت أبيه؟".

فدهش الرئيس وقال له: "هل أنت بكامل عقلك؟".

فأجاب: "أحسبني بكامل عقلي!، بتلك الحالة العقلية الكريهة التي لكم جميعًا والتي لأصحاب هذه الوجوه القبيحة كافة".

وهنا التفت إلى الجمهور، ثم استطرد قائلا: "إنهم جميعًا يتبادلون الكذب والرياء.

وهم جميعًا يتمنون موت آبائهم!، إن أفعي تلتهم أخرى، ولو لم تقع جريمة قتل لتكدر هؤلاء جميعًا وذهبوا إلى بيوتهم آسفين!، إنهم لا يريدون إلا منظرًا يتفرجون عليه، هل عندكم ماء؟، أعطوني جرعة أشربها بحق المسيح!"، وهنا وقف أليوشا وصاح قائلا: "إنه مريض!، لا تصدقوا ما يقوله!، إن به حمى مخية".

وقفزت كاترينا إيفانوفنا من مقعدها ونظرت إلى إيفان بفزع ثم استطرد هو فقال: "كلا!، ليس بعقلي دخل كما تظنون!، لست مجنونًا وإن أكن قاتلًا، ولا تتوقعوا الفصاحة من قاتل!".

وهنا دار الهمس بين الرئيس والنائب وبين عضوي اليمين واليسار، وأطرق المحامي كيلا تفوته كلمة، وساد القاعة صمت الفضول، ثم قال الرئيس لإيفان: "إن كلامك أيها الشاهد غير مفهوم ولا معقول، هدئ من روعك وقل لنا ما تريد أن تقوله إذا كان لديك حقًا ما يقال، هل لديك دليل على ما ذكرته إذا كنت حقًا لا تهذى؟".

فقال ايفان: "هذه هي المسألة!، ليس لدى دليل!، إن الوغد سمردياكوف لن يرسل إليكم دليلا في خطاب من العالم الآخر!، إنكم لا تفكرون إلا في الخطابات ولكن واحدًا منها يكفى، ليس لدى أي شاهد سوى واحد ربما..".

– من هو ذلك الشاهد؟

– إن له ذيلا يا حضرة الرئيس!، إنه شيطان صغير تافه، لقد سكت عن الضحك وتكلم همسًا، لا شك أنه في مكان ما بهذه القاعة، ربما يكون تحت هذه المنضدة التي عليها الأدلة المادية، وبالله أين يجلس إن لم يكن هناك؟، والآن هيا خذوني بدلا من أخي إني لم آت إلى هنا عبثًا!، لماذا يبدو الغباء عليكم جميعًا؟".

وهنا أسرع إليه الحاجب فأمسكه ايفان من كتفيه وأوقعه على الأرض، ولكن الشرطة قبضوا عليه فصار يصرخ ويقول كلامًا لا معنى له، وساد

الاضطراب قاعة المحكمة، ولكن بعد بضع دقائق أعيد النظام إلى الجلسة وإذا بحادث آخر يقع، فقد انتابت كاترينا ايفانوفنا نوبة هستيرية فصارت تنتحب وتصرخ ورفضت أن تخرج من القاعة، ثم قالت للرئيس بأعلى صوتها: "عندي أقوال أخرى أريد أن أدلي بها توًا، هناك وثيقة هامة، هي خطاب من ذلك الوحش الذي هناك (وأشارت إلى المتهم)، إنه هو الذي قتل أباه وهذا هو الدليل القاطع. لقد كتب إلى يقول إنه سيقتل أباه، أما الآخر فإنه مريض، مريض، إنه يهذي!".

فتسم الحاجب منها ذلك الخطاب وذهب به إلى الرئيس ثم استطردت هي فقالت:

– إنني متأهبة للإجابة عن أسئلتكم!

فطلب إليها أن توضح كيف تسلمت هذا الخطاب فأجابت قائلة:

– لقد تسلمته في اليوم السابق ليوم الجريمة، ولكنه كان قد كتبته في اليوم الأسبق أي قبل يومين من وقوع الجريمة، كتبه في حانة على ورقة حساب، لقد كرهني لأنه أساء إلي وجرى وراء تلك المخلوقة، ولأنه كان مدينًا لي بثلاثة آلاف روبل، أوه!.

لقد خجل من ذلك الدين لشحه ودناءته، أرجو أن تصغوا إلي، أنه قبل بضع أسابيع من قتله أباه جاء إلى صباح يوم، وكنت أعرف أنه محتاج إلى المال وأعرف لماذا يريده، أجل لكي يكسب به قلب تلك المخلوقة ويهرب معها!، وأيقنت أنه لم يكن مخلصًا لي وأنه يعتزم هجري، فأعطيته ذلك المبلغ بحجة إرساله إلى أختي في موسكو، ولم يدرك هو أني قصدت أن أقول له:

(إنك تريد مالا لكي تخونني مع تلك المخلوقة فإليك المال وأنا أعطيك إياه بنفسي، فخذه إذا لم يكن من الشرف ما يمنعك من أخذه)، لقد أردت أن أبرهن له على حقيقة نفسه، فماذا حدث؟، لقد أخذ المبلغ وبدده في ليلة واحدة على تلك المخلوقة، ولكنه كان يعرف أني مطلعة على كل شيء، وأؤكد لكم أنه فهم قصدي من إعطائه المبلغ، وهو أن أمتعنه لأرى إن كانت له بقية من شرف!، ومع ذلك أخذه!"، فصاح متيا من مكانه: "هذا صحيح يا كاتيا، لقد أدركت أنك تريدين أن تخزيني بذلك المبلغ ولكنى مع هذا أخذته!، ولك أن تحتقريني لأني وغد، لقد استأهلت احتقارك!".

فصاح به الرئيس يأمره بالسكوت، واستطردت كاترينا ايفانورنا:" فتكاءت عن رغبته في إعادة المبلغ إليها ولذا قتل أباه، على أنه إنما أراد المبلغ الذي سرقه لكي ينفقه على جروشنكا لا لكي يوفى بدينه، ثم كتب ذلك الخطاب في سكره ولو لم يكن مخمورًا لما كتبه!"

وكان لأقوالها هذه الأثر الأكبر في المحكمة، فسئل متيا هل يعترف بأنه هو الذي كتب ذلك الخطاب فأجاب قائلا:

– أجل!. كتبته، وكنت وقتئذ سكران بالحانة!".

ثم وجه كلامه لكاترينا إيفانوفنا قائلا:" لقد كنا نتبادل البغ لدواع شتى، ولكنى أقسم لك إني كنت أحبك في الوقت الذي كنت أبغضك فيه، أما أنت فلم تحبني قط!".

ثم أخذ النائب والمحامي يوجهان إليها الأسئلة ليستوثقا مما دفعها إلى الإدلاء بهذه الشهادة الجديدة التي تناقض شهادتها السابقة، فقالت:

– لقد كنت في شهادتي الأولى لأني أردت إنقاذه لا لشيء سوى أنه كان يبغضني ويزدريني، أجل لقد ازدراني منذ اللحظة التي انحنيت له حتى لمست جبهتي الأرض، وكم من مرة كانت عيناه تقولان لي: "لقد جئت إلي من تلقاء نفسك!"، وهو لم يرد الزواج بي إلا لأني ورثت ثروة!، آه إنه وحش!، لقد حسب أن علي أن أرتجف أمامه خجلًا لأني ذهبت إليه في ذلك اليوم المشئوم، وأن من حقه أن يزدريني من أجل ذلك، ولقد حاولت أن أقهره بحبي الذي لا حد له، بل حاولت أن أغفر له خيانته لي، ولكنه لم يفهم شيئًا، وأنى له أن يفهم وهو الوحش العاطل من الشعور؟!".

وحاول الرئيس جهده أن يهدئ من روعها، وأخذ النائب يستدرجها بأسئلته ليستل منها كل معلوماتها، فذكرت أن إيفان كاد في الشهرين الأخيرين يفقد عقله لانشغاله بإنقاذ أخيه المجرم الوحش، ثم قالت:

– لقد ظل يعذب نفسه ويخفف من جرم أخيه، وقد اعترف لي بأنه هو أيضًا لم يكن يحب أباه وربما تمنى موته، آه، إن له قلبًا رقيقًا وضميرًا حساسًا!، لقد قال لي كل شيء إذا كان يزورني كل يوم ويحدثني لأنه لا صديق له سواي، ولي الشرف أن أكون صديقته!، وقد زار سمردياكوف مرتين ثم جاء يقول لي أن سمردياكوف هو القاتل، وزعم أنه هو أيضًا مذنب لأنه ترك سمرياد كوف يعتقد أنه يتمنى موت أبيه!، وعندئذ أطلعته على ذلك الخطاب الذي كتبه أخوه في الحانة فأيقن أن أخاه هو القاتل ولا أحد سواه، على أنه لم يحتمل التفكير في أن أخاه قد قتل أباهما، فظل طول الأسبوع الأخير مضطرب الفكر يكاد عقله يذهب شعاعًا!، وفحصه الطبيب الأخصائي الذي جاء من موسكو وقال لي: "إنه مشرف على حمى مخية!، كل ذلك من جراء ذلك الوحش!".

ولما أفرغت ما بنفسها من حقد تملكتها الهستيريا فصرخت وارتمت على الأرض، وعندئذ قامت جروشنكا من مكانها واندفعت نحو قفص الإتهام قبل أن يمنعها الحاجب وهي تولول وتصح: "يا متيا، إن هذه الأفعى قد قضت عليك!، لقد كشفت أخيرًا عن حقيقتها!"، وأمسكها الحراس وسحبوها نحو الباب وهي تجاهدهم كي تعود إلى المتهم، وصرخ متيا بدوره وحاول أن يصل إليها لولا أن غلبه الحراس على أمره، وعلى أثر ذلك أرجئت الجلسة ساعة!.

وانسحب المحلفون ليتشاوروا وكان أكثر الجمهور يتوقعون الحكم ببراءة متيا، ولكن المحلفين ما لبثوا حتى أصدروا قرارهم بأنه مذنب! فصاح متيا يقول: "أقسم بالله وباليوم الآخر إني برئ من دم أبي، يا كاتيا إني أسامحك! يا أخوي ويا أصدقائي اشفقوا على المرأة الأخرى"، ثم أخذ يبكى وينتحب على حين صرخت جروشنكا من ركن أقصى بالقاعة، وأخد متيا إلى السجن، وأرجئ النطق بالحكم إلى اليوم التالي، وساد الاضطراب المكان وإنما سمعت بعضهم يقول: "سيحكم عليه بالنفي عشرين سنة في مناجم سيبريا".

وقد صح ما توقعوه.

الفهرس